

جورج بوليتزر

مبادئ أولية في الفلسفة



ولد بوليتزر في نافيفارود (هنغاريا) عام ١٩٠٣، وغادرها عام ١٩٢١ على أثر استيلاء الرجعية على السلطة التي كانت تلاحق والده. درس في السوربون وأنس مع هنري لوفيفر وآخرين مجلات فنشر فيها دراسات في علم النفس والتحليل النفسي ونقداً للبرغسونية.

بوليتزر هو ذلك الفيلسوف المتسق مع نفسه، عاش وقضى في سبيل مثله الأعلى، على حد تعبيره، رابطاً هكذا بين النظرية والممارسة في وحدة لا تنقسم.

والكتاب الذي بين أيدينا يمثل لحظة من نضال الفيلسوف الشهيد ضد النازية، وهو عبارة عن مجموعة الدروس التي ألقاها في الجامعة العمالية التي ساهم في تأسيسها عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ في باريس. فجورج بوليتزر يجمع في عمله هذا البساطة إلى الدقة يعرف أن يكون واضحاً وعميقاً في آن. وفي ذلك تكمن عبقريته. وفي هذا تكمن أهمية الكتاب: إنه مدخل جيد إلى الفلسفة مدخل يتسع لجميع القراء ويزودهم بدليل واضح لتابعة الطريق في الوقت نفسه.

ISBN 9953-411-52-2

مبادئ أولية
في الفلسفة

جورج بوليتزر

Georges Politzer

مبادئ أولية في الفلسفة

Principes élémentaires de philosophie

نقلته إلى العربية وقدمت له
د. فهمية شرف الدين
ضبط مصطلحاته الفلسفية
موسى وهبة
دكتوراه الدولة في الفلسفة
دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة

دار الفارابي

Editions Sociales
1969

تقديم المترجمة

١ - موقع الكتاب

يقول هيغل في تقديمه « لفنومينولوجيا الروح » ان كل ما يقال عن الفلسفة في مقدمة ما من عرض موجز لمبادئها او توطئة للدخول اليها لا يتمتع بأية قيمة فلسفية . ويخلص الى ان الفلسفة لا تقدم الا بالفلسفة .

مما يعني ان تلك الكرة المثلثة التي هي الفلسفة ليس لها باب يعبر منه فاما ان تكون ضمنها واما خارجها .

ولعل « تشخيص » هيغل يصح على معظم الكتب التبسيطية التي تشكل مدخلا او ترمع ان تشكل ذلك المدخل الى الفلسفة . فهي اما ان تبقى في مجال الانشاء الادبي - مجموعة اخبار عن الفلسفة . . واما تبقى سراً مغلقاً على غير العارفين .

جورج بوليتزر يقطع العقدة الغوردية التي عقدها العراف هيغل : من بابه يمكن للجميع ان يدخلوا الى الفلسفة « ويغزوا » كنوزها : مع بوليتزر تصبح الفلسفة ملكية عامة :

فجورج بوليتزر يجمع البساطة الى الدقة ، يعرف ان يكون واضحاً وعميقاً في آن . وفي ذلك تكمن عبقريته . . وفي هذا تكمن اهمية الكتاب : انه مدخل جيد الى الفلسفة ، مدخل يتسع لجميع القراء ويزودهم بدليل واضح لمتابعة الطريق في الوقت نفسه .

واذا كان ذلك كافياً بحد ذاته لنقل هذا الكتاب الى العربية فان حاجة المكتبة

الكتاب : مبادئ أولية في الفلسفة

المؤلف : جورج بوليتزر

المترجمة : د. فهمية شرف الدين

الناشر : دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت : 01)301461 - فاكس : 01)307775

ص.ب : 11/3181 - الرمز البريدي : 1107 2130

الطبعة الأولى 1979

الطبعة الثانية 1980

الطبعة الثالثة 1981

الطبعة الرابعة 1985

الطبعة الخامسة 2001

ISBN: 9953-411-52-2

جميع الحقوق محفوظة

DAR AL FARABI

(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban

Tel: (01)301461 - Fax: (01)307775 - P.O.Box: 3181/11

Code Postale: 1107 2130

e-mail: farabi@inco.com.lb

وقد أعدت ترجمته في الأساس لنيل دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة في كلية الآداب - الجامعة اللبنانية بإشراف الدكتور معن زيادة رئيس قسم الفلسفة في كلية الآداب الفرع الأول. ونالت تقديراً من درجة جيد جداً.

العربية الى هذا النوع من الكتب تزيد في اهمية النقل والحاحيته ، ولكنها في الوقت نفسه تضعنا امام المسؤولية الناجمة عنها : ينبغي ان يأتي النقل على مستوى الأصل ، والا ضاعت الغاية الاساسية للعمل ، اي ينبغي ان يأتي النقل واضحاً ودقيقاً في آن ، ميسراً للجميع دون تساهل في الاداء .

تلك هي الصعوبة التي حاولنا تذليلها خلال هذا العمل الذي تم باشراف جامعي ، ولم يكن يهدينا الطريق سوى جهود المترجمين السابقين المتعديدين الذين انتفعنا بنجاحاتهم واطغائهم ، وخصوصاً بأخطائهم .

لقد تعلمنا من أخطائهم : ان النص المترجم ينبغي ان يتيح للقارئ الفهم دونما الحاجة الى العودة للنص الأصلي او لدائرة المعارف .

- ان النص ينبغي ان ينقل كاملاً دون رقابة او تعليقات المعية ، هي ان تمت عن شيء فأئماً تتم عن عدم ثقة بالقارئ العربي الذي يفترض غالباً دون سن الرشد .

ان هذا الدرس الثمين قد علمناه بوليتزر بالذات ، بوليتزر المعلم والمناضل الذي يعرف ان يتوجه الى « الحس السليم » ذي الابعاد الكونية ويرتفع به من « بداياته » الميتافيزيقية الى المنهج الديالكتيكي ، فاذا بـ « الحس السليم » قابلاً ليس فقط لتقبل الديالكتيك ، ذلك « الشيء » المزمع صعباً ، بل وايضاً قادر على التغلب من هيمنة الميتافيزيقا عبر تغليب عنصره السليم ، عبر تطويره .

٢ - المؤلف

ولد جورج بوليتزر في نافيفارود (هنغاريا) عام ١٩٠٣ . وغادرها الى باريس عام ١٩٢١ على اثر استيلاء الرجعية على السلطة التي كانت تلاحق والده . درس في السوربون ثم علم في ليسيه دومولون وانتقل بعد نيله لقب استاذ الى ليسيه شربورغ واخيراً الى ليسيه سان موز . اسس مع هنري لوفيفر واخرون مجلات نشر فيها دراسات في علم النفس والتحليل النفسي ونقداً للبرغسونية . كما اسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعي الفرنسي واشرف عليه ، واصبح محرراً اقتصادياً في صحيفة الاومانيتيه الصحيفة المركزية للحزب الشيوعي .

بالاضافة الى ذلك ، كان احد مؤسسي « الجامعة العمالية » في باريس ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وقد درس فيها طيلة فترة عملها وقبل اقفالها بأمر من السلطات المتعاونة مع الهتلرية . وقد اضطلع بمهام مسؤولة في تنظيم المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي ابتداء من ٦ حزيران ١٩٤٠ وشارك في المقاومة بنشاط خاصة مع الاوساط الجامعية حيث اصدر بالتعاون مع رفاقه نشرة « الجامعة الحرة » كما كتب كراساً بعنوان « الثورة والثورة المضادة في القرن العشرين » بين فيه ان الديمقراطية لم تمت وان انتصارات هتلر غير قادرة على دفنها . غير ان السلطات الهتلرية اعتقلته في شباط ١٩٤٢ وما لبثت ان اعدمتة رمياً بالرصاص مع مجموعة من رفاقه .

والكتاب الذي بين ايدينا يمثل لحظة من نضال الفيلسوف الشهيد ضد النازية ، وهو عبارة عن مجموعة الدروس التي القاها في الجامعة العمالية عشية الحرب العالمية الثانية والتي يطبعها طابع النضال ضد الفاشية والنازية المتعاطفة في اوروبا .

بوليتزر هو ذلك الفيلسوف المتسق مع نفسه ، عاش وقضى في سبيل « مثل الأعلى » على حد تعبيره ، رابطاً هكذا بين النظرية والممارسة في وحدة لا تنفصم . كان ذلك المادي على طول الخط بالقول والفعل . ولعل هذا ما يميز كتاباته المختلفة في علم النفس والفلسفة والسياسة .

لقد كان عمله في علم النفس ينطلق من موقف يعمل على رفض التجريد « السيكولوجي » والميتولوجي ، لصالح « علم نفس وفلسفة » ملموسين غير منفصلين عن العمل في قلب الوسط الاجتماعي .

ففي كتابه « اسس علم النفس » دافع بوليتزر عن الفرويدية ضد شارل بلوندال . اذ اعتبر « التحليل النفسي » الفرويدي ايجابياً كونه يميل الى دراسة الانسان الحي بكامله وليس الوظائف السيكولوجية بشكل منعزل . غير انه من العام ١٩٢٨ تنبه الى ما في التحليل النفسي من امور غير ثابتة واخذ عليه دوغمايته والنقص في وحدة مفاهيمه وفي منهجه . ومع ذلك فقد رأى فيه وضعاً هجومياً على علم النفس التقليدي ، واعتبر انه من الواضح ان يخضع لتغيرات مختلفة قبل ان ياخذ شكله النهائي ، و اضاف قائلاً : « ان الفرويدية محكومة بالزوال اذا حافظت على شكلها الحالي » :

وبالرغم من الوعود التي انتظر تحقيقها من قبل الفرويدية عاد فاخضعها لنقد اكثر عمقاً من الذي وجهه الى علم النفس التجريدي ، اخذ عليها « ميتاسيكولوجيا الوعي » والتجريد والبعد عن الواقع ، وانفصل نهائياً عنها في كتابه « نقد اسس علم النفس » .

ان موقف بوليتزر في علم النفس يتمثل في الدعوة الى علم نفس حقيقي مرتبط بالتجربة الانسانية والواقع الملموس ، ومع انه لم يقدم لنا سوى مقدمات ، ومع ان محاولته لم تكن سوى توجيهات نحو علم نفس حقيقي ، فقد كانت تلك المقدمات عبارة عن اجوبة على تساؤلاته وجهاده الطويل في سبيل خلق علم نفس بعيد عن باطن برغسون الذي يذهب على حد قول بوليتزر « من الميتافيزيقا الى الميتافيزيقا » .

العلم في خدمة الانساني الواقعي « الحي » هو ذلك الموقف الذي املاه

بوليتزر ايضا في كتاباته الفلسفية . في « الفلسفة والاساطير » اراد بوليتزر ان يبعد الفلسفة عن الخرافات فقاد صراعاً عنيداً ضد الوضعية وزعيمها اوغست كومت الذي كان يرى حكم البورجوازية ابدياً متجاهلاً قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . كما قاد في الوقت ذاته الصراع ضد المثالية الفلسفية والدين ساعياً في سبيل نشر عقيدة تحررية مرتكزة على العلوم تستقي من مادية القرن الثامن عشر وتصل ايضاً الى ديكارت . حتى انه اعتبر ان الماركسية هي العقلانية المعاصرة .

لقد كان بوليتزر من اولئك الفلاسفة المنتصرين بالرغم من ان مؤلفاته العلمية لم تكمل تفتحها ، ولم يستطع بوليتزر في حياته القصيرة ان يقدم لنا سوى بواكير فلسفية كانت من الاهمية ان غطت على النقص الحاصل من ضياع موسم الحصاد .

اهم مؤلفاته :

Révolution et contre révolution au XXe siècle

الثورة والثورة المضادة في القرن العشرين

Le bergsonisme une mystification philosophique

البرغسونية ، تحريف فلسفي

Ecrits 1 : la philosophie et les mythes

كتابات رقم ١ : الفلسفة والاساطير

Ecrits 2 : les fondements de la psychologie

كتابات رقم ٢ : اسس علم النفس

Principes élémentaires de philosophie

مبادئ اولية في الفلسفة

وهو الكتاب الذي نقله هنا الى العربية ،

كما سبق ان نشر لبوليتزر باللغة العربية .

- « فلسفة الانوار » ترجمة جورج طرابيشي صدر عن دار الطليعة . وهو

مقال عن فلاسفة القرن الثامن عشر ونضالهم ضد الايديولوجية الدينية

- « اصول الفلسفة الماركسية » لجورج بوليتزر وغني بيس ترجمة شعبان بركات وصدر عن المكتبة العصرية في صيدا .

وهذا الاخير يقترب في تقسيمه وبعض صياغاته من كتاب الذي نقلناه . غير ان كتابنا هذا يمتاز بدقته ووضوحه وقرب مناله عن الكتاب « الاصول » الذي يبدو ان اصله الفرنسي مفقود .

٣ - بعض المصطلحات :

اتبعنا في اختيار المصطلحات نهجاً يجمع الدقة الى البساطة . وفي حال التعارض كانت الدقة هي التي تطفئ على البساطة ، على ان تلجأ الى شرح ما هو معقد وغير مألوف كثيراً . ولعل ما نوردته هنا يسهم في توضيح بعض الالفاظ الجديدة التي استعملنا :

ادراك بازاء	Perception	اي الإدراك الحسي . ويتميز عن :
معرفة بازاء	Connaissance	وايضاً Savoir ولم نر ضرورياً ، نظراً للسياق الواضح اللجوء الى لفظة جديدة لـ Savoir
الاطروحة بازاء	thèse	وفضلنا على الاستعمال الشائع : قضية ، ضد القضية - التركيب . نظراً لغموض معنى القضية والنياسه ، ونظراً ايضاً لاشتراك المعنى في التركيب .
الاطروحة - التقيض بازاء	antithèse	
التوليف بازاء	Synthèse	
تحويل وتحويل بازاء	transformation	حسب تعدى المعنى اولزومه .
تغير وتغيير بازاء	Changement	
تصور بازاء	Conception	وهنا ايضاً لجأنا الى استعمال اصبح مألوفاً الى حد كبير وان خالف في ذلك بعض الكتاب الذي يعكسون المعنيين . وتفضيلنا قائم على ان الدقة المتضمنة في Concept لا يؤديها لفظ: تصور . في حين ان هذا الأخير يؤدي المقصود من Conception اي النظرية الشاملة : في تصور العالم ، أو مجموع الآراء في موقف معين : تصوره للحياة .
منهزم بازاء	Concept	
تناقض بازاء	Contradiction	وهو داخلي
تعارض بازاء	Opposition	وهو خارجي ، تقابلي
ضد ج احداث بازاء	Contraire (S)	
تناحر بازاء	Antagonisme	خاص بالصراع الحاد الذي لا يحسم الا بالغلبة.

تعليل بازاء	Raisonnement	- اما محاكمة فتعني ايضاً نفس الأمر انما بمعنى سلبى .
وتفكير احياناً بازاء	Raisonnement	وهو ايضاً تعليل انما من نوع خاص جداً يقوم على مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة .
قياس بازاء	Syllogisme	
خلف او قياس الخلف	Absurde	اما الخلف فهو ما اخل بقواعد القياس : او كان محالاً .
سيرورة بازاء	Processus	والفرق بين الاثنين هو ان عملية قد تكون ناجزة او واحدة في حين ان السيرورة عملية مفتوحة او مستمرة .
غطية بازاء	Procès	بالمعنى العام والمطلق
وجود بازاء	Etre	بالمعنى الجزئى والمحصور فيجمع على كائنات
كائن بازاء	être	
وجود (متعين) بازاء	Existence	
فكرة بازاء	Idée	
مثل بازاء	Idées	وخاصة بالمذهب الافلاطوني .
فكر بازاء	Pensée	
متسق بازاء	Conséquent	اى المتتلى والمكتمل مثلاً المادية المتسقة .
ممارسة بازاء	Pratique	وبتقابل نظرية
تطبيق بازاء	Application	
لملموس بازاء	Concret	وبتقابل المجرد
تحقيق بازاء	Réalisation	اى تحقيق في الواقع .
منهج بازاء	Méthode	
اسلوب بازاء	Manière	
نقط بازاء	Mode	

وسراع ونصارع بازاء	Lutte	وذلك من موقف وصفى حيادى .
مغال ايضاً بازاء	Lutte	وذلك من موقف منحاز ايجابياً .
جوهر بازاء	Substance	والفرق بين الجوهر والماهية هو الفرق بين المادى والذهنى ، بين قوام الشئ والفكرة المكونة عنه . من هنا ترجمتنا لـ Essentiel
ماهية بازاء	Essence	باساسى وليس بجوهري كما هو شائع خطأ في كتابات المحدثين ، وان كان اللفظ الفرنسي يترجم ايضاً بـ ماهوي انما في سياق نظري محض .
اساسى بازاء	Essentiel	
خاص بازاء	Particulier	
كلى بازاء	Universel	
متميز بازاء	spécifique	
عام بازاء	général	
ذهن بازاء	Esprit	واللفظ الأول في سياق مادى
روح ايضاً بازاء	Esprit	اما اللفظ الآخر ففي سياق مثالى .
ذهنية ايضاً بازاء	Esprit	اذا كان السياق يقتضى ذلك مثلاً : بذهنية مفتوحة .
سستم بازاء	Système	ومشتقاته : مستم ومعناه : بناء فلسفى قائم على انتظام الافكار جميعاً وتوزع مختلف الاجزاء حول فكرة رئيسية تشكل اساس الكل .
		وفضلنا اللفظ بالصيغة المشار اليها على سائر الاستعمالات الشائعة مثل نسق ونظام ومنظومة نظراً لغموضها وعدم كفايتها للغرض .
نظرية بازاء	Théorie	
مذهب بازاء	Doctrine	
عتيدة بازاء	Dogme	
دوغمائى بازاء	Dogmatique	

Aspect	.. باراء
Forme	.. باراء
Affirmation	.. باراء
Négation	.. باراء

نفي النفي باراء Négation de la négation

Métaphysique	وذلك بدل الاستعمال الشائع . ما بعد الطبيعة ..	ميثافيزيقا باراء
Dialectique	وذلك بدل الاستعمال الشائع . الجدل ..	ديالكتيك باراء
identité	ولم نر حاجة لاختراع كلمة عربية او الاستعانة بكلمة موجودة تحتاج هي أيضاً الى شرح ليس فقط لتوضيحها بل وايضاً لمنع التباسها .	هوية باراء
identique	وكتبنا احياناً متماثل باراء نفس اللفظ عندما لم يكن بالإمكان استخدام الموهو دون تعقيدات لفظية نافلة .	هو هو ، هي هي باراء

مقدمة

ان هذا الكتاب الموجز البسيط يعيد نقل الملاحظات التي دونها احد تلامذة جورج بوليتزر ، اثناء محاضراته في الجامعة العمالية ، في السنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ، ومن الضروري ان نحدد اولاً هدف معلمنا ومنهجه حتى نفهم ميزة الكتاب ومداه .

نحن نعلم ان مجموعة صغيرة من الاساتذة اسست في السنة ١٩٣٢ الجامعة العمالية لتدريس العلم الماركسي للشغيلة اليدوين ، ومنهم منهجاً في التفكير يتيح لهم فهم زماننا ، وتوجيه افعالهم جيداً ، من الناحية التقنية كما في المجال السياسي والاجتماعي .

ومنذ البدء اخذ بوليتزر على عاتقه تعليم الفلسفة الماركسية والمادية الديالكتيكية في الجامعة العمالية : كانت مهمة ملحة بقدر ما كان التعليم الرسمي يتابع تجاهل هذه الفلسفة وتشويهها .

ان اياً من اولئك الذين اسعفهم الحظ ، بحضور محاضراته - وكان يتكلم امام العديد من المستمعين حيث تختلط جميع الاعمار والمهن ، ولكن حيث يشكل الاغلبية ، العمال الشباب - لن ينسى الانطباع العميق الذي احس به امام هذا الشاب الاشقر ، المديد القامة ، المفعم بالحماس ، الكثير العلم والوعي ، الودود المتيقظ لوضع مادة جافة وجامدة في متناول جمهور لا تجربة له البتة .

كانت هيئته تفرض في دروسه نظاماً مستحباً ، يعرف كيف يكون صارماً ويبقى عادلاً على الدوام ، وكانت تتصاعد من شخصيته طاقة حيائية واشعاع جعل جميع تلاميذه يحبونه ويعجبون به .

وحتى يكون مفهوماً من الجميع ، اسقط بوليتزر من قاموسه كل لغة فلسفية غير مفهومة ، واسقط كل الالفاظ التقنية التي لا يفهمها الا المدربون ، فلم يكن يريد ان يستخدم الا الكلمات البسيطة والمعروفة من الجميع ، وعندما كان يرغب

والاستخدام لفظة خاصة ، لم يكن يغيب عن باله شرحها مطولا بأمثلة .
وإذا استخدم أحد تلامذته كلمات « متبحرة » في المناقشات ، كان يوجهه ويسخر منه بهذه السخرية اللاذعة التي يعرفها جميع هؤلاء الذين عاشروه .

كان يريد أن يكون بسيطاً وواضحاً ، يستعين بالحس السليم دون أن يضحى ، مع ذلك ، بصحة الأفكار والنظريات التي يعرضها وصوابها . كان يعرف كيف يجعل محاضراته حيوية للغاية ، بجعله المستمع يشارك في النقاش قبل الدرس وبعده . واليكم كيف كان يتصرف : في نهاية كل درس ، كان يطرح سؤالاً أو سؤالين لامتحان المعلومات ، وكان هدف هذه الأسئلة اختصار الدرس وتطبيقه على بعض المواضيع الخاصة . ولم يكن التلامذة ملزمين بمعالجة الموضوع ولكن العديد منهم كانوا يلزمون أنفسهم ، ويقدمون فرضاً كتابياً في بداية المحاضرة التالية . كان يسأل عن الذي انجز الفرض ، فيرفعون أيديهم ، ويختار بعضهم لقراءة النص ويكمله بشرح شفهي عند الحاجة . كان بوليتزر ينتقد أو يشجع فيولد بين التلامذة نقاشاً موجزاً ، ثم يستنتج مستخلصاً للنقاش . كان ذلك يدوم نحواً من نصف ساعة ، فيتبع لأولئك الذين فاتتهم المحاضرة السابقة أن يملأوا الثغرات ويحققوا الربط مع ما تعلموه سابقاً : وهذا كان يتيح للاستاذ أن يرى إلى أي مدى كان مفهوماً ، فيلج على النقاط الحساسة أو الغامضة عند الحاجة .

وكان بعد ذلك يبدأ الدرس اليومي ، الذي كان يدوم نحواً من ساعة ، ثم يطرح التلامذة أسئلة عما قيل . هذه الأسئلة كانت في محلها بصورة عامة ، وكان بوليتزر يستفيد منها ليقدم تحديثات دقيقة ، فيراجع الأساسي في المحاضرة من زاوية مختلفة .

أن جورج بوليتزر ، الذي كان يتمتع بمعرفة عميقة لموضوعه ، وذكاء مرئٍ مثير للاعجاب ، كان يهتم ، قبل كل شيء ، بردات فعل مستمعيه : فكان يقيس « الحرارة » العامة ، ويتفحص باستمرار درجة الاستيعاب لدى تلاميذه . وكان يتابع كذلك باهتمام كبير . لقد ساهم في تكوين الوف المناضلين الذين يحتل العديد منهم المراكز « المسؤولة » اليوم .

ونحن الذين فهمنا قيمة هذا التعليم ، وفكرنا في هؤلاء الذين لم يستطيعوا سماعه ، وخاصة برفاقنا في الريف ، كنا نتمنى طبع دروسه . وكان يعدنا بالتفكير بذلك ، ولكنه في غمار عمله ، لم يجد ابداً الوقت لتحقيق هذا المشروع .

وهكذا سنحت لي الفرصة أن اطلب إلى بوليتزر أن يصحح لي فروضي ، واعطيته ، بناء على طلبه ، دفاتر المحاضرات التي تخصني . فوجدتها محققة جيداً ، فاقترحت عليه أن أوّلف ، وفقاً للملاحظات ، دروس الصف التمهيدي . فشجعني ووعدني بأن يراها من جديد ويصححها . لكنه لم يجد ، لسوء الحظ ، وقتاً لذلك . كانت مشاغله تثقل أكثر فأكثر ، فترك الصف الأعلى لصديقنا رينه موبلان⁽¹⁾ Maublanc الذي أخبرته بمشاريعي ، وطلبت منه أن يعيد النظر في الدروس الأولى التي كتبتها . فقبل الأمر بحماس ، وشجعني لأنني هذا العمل الذي كنا ستقدمه لبوليتزر فيما بعد . لكن الحرب فاجأتنا ، ومات بوليتزر ميتة بطولية في الصراع ضد المحتل الهتلري .

وبالرغم من أن استاذنا لم يعد حياً ، لينفخ عملاً شجاعاً وإيده ، رأينا أنه من المفيد أن ننشره وفقاً للملاحظات التي دونتها عن دروسه .

أن جورج بوليتزر الذي كان يبدأ صفه في كل سنة في الجامعة العمالية بشيبت الدلالة الحقيقية لكلمة المادية ، محتجاً ضد التشويهات الافتراضية التي يخضعها لها البعض ، يذكر بحزم أن الفيلسوف المادي يعوزه المثل الأعلى ، وأنه مستعد للنضال في سبيل انتصار هذا المثل الأعلى . ولقد عرف منذ ذلك الوقت أن يثبت ذلك بتضحيته . وموته البطولي خير تمثيل على هذه الدروس التمهيديّة التي يؤكد فيها وحدة الممارسة والنظرية في الماركسية . وليس من غير المفيد الوقوف عند هذه التضحية في سبيل مثل أعلى ، وعلى هذا التفاني وهذه القيمة الأخلاقية العالية ، في حقبة يمرّون فيها من جديد على تقديم الماركسية « كمذهب يحول الإنسان إلى آلة أو حيوان متفوق بالكاد على الغوريلا أو الشمبانزي » (موعظة .

الصوم في كنيسة سيدة باريس ، التي القاها في ١٨ شباط ١٩٤٥ ، قدس الأب
بانيبي)

نحن لا نحتج ابدأ بشكل كاف ضد شتيمة رفاقنا . فلنذكر الذين يجرؤون
على هذه الشتيمة بجورج بوليتزر فقط وغبريال باري ، وجاك سولومون ،
وجاك ديكور ، هؤلاء الذين كانوا ماركسيين وعلموا في الجامعة العمالية في
باريس : كانوا جميعاً رفاقاً طيبين ، بسطاء ، كرماء ، واخويين ، ولا يترددون
في التضحية بجزء كبير من وقتهم للمجيء الى حي مجهول ، لتعليم الفلسفة
والاقتصاد السياسي والتاريخ والعلوم ، للعمال .

اغلقت الجامعة العمالية عام ١٩٣٩ . وعادت الى الظهور غداة التحرير باسم
« الجامعة الجديدة » . وحل فريق جديد من الاساتذة المخلصين محل الذين
اعدوا بالرصااص (على ايدي النازية) واعادوا سيرة العمل الذي توقف .

ان تكريم احد مؤسسي ومنشئي الجامعة العمالية هو ما يشجعنا في هذه
المهمة ، واي تكريم آخر لا يظهر لنا اكثر صحة واكثر منفعة من نشر المبادئ
الاولية للفلسفة لجورج بوليتزر .

موريس لوغوا

Maurice le goas

القسم الأول

المشكلات الفلسفية

المقدمة

- ١ - لماذا يجب ان ندرس الفلسفة ؟
- ٢ - هل دراسة الفلسفة شيء صعب ؟
- ٣ - ما الفلسفة ؟
- ٤ - ما الفلسفة المادية ؟
- ٥ - ما هي العلاقات بين المادية والماركسية ؟
- ٦ - حملات البورجوازية ضد الماركسية .

١ - لماذا يجب ان ندرس الفلسفة ؟

نرمع ، عبر هذا المؤلف ، ان نعرض المبادئ الاولى للفلسفة المادية ونشرحها .

لماذا ؟ - لأن الماركسية ترتبط ارتباطا وثيقا بفلسفة ومنهج : هما فلسفة المادية الديالكتيكية ومنهجها . لقد اصبح لزاما علينا اذن ان ندرس هذه الفلسفة وهذا المنهج ، لفهم الماركسية فهما جيدا ، ولتفنيد حجج النظريات البورجوازية ، بالاضافة الى مباشرة النضال السياسي الفعال .

لقد قال لينين : « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية »^١ ، هذا يعني اول ما يعني انه ينبغي ربط النظرية بالممارسة .

ما هي الممارسة ؟ هي التحقيق^٢ . فالصناعة والزراعة مثلا تحقق (اي تنقل الى الواقع) بعض النظريات (نظريات فيزيائية او كيميائية او بيولوجية) .

١ - لينين : ما العمل : دار التقدم . ص ٣١

٢ - نستخدم التعبير الشائع « التحقيق » وكان الأفضل القول : الوعنة اي النقل الى الواقع .

ما هي النظرية ؟ هي معرفة الاشياء التي نريد تحقيقها .

من الممكن ان نكون ممارسين فقط ولكن عندها ، نحقق ، بشكل روتيني . ومن الممكن ان نكون نظريين فقط - ولكن ما نتصوره ، عندها ، يكون غالباً غير قابل للتحقيق . من الواجب اذن ان ترتبط النظرية بالممارسة . كل المسألة تكمن في معرفة كيف يجب ان تكون النظرية وكيف ترتبط بالممارسة .

نعتقد ان منهجاً للتحليل والتعليل ضروري للعامل المناضل لتحقيق عمل ثوري صحيح ، انه بحاجة الى منهج لا يكون عقيدة تقدم له حلولاً جاهزة . بل منهج يأخذ في الاعتبار الوقائع والظروف المتغيرة ابداً ، منهج لا يفصل ابداً النظرية عن الممارسة ، ولا يفصل التفكير عن الحياة . والحال ، ان هذا المنهج متضمن في فلسفة المادية الديالكتيكية اساس الماركسية التي نزمع ان نشرحها .

٢ - هل دراسة الفلسفة شيء صعب ؟

من المعتقد عادة ان دراسة الفلسفة هي شيء كثير الصعوبة بالنسبة للعمال ، ويتطلب معارف خاصة ، وينبغي الاعتراف بان الطريقة التي صيغت بها الكتب البورجوازية انما اعتمدت لتثبت في روع العمال هذه الآراء ، وتدفعهم الى مجافاة الفلسفة .

ونحن لا ننكر ابدا الصعوبات التي تعترض كل دراسة بصورة عامة ، ودراسة الفلسفة بصورة خاصة ، ولكن هذه الصعوبات قابلة تماماً للتذليل ، اذ تنجم عن كونها تتحدث عن اشياء جديدة بالنسبة للكثير من القراء .

لذلك فاننا منذ البداية ، سنعمد بتحديدنا للاشياء الى دعوة القراء لاعادة النظر في بعض التعريفات المغلوطة في اللغة المتداولة .

٣ - ما الفلسفة ؟

كلمة فيلسوف تعني في الاستعمال الشائع ، اما ذاك الانسان الذي يفرق في الخيال او الذي يأخذ الامور بتفاوت ، ذاك الذي لا يحمل هما . ، والحال ان العكس هو الصحيح ، فالفيلسوف هو ذاك الذي يريد ايجاد اجوبة دقيقة لبعض الاسئلة ، واذا كنا نعتبر ان الفلسفة تريد اعطاء تفسير لمشاكل الكون ،

(كيف وجد العالم ؟ والى اين المصير ؟) فذلك يعني ان الفيلسوف يهتم بكثير من الاشياء وانه عكس ما شاع ، « يحمل هما كبيراً »

فلتعريف الفلسفة نقول اذن : ان الفلسفة تريد شرح الكون والطبيعة ، وانها دراسة المشكلات الاكثر عمومية ، لان المشكلات الاقل عمومية تدرسها العلوم . فالفلسفة اذن هي امتداد للعلوم بمعنى انها تركز عليها وتتعلق بها . ونسرع لنضيف ان الفلسفة الماركسية تقدم منهجاً لحل جميع المشكلات ، وان هذا المنهج يتعلق بما يسمى : المادية .

٤ - ما الفلسفة المادية ؟

هنا ايضاً يوجد خلط في المعنى علينا فضحه بسرعة . يفهم ، بشكل مبتذل ، بكلمة مادي ، ذاك الذي لا يفكر الا بالتمتع بالملذات المادية . فعن طريق التلاعب بلفظ « المادية » - التي تحتوي لفظ مادة - يعطى للمادية معنى خاطئ تماماً .

وبدراستنا للمادية - بمعناها العلمي - ، سنعيد لها دلالتها الحقيقية ؛ فكون الانسان مادياً لا يمنعه ابداً ، كما سنرى ، من ان يكون لديه مثل اعلى ، وان يناضل من اجل انتصاره .

لقد رأينا ان الفلسفة تريد تفسير مشكلات العالم الاكثر عمومية . ولكن ، عبر تاريخ البشرية ، لم يكن التفسير هو نفسه .

فالاولون حاولوا شرح الطبيعة والعالم ، ولكنهم لم يفلحوا . فالعلوم هي التي تتيح بالفعل تفسير العالم والظواهر التي تحيط بنا ، والحال ان الاكتشافات التي سمحت بتقدم العلوم هي حديثة الظهور .

ان جهل الناس الاولين كان اذن حاجزاً في طريق ابحاثهم . ولذلك وبسبب هذا الجهل ، نشاهد عبر التاريخ ظهور الاديان التي تريد هي ايضاً تفسير العالم ، ولكن بواسطة قوى فوق - طبيعية . وذاك شرح لا علمي . والحال ان العلوم ستتقدم شيئاً فشيئاً عبر القرون ، وسيحاول الناس تفسير الكون بالوقائع المادية انطلاقاً من التجارب العلمية ، ومن هنا ، من هذه الارادة التي تريد تفسير الاشياء بالعلوم ستولد الفلسفة المادية .

ومع اننا سندرس المادية في الصفحات القادمة ، الا انه يتعين علينا حفظ هذا المبدأ : « المادية ليست سوى التفسير العلمي للكون » .

وخلال درسنا لتاريخ هذه الفلسفة سنرى كم كان الصراع مريرا وشاقا ضد الجهل . غير انه علينا ان نلاحظ ان هذا الصراع لم ينته في ايامنا هذه بعد ، فالمادية والجهل لا يزالان يتواجدان جنبا الى جنب .

في خضم هذا الصراع تدخل ماركس وانجلز . وبفهمهما لاهمية الاكتشافات الكبيرة التي تمت في القرن التاسع عشر ، ساعدا الفلسفة المادية على احراز تقدم هائل في التفسير العلمي للكون . وهكذا ولدت المادية الديالكتيكية . ثم انهما كانا اول من وعى ان القوانين التي تسير العالم تسمح ايضا بشرح تطور المجتمعات ، فصاغوا النظرية الشهيرة ، المادية التاريخية .

ونحن نزمع ان ندرس في هذا المؤلف اولا الفلسفة المادية ، ثم المادية الديالكتيكية ، واخيرا المادية التاريخية . ولكن قبل كل شيء نود ان نحدد العلاقات بين المادية والماركسية .

٥ - ما هي العلاقات بين المادية والماركسية ؟

نستطيع ان نوجز هذه العلاقات على الشكل التالي :

١ - ان الفلسفة المادية هي اساس الماركسية^٢
٢ - ان الفلسفة المادية هذه التي تريد ايجاد تفسير علمي لمشكلات العالم ، تقدمت عبر التاريخ مع تقدم العلوم . وبالتالي تنطلق من العلوم وترتكز عليها وتتطور معها .

٣ - لقد وجدت فلسفات مادية ، تكررنا وباشكال مختلفة ، قبل ماركس وانجلز . ولكن بعد القفزة الكبيرة التي قفزتها العلوم في القرن التاسع عشر ، جدد ماركس وانجلز المادية القديمة انطلاقا من العلوم الحديثة ، واعطيا المادية الحديثة ، التي نسميها المادية الديالكتيكية والتي تشكل اساس الماركسية .

يتبين لنا من ذلك كله ، وبمعكس ما يشاع ، ان للفلسفة المادية تاريخا . وان

٣ - راجع لينين : « المادية الفلسفية الاصلاحية » في « كارل ماركس ومذهب » .

هذا التاريخ مرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ العلوم . وان الماركسية ، المؤسسة على المادية ، لم تخرج من دماغ شخص واحد ، بل هي تنمة ومآل المادية القديمة التي كانت جد متقدمة عند ديدرو ، فالماركسية هي تفتح المادية التي طورها موسوعيو القرن الثامن عشر واغتنت بالاكتشافات الضخمة في القرن التاسع عشر . الماركسية هي نظرية حية ، وللدلالة على كيفية مواجهتها للمشكلات ، نأخذ مثلا يعرفه جميع الناس ، مشكلة الصراع الطبقي .

كيف يفكر الناس بالنسبة الى هذا الموضوع ؟ بعضهم يظن ان الدفاع عن الحيز يعفى الانسان من الصراع السياسي ، والبعض الآخر يعتقد ان هز القبضة في الشارع كاف فينكرون اهمية التنظيم . وبعضهم يدعي بأن الصراع السياسي وحده هو الذي يحل هذه المسألة .

اما بالنسبة للماركسي ، فالصراع الطبقي يتضمن :

أ - صراعا اقتصاديا .

ب - صراعا سياسيا .

ج - صراعا ايدولوجيا .

والمسألة يجب ان تطرح على هذه الارضيات الثلاث في آن .

أ - نحن لا نستطيع ان نناضل من اجل الحيز ، بدون ان نناضل من اجل السلام ، بدون ان ندافع عن الحرية ، وعن كل الآراء التي تخدم النضال في سبيل هذه الاهداف .

ب - الامر نفسه بالنسبة للصراع السياسي ، الذي اصبح علما حقيقيا منذ ماركس : نحن ملزمون ، لحوض هذا النضال ، بان نأخذ في الاعتبار الواقع الاقتصادي ، والتيارات الايدولوجية معا .

ج - اما بالنسبة للصراع الايدولوجي ، الذي يتمثل بالدعاية ، فعلينا ، حتى يصبح النضال مجديا ، ان نأخذ في الاعتبار الحالة السياسية والاقتصادية .

وهكذا نرى ان هذه المشكلات مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ، واننا لا نستطيع ان نأخذ قرارا ، امام اي وجه من وجوه هذه المشكلة الكبرى التي هي الصراع الطبقي - في الاضراب مثلا بدون ان نأخذ في الاعتبار كل معطى على حدة ،

ويعمل معطيات المشكلة نفسها .

فالذي يملك القدرة على النضال في جميع المجالات ، هو الذي يوجه الحركة اذن في الاتجاه الافضل .

هكذا يفهم الماركسي مشكلة الصراع الطبقي . ولكن في الصراع الايديولوجي الذي علينا ان نخوضه يوميا ، نجد انفسنا امام مشكلات يصعب حلها : كالحلود النفسي مثلا ، وجود الله ، احمل العالم ، الخ . . . المادية الديالكتيكية هي التي تمنحنا طريقة في التفكير ، تتيح لنا حل هذه المشكلات وايضاً فضح جميع حملات تشويه الماركسية ، التي تدعي اتمام الماركسية وتجهيدها .

٦ - حملات البورجوازية ضد الماركسية :

ان محاولات التشويه هذه تركز على اساس متنوعة جدا : فتارة ينصبون في وجه الماركسية الكتاب الاشتراكيين لمرحلة ما قبل الماركسية ، وهكذا نراهم يستخدمون الطوباويين ضد ماركس . والبعض الآخر يجند بروتون ، وبعضهم ايضا ينهل من التحريفين في فترة ما قبل ١٩١٤ (بالرغم من ان لينين قد دحضها علنا) ولكن ما يجب التشديد عليه خاصة هو هذا الصمت الذي تقيمه البورجوازية حول الماركسية . لقد فعلت كل شيء من اجل الا تعرف الفلسفة المادية بشكلها الماركسي وعمل التعليم الفلسفي في فرنسا هو مذهل بشكل خاص في هذا المجال .

ففي المؤسسات الثانوية تدرس الفلسفة . ولكن الطالب ينهي تعليمه دون ان يعلم ان ثمة فلسفة مادية اوجدها ماركس وانجلز . وحتى عندما يتكلمون على المادية في الكتب الفلسفية (لانه لا بد من الكلام عليها) فانهم يفصلون دائماً بين المادية والماركسية . تقدم الماركسية بشكل عام كأنها مذهب سياسي فقط ، وعندما يتحدثون عن المادية التاريخية لا يذكرون في هذا المجال الفلسفة المادية ، واخيراً يتجاهلون كل شيء عن المادية الديالكتيكية .

ولا يقتصر هذا الوضع على المدارس والثانويات فحسب . بل يتعداه الى الجامعات . واخص حدث يمكن ان نتكلم عليه ، هو ان نرى « اختصاصيا » في الفلسفة في فرنسا يحمل ارفع الشهادات التي تمنحها الجامعات الفرنسية دون

ان يعلم ان للماركسية فلسفة هي المادية ، وان المادية التقليدية لها شكل حديث هو الماركسية ، او المادية الديالكتيكية .

نحن نريد ان نبرهن ان الماركسية تحتوي تصوراً عاماً ليس فقط للمجتمع وحده بل ايضا للكون نفسه . فلا فائدة اذن من التأسف والقول ان خطأ الماركسية الاكبر هو كونها بدون فلسفة . كما يزعم البعض ، ولا جدوى ايضا من البحث عن هذه الفلسفة التي تفتقر الماركسية اليها ، كما يحاول بعض منظري الحركة العمالية . لان للماركسية فلسفة هي المادية الديالكتيكية .

ولم يبق على كل حال الا ان نقول انه بالرغم من حملة الصمت هذه ، وبالرغم من هذا التزوير ، وهذه الاحتياطات التي تتخذها الطبقات الحاكمة فالماركسية وفلسفتها اخذت تصبح معروفة اكثر فاكثراً .

سبقوا انجلز وماركس ، وبما ان نقاطا كثيرة تجمع بين جميع الماديين ، لذلك كان علينا دراسة تاريخ المادية ، قبل مباشرة المادية الديالكتيكية . ومعرفة التصورات التي تناهض المادية .

٢ - طريقتان لشرح العالم

ذكرنا سابقا ان الفلسفة هي « دراسة المشكلات الاكثر عمومية » وان هدفها هو شرح العالم والطبيعة والانسان

ولو تصفحنا كتاب فلسفة بورجوازية ، لراعنا تنوع الفلسفات الموجودة فيه التي تدلّ عليها بكلمات مختلفة يقل فيها التعقيد او يكثر ، وتنتهي جميعها بلا حقة « اية Isme » ، كالفلسفة النقدية ، والتطورية ، والمقلانية الخ . . . وهذه الكثرة تخلق نوعا من الغموض لم تفعل البورجوازية شيئا من اجل توضيحه بل على العكس . لكن يمكن فرز كل هذه الستامات وتمييز تيارين مهمين ، وتصورين متعارضين بوضوح كلي :

أ - التصور العلمي .

ب - التصور اللاعلمي للعالم .

٣ - المادة والروح :

عندما بدأ الفلاسفة تفسير العالم والطبيعة والانسان وكل ما يحيط بنا كان عليهم ان يقيموا تمايزات . نحن ايضا نستطيع ان نتحقق من هذا التمايز في الاشياء ، فمنها المادي الذي نستطيع ان نراه وان نلمسه . ومنها وقائع لا نستطيع ان نراها او نلمسها ، او نقيسها ، كافكارنا مثلا .

نصنف اذن الاشياء هكذا : من جهة ، الاشياء المادية ، من جهة اخرى ، الاشياء غير المادية ، والتي هي من عالم الروح والفكر والافكار . وهكذا وجد الفلاسفة انفسهم ازاء المادة والروح .

٤ - ما المادة وما الروح ؟

رأينا بصورة عامة كيف يتم تصنيف الاشياء بين مادية وروحية .

الفصل الأول

المشكلة الاساسية في الفلسفة

- ١ - كيف يجب ان نبدأ دراسة الفلسفة ؟
- ٢ - طريقتان لشرح العالم .
- ٣ - المادة والروح .
- ٤ - ما الروح ؟ وما المادة ؟
- ٥ - المسألة او المشكلة الاساسية في الفلسفة .
- ٦ - مثالية ام مادية .

١ - كيف يجب ان نبدأ دراسة الفلسفة ؟

ذكرنا في مقدمتنا مرارا ، ان المادية الديالكتيكية هي اساس الفلسفة الماركسية .

ان هدفنا هو دراسة هذه الفلسفة ، لكن للوصول الى هذا الهدف يجب ان نتقدم على مراحل . فعندما نتكلم على المادية الديالكتيكية نجد امامنا كلمتين : مادية وديالكتيكية . وهذا يعني ان المادية هي ديالكتيكية . نحن نعلم ان المادية قد وجدت قبل ماركس وانجلز ، ولكنها ، وبفضل اكتشافات القرن التاسع عشر ، كانا هما اللذان حولاهما هذه المادية ، وخلقوا المادية « الديالكتيكية » .

وسندرس لاحقا معنى كلمة « ديالكتيك » التي تعني الشكل الحديث للمادية .

وبما ان كثيرا من الفلاسفة الماديين (امثال ديدرو في القرن الثامن عشر) قد

ولكن علينا ان نوضح ان هذا التمايز يتخذ اشكالا مختلفة ويعبر عنه بكلمات مختلفة ايضا .

وهكذا بدلا من التكلم على الروح يمكن التكلم أيضاً على الفكر، والافكار، والوعي، والنفس، كما انه عندما نتكلم على الطبيعة والعالم والارض والوجود، فان الكلام يدور على المادة .

وهكذا ايضا عندما تكلم إنجلس في كتابه « لودفيك فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » عن الوجود والفكر كان يعني بالوجود المادة وبالفكر الروح .

ولتعريف الفكر او الروح والوجود او المادة نقول : « الفكر هو الفكرة التي نكوها عن الاشياء ، بعض هذه الافكار تأتينا من الاحساسات عادة وتتعلق بمواضيع مادية ، وبعضها الاخر كفكرة الله مثلا ، والفلسفة واللامتناهي والفكر نفسه لا تتعلق بمواضيع مادية . والاساسي هنا انه لدينا آراء وافكار ومشاعر لاننا نرى ونحس .

فالمادة او الوجود هو ما تعرضه وتظهره لنا احساساتنا وادراكاتنا . انه بصورة عامة كل ما يحيط بنا وهذا ما ندعوه « العالم الخارجي » ولناخذ مثالا على ذلك : ورقتي بيضاء . معرفتي انها بيضاء هي فكرة ، وحواسي هي التي اعطتني هذه الفكرة ، ولكن المادة هي الورقة بالذات .

لذلك عندما يتكلم الفلاسفة عن العلاقات بين الوجود والفكر ، او بين المادة والروح ، او بين الوعي والدماغ الخ . . فاما يتناولون السؤال نفسه يعني : ايها اهم المادة ام الروح ، الوجود ام الفكر ؟ ايها متقدم على الآخر ؟ هذا هو السؤال الاساسي في الفلسفة .

٥ - المسألة او المشكلة الاساسية في الفلسفة

كل منا يتساءل عن مصيره بعد الموت ، من اين اتى العالم ؟ كيف تكونت الارض ؟ ومن الصعب علينا القبول بالوجود الازلي . فلدينا ميل للتفكير بانه في لحظة من اللحظات لم يكن هناك شيء ، ولذلك كان من السهل تصديق تعاليم الدين : « كانت الروح ترف فوق الظلمات . . عندما جاءت المادة »

ونتساءل ايضا : اين هي افكارنا ؟ فتطرح نفسها مشكلة العلاقات القائمة بين الروح والمادة ، بين الدماغ والفكر . طبعاً هناك عدة طرق لطرح السؤال . مثلاً ما هي العلاقة بين الارادة والقدرة ؟ والارادة هنا هي الروح ، الفكر ، والقدرة هي ما هو ممكن ، هي الوجود ، المادة . ونصادف ايضا مسألة العلاقة بين « الوعي الاجتماعي » و « الوجود الاجتماعي » .

فالسؤال الاساسي في الفلسفة يطرح اذن باشكال مختلفة ، ونرى كم هو مهم ان نعرف دائماً كيف يطرح هذا السؤال ، عن علاقات المادة والروح . ان الاجابة عنه تنحصر في جوابين اثنين :

١ - جواب علمي .

٢ - جواب غير علمي .

٦ - مثالية أم مادية؟

وهكذا عمد الفلاسفة الى تحديد موقفهم من هذا السؤال المهم .

ان جهل الاولين وعدم معرفتهم بالعالم وبانفسهم ، واعتمادهم على الوسائل التقنية البسيطة للتحكم بهذا العالم ، دفعهم الى القاء مسؤولية كل ما يدهشهم على كائنات فوق طبيعية . فمن خلال غيبتهم التي تثيرها الاحلام أحياناً فيتعايشون وابناء جنسهم توصلوا الى التصور التالي : لكل منا وجود مزدوج ، وفكرة « المزدوج » هذه بلبلتهم وحلتهم على الاعتقاد بان افكارهم واحاسيسهم حصلت . . ليس بفعل « جسدهم ولكنها بفعل مصدر خاص - النفس التي تقطن هذا الجسد وتفارقه عند الموت » بعد ذلك نشأت فكرة خلود النفس ، وحياة ممكنة للروح خارج المادة .

كذلك فان ضعفهم وقلقهم امام قوى الطبيعة ، امام جميع هذه الظواهر التي لم يفهموها ، والتي لم تساعدهم حالة التكنيك على قهرها ايضا : (كالتوالد والعواصف ، والفيضانات الخ . .) كل ذلك حملهم على افتراض وجود كائنات قادرة على كل شيء تقبع خلف هذه القوى ، « ارواح » او « الهة »

١ - إنجلس: لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . دار التقدم ص ١٩

خيرة او شريرة ، انما تتصرف على هواها في جميع الاحوال .

كذلك آمنوا بألهة ، او كائنات اكثر قدرة من الانسان ، ولكنهم تصوروها على صورة البشر او الحيوانات ، وكأجسام مادية . ولم تعتبر النفوس او الالهة (ثم الاله الواحد الذي حل مكان الالهة) كأرواح خالصة الا فيما بعد .

وهكذا نصل للفكرة القائلة : ان هناك في الواقع ارواحا تعيش حياة خاصة بها ، مستقلة عن الاجسام تماما ، ولا حاجة بها لهذه الاجسام حتى توجد .

بعد ذلك طرح هذا السؤال بشكل اكثر دقة وبما يتناسب مع الدين ، على هذا الشكل : هل الله هو الذي خلق العالم ام ان العالم وجد منذ الازل ؟ ووفقا للإجابة عن هذا السؤال ، انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين ^٢ .

فالذين تبناوا التفسير غير العلمي قبلوا بفكرة خلق الله للعالم ، اي انهم اكدوا ان الروح هي التي خلقت المادة ، وهؤلاء كونوا معسكر المثالية .

اما اولئك الذين بحثوا عن تفسير علمي للعالم ، والذين يعتقدون ان الطبيعة او المادة هي العنصر الاساسي . هؤلاء كانوا ينتمون الى مختلف مدارس المادية .

ولم تكن المثالية او المادية تعني في الاصل غير هذا .

فالمثالية والمادية هما اجابتان متعارضتان ومتناقضتان بالنسبة للمشكلة الاساسية في الفلسفة .

المثالية هي التصور اللاعلمي . والمادية هي التصور العلمي للعالم .

وسنرى ادلة هذا الحكم فيما بعد . غير اننا نستطيع منذ الان ان نقول انه على الرغم من ملاحظتنا بالتجربة ، وجود اجسام مجردة من الفكر كالاحجار والمعادن والارض فاننا لا نستطيع العثور على ارواح بدون اجسام .

ولنتهي هذا الفصل بنتيجة واضحة ، نرى انه للإجابة عن السؤال التالي : كيف يحدث ان الانسان يفكر ؟ لا يمكن ان يكون هناك سوى اجابتين مختلفتين ومتعارضتين كلياً :

للقراءة :

فريدريك انجلز : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية :
دار التقدم : الفصل الثاني « مثالية ومادية » ص ١٩ وما بعدها .

٢ - انجلز : لودفيغ فيورباخ - ص ٢١ .

إنها المذهب الذي يجيب على السؤال الاساسي للفلسفة قائلا : « ان الفكر هو العنصر الرئيسي الاول والاكثر اهمية » والمثالية اذ تؤكد على الاهمية الاولى للفكر ، تؤكد انه هو الذي يحدث الوجود او بعبارة اخرى ان : « الروح هي التي تحدث المادة » .

هذا هو الشكل الاول للمثالية ؛ ولقد وجدت هذه المثالية اقصى غوها في الاديان مؤكدة ان الله « الذي هو روح خالصة » هو خالق المادة .

فالدين الذي ادعى ، ومايزال يدعي ، انه خارج المناقشات الفلسفية ، هو في الحقيقة ، على عكس ما يدعي ، التمثل المباشر والمنطقي للفلسفة المثالية .

والحال ان العلم ، بتدخله عبر القرون ، سرعان ما اصبح ضروريا لتفسير المادة وتفسير العالم والاشياء بشيء آخر غير الله وحده . لان العلم بدأ منذ القرن السادس عشر بتفسير ظاهرات الطبيعة بدون ان ياخذ الله في الحسبان ، دونما الحاجة الى فرضية الخلق .

ولمناهضة هذه التفسيرات العلمية ، المادية والاحادية ، مناهضة اجدى ، كان من الواجب ان تدفع المثالية بعيدا ، وان يُنفى حتى وجود المادة نفسه . وهذا ما كرس له نفسه في بداية القرن الثامن عشر، اسقف انكليزي، هو باركلي، حتى امكن تسميته ابا المثالية.

٢ - لماذا يجب علينا دراسة مثالية باركلي ؟

ان هدف سستامه الفلسفي سيكون اذن تحطيم المادية ، ومحاولة البرهنة ان الجوهر المادي غير موجود . فلقد كتب في مقدمة كتابه : « محاورات هيلاس وفيلونويس » : « اذا كانت هذه المبادئ مقبولة وينظر اليها على انها صحيحة ، فينتج عنها ان الاحاد والشك قد دمرا كليا في آن واحد ، وان المسائل الغامضة قد وضحت ، والصعاب غير القابلة للحل تقريبا قد حلت ، وان الناس المعجبين بالمفارقات قد عادوا الى الحس المشترك » .

الفصل الثاني

المثالية

- ١ - المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية .
- ٢ - لماذا يجب ان ندرس مثالية باركلي ؟
- ٣ - مثالية باركلي .
- ٤ - نتائج « التعليل المثالي » .
- ٥ - الحجج المثالية

أ - الروح تخلق المادة

ب - العلم لا يوجد خارج فكرنا

ج - ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء .

١ - المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية :

لقد نوهنا بالغموض الذي اوجدته اللغة المتداولة بالنسبة للمادية .

هذا الغموض نفسه نجده بصدد المثالية .

علينا بالفعل ان لا نخلط بين المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية .

فالمثالية الاخلاقية تقوم على ان ينذر الانسان نفسه من اجل هدف ما ، من اجل مثال ما . وتاريخ الحركة العمالية يعلمنا ان عددا لا يحصى من الثوريين ، من الماركسيين ، قد نذروا انفسهم حتى التضحية بحياتهم من اجل مثل اعلى اخلاقي ، مع كونهم خصوما لتلك المثالية الاخرى المسماة المثالية الفلسفية .

فالمثالية الفلسفية هي مذهب اساسه تفسير العالم بواسطة الروح .

وهكذا نرى ان الصحيح ، بالنسبة لباركلي ، هو ان المادة لا وجود لها وأنه من المفارقة ادعاء العكس .

وسنرى كيف يتصرف باركلي ليعين لنا ذلك . ولكنني اعتقد انه ليس من غير المفيد ان نلح على اولئك الذين يريدون دراسة الفلسفة ، بان يحملوا نظرية باركلي على محمل الجد .

انا اعرف ان اطروحات باركلي تضحك البعض ، ولكن يجب ان لا ننسى اننا نعيش في القرن العشرين ، واننا نستفيد من كل دراسات الماضي ، وسنرى ايضا عندما سندرس المادية وتاريخها ، ان الفلاسفة الماديين القدماء يثيرون الضحك في بعض الاحيان .

ويجب ان نعلم على كل حال ان ديدرو ، الذي كان اكبر المفكرين الماديين قبل ماركس وانجلز ، كان يعلق بعض الاهمية على مذهب باركلي اذ وصفه بانه : «مذهب ليس ، لعار الفكر البشري وعار الفلسفة ، أصعب من محاربه على الرغم من انه أكثر المذاهب عبثاً»^(١)

وقد كرس لينين نفسه عدة صفحات لفلسفة باركلي . وقال :

« لم يقدم الفلاسفة المثاليون المحدثون ضد الماديين اية حجة . . لا يمكن ان نجدها عند الاسقف باركلي »^٢ .

ولنر اخيرا ما يقيم به احد كتب تاريخ الفلسفة المعتمدة في المعاهد لا - مادية باركلي :

« مما لا شك فيه ان نظرية باركلي هي نظرية غير متكاملة ، لكنها تدعو

٢ - Diderot : « Lettre sur les aveugles » textes choisis T.I . Editions Sociales « classiques du peuple » . p.87

كما وانه ورد عند لينين في : المادية والمذهب النقدي التجريبي - ترجمة فؤاد ايوب . دار دمشق ص ٢٣ .

٣ - لينين : المرجع نفسه ص ٢٦ .

للاعجاب ويجب ان تقضي الى الابد ، على الاعتقاد بوجود جوهر مادي في الازهان الفلسفية »^٤ .

ثمأ يعني اهمية هذا التعليل الفلسفي بالنسبة لجميع الناس مع اختلاف الاسباب ، أظهرته لنا هذه الاستشهادات .

٣ - مثالية باركلي :

ان الهدف من هذا السيستم يقوم اذن على البرهان بان المادة لا وجود لها . يقول باركلي :

« ان المادة ليست ما نظنه عندما نظن انها موجودة خارج ذهننا ، نحن نظن ان الاشياء موجودة لاننا نراها ، نلمسها ، ولانها تولد فينا هذه الاحساسات نعتقد بوجودها . ولكن احساساتنا ليست سوى افكار نحملها في ذهننا ، فالاشياء التي ندركها بحواسنا ليست اذن شيئا آخر غير افكار ، والافكار لا يمكنها ان توجد خارج ذهننا . خارج ذهننا » .

فالاشياء موجودة بالنسبة لباركلي ، وهو لا ينكر طبيعتها ووجودها ولكنه يؤكد انها لا توجد الا بشكل احساسات تعرفنا بها ، ثم يستنتج ان احساساتنا والمواضيع انما تكون شيئا واحدا .

الاشياء موجودة ، هذا مؤكد ، ولكنها موجودة فينا كما يقول باركلي ، في ذهننا وليس لها اي حقيقة واقعية خارج الذهن .

نتصور الاشياء بواسطة البصر ؛ ندركها بواسطة اللمس ؛ ونجبرنا الشم بالرائحة ؛ والذوق بالطعم ، والسمع بالصوت . هذه الاحساسات المختلفة تمنحنا افكاراً تجعلنا ، باتحادها بعضها ببعض ، نعطيها اسماً مشتركاً ونعتبرها مواضيع .

٤ - A. peryon : Précis d'histoire de la philosophie p. 320 — 321. Librairie Paul

Delaplace

« نلاحظ مثلاً لونا ، وطعماً ورائحة ، وشكلاً وصلابة معينة ، مجتمعة الى بعضها بعضاً فنعتبر أن هذه المجموعة شيء متميز نطلق عليه لفظة تفاحة وتؤلف مجموعات أخرى من الافكار ما نسميه الحجر، والشجرة، والكتاب، والاشياء الاخرى الملموسة^٥».

نحن اذن ضحية وهم فلسفي عندما نظن ان بوسعنا معرفة الاشياء والعالم كاشياء خارجية ، لان كل ذلك لا يوجد الا في ذهننا .

ويبرهن لنا باركلي في كتابه « محاولات هيلاس وفيلونويس » هذه الموضوعه بالشكل الاتي :

«ليس من الخلف الاعتقاد بان الشيء نفسه يمكن ان يكون في اللحظة نفسها مختلفاً؟، مثلاً: حاراً وبارداً في اللحظة نفسها؟ تصوروا اذن ان احدى اليدين حارة ، والاخرى باردة ، وان الاثنتين مغمومتان في وعاء مملوء بالماء المعتدل الحرارة في الوقت نفسه ، الا يظهر ان الماء ساخن بالنسبة لاحدى اليدين ، بارد بالنسبة للآخرى؟».

فاذا كان من الخلف الاعتقاد ان شيئاً يمكن ان يكون هو ذاته مختلفاً في اللحظة نفسها، فينبغي الاستنتاج ان هذا الشيء لا يوجد الا في ذهننا .

ماذا يفعل باركلي اذن في منهجه في التعليل والمناقشة ؟ انه يجرد الموضوعات والاشياء من جميع خصائصها .

« انتم تقولون ان الاشياء موجودة لان لها طعماً ولونا ورائحة ، لانها كبيرة او صغيرة ، خفيفة او ثقيلة ؟ سايبين لكم ان هذه الصفات لا توجد في الاشياء ، ولكن في ذهننا .

« لناخذ قطعة من القماش : تقولون انها حمراء ، هل هذا اكيد ؟ انتم

تظنون ان الاحمر هو في القماش نفسه . هل هذا مؤكد؟ انتم تعلمون ان هناك حيوانات لها عيون مختلفة عن عيوننا ، ولا ترى هذا القماش احمر ، كذلك الانسان المصاب باليرقان يراها صفراء ! اذن من اي لون هي ؟ تقولون هذا نسبي ! الاحمر اذن ليس في القماش ولكن في العين ، اي فينا .

« تقولون ان هذا القماش خفيف ؟ لندعه يقع على غلّة ، من المؤكد انها ستجده ثقيلًا . من هو على حق اذن ؟ اتظنون انه حار ؟ اذا كنتم محمومين ستجدونه بارداً . هل هو اذن بارد ام حار ؟

« بكلمة واحدة اذا كان من الممكن للاشياء ان تكون في اللحظة نفسها حمراء او ثقيلة او ساخنة للبعض ، وعلى عكس ذلك تماماً للآخرين ، هذا يعني اننا ضحية سراب ، وان الاشياء لا توجد الا في ذهننا» .

فنحن عندما نجرد المواضيع من خصائصها ، نتوصل الى القول ان هذه المواضيع لا توجد الا في فكرنا ، وهذا يعني ان المادة هي فكرة .

قبل باركلي ، قال الفلاسفة اليونان ، بان بعض الصفات كالطعم والصوت لم تكن في الاشياء نفسها ، بل فينا ، وهذا كان صحيحاً .

لكن الجدة في نظرية باركلي هي انه يمد هذه الملاحظة على صفات الاشياء جميعها .

فقد اقام الفلاسفة اليونان بين صفات الاشياء التمايز التالي :

من جهة اولى الصفات الاولية ، اي تلك التي تكون في الاشياء ، كالوزن والمقدار والمقاومة الخ . .

ومن جهة اخرى ، الصفات الثانوية ، اي التي في داخلنا كالرائحة والطعم والحرارة الخ .

لكن باركلي طبق على الصفات الاولية نفس الموضوعه المطبقة على الصفات الثانوية ، اي ان جميع الصفات ، وجميع الخصائص ، ليست في المواضيع بل فينا اذا نظرنا الى الشمس نراها مدورة ، مسطحة ، حمراء . والعلم ينبشاً باننا نخدع انفسنا ، وان الشمس ليست مسطحة ، وليست حمراء . نحن اذن نجرد

٥ - لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي - ص ١١

٦ - 21 - Lénine: Matérialisme et empiriocriticisme p.

بمساعدة العلم ، بعض الخصائص المغلوطة التي نعطيها للشمس ، ولكن بدون ان نستنتج من ذلك انها ليست موجودة! .

لكن باركلي توصل الى مثل هذه النتيجة .

من الاكيد ان باركلي لم يكن مخطئا عندما اظهر ان تمييز الاقدمين لا يصمد امام التحليل العلمي ، ولكنه ارتكب خطأ برهانيا ، ارتكب سفسطة ، عندما استخلص من هذه الملاحظات نتائج غير متضمنة فيها . فهو يظهر بالفعل ان صفات الاشياء ليست كما تظهرها لنا حواسنا ، اي ان حواسنا تخدعنا وتشوه الواقع المادي ، ويستنتج من هذا ، وبصورة مفاجئة ، ان الواقع المادي لا وجود له .

٤ - نتائج التعليقات المثالية

حيث ان الاطروحة هي « كل شيء غير موجود الا في ذهننا » علينا ان نستنتج ان العالم الخارجي لا وجود له .

فاذا دفعنا هذا التعليل حتى النهاية ، وصلنا الى القول : « انا وحدي موجود . بما انني لا اعرف الناس الاخرين الا بافكاري ، وان الناس الاخرين كالموضوعات المادية ، ليسوا بالنسبة لي الا مجموعة من الافكار » . هذا ما ندعوه في الفلسفة - بالمثالية الوجدانية (تعني انا وحدي فقط) .

يقول لنا لينين في كتابه الأنف الذكر ، ان باركلي يدافع عن نفسه غريزيا ضد اتهامه بانه يدعم نظرية كهذه . ويستنتج ايضا ان المثالية الوجدانية ، الشكل المتطرف من المثالية ، لم يكن يدعمها اي فيلسوف .

ولذلك وجب علينا ، ونحن نناقش المثاليين ، ان نشبت باظهار هذا الامر ، ان المحاكمات التي تنكر المادة انكارا فعليا ، ستصل لا محالة ، حتى تكون منطقية ومتسقة ، الى هذا التطرف العبثي الذي هو المثالية الوجدانية .

٥ - الحجج المثالية :

لقد اوجزنا باكثر ما يمكن من البساطة ، نظرية باركلي ، لانه ، وحده ،

وباكثر ما يمكن من الصراحة عرض المثالية الفلسفية .

ولكن من المؤكد انه ، لفهم هذه المحاكمات ، التي هي جديدة بالنسبة لنا ، اصبح ضروريا لنا الان ان نأخذها بجدية كبيرة ، وان نبذل جهدا عقليا لذلك لماذا ؟

لأننا سنرى فيما بعد انه اذا كانت المثالية تقدم نفسها بشكل اكثر سرية تحت ستار مصطلحات وتعابير جديدة ، فكل الفلسفات المثالية لا تفعل شيئا سوى ان تردد حجج « باركلي العجوز » (لينين) .

ولأننا سنرى ايضا الى اي حد استطاعت المثالية ، التي هيمنت وتهيمن على التاريخ الفلسفي الرسمي حاملة معها منهجا في التفكير يطبعنا بطابعه ، وإلى اي حد استطاعت ان تتسلل اليها بالرغم من تربية علمانية تماما .

ان اساس الحجج ، في كل الفلسفات المثالية ، موجود في محاكمات الاسقف باركلي ، ولاختصار هذا الفصل سنحاول استخلاص اهم الحجج وما تحاول ان تبينه لنا .

١ - الروح تخلق المادة .

نحن نعلم ان هذا ، هو الجواب المثالي عن المسألة الاساسية في الفلسفة ، وهذا هو الشكل الاول للمثالية التي تنعكس في مختلف الاديان حيث يؤكد ان الروح خلقت العالم .

هذا التأكيد يمكن ان يكون له معنيان :

- اما ان يكون الله قد خلق العالم ، وهذا الاخير يوجد فعلا خارجا عنا . وهذه هي المثالية العادية اللاهوتية^١ .

- واما ان يكون الله قد خلق سراب العالم ، مانحا لنا افكارا لا تنطبق على اية حقيقة مادية . وهذه هي « المثالية » اللامادية ، لباركلي الذي يريد ان يبرهن ان الروح هي الواقع الوحيد ، وان المادة هي « مستحضر تصنعه روحنا » .

١ - اللاهوت : هو « العلم » الذي يبحث في الله وفي الامور الالهية .

لذلك يؤكد المثاليون :

٢ - ان العالم لا يوجد خارج فكرنا :

وهذا ما يريد باركلي ان يبينه ، بتأكيده اننا نرتكب خطأ عندما نلحق بالاشياء صفات ، وخصائص خاصة بها ، بينما هذه لا توجد الا في ذهننا . فالمقاعد والطاولات ، بالنسبة للمثاليين ، موجودة حقا ، ولكن في فكرنا فقط وليس خارجا عنا ، لان :

٣ - افكارنا هي التي تخلق الاشياء

وبكلمة اخرى : ان الاشياء هي انعكاس لفكرنا ، اذ بما ان الروح هي التي تخلق سراب المادة بالفعل ، وبما ان الروح هي التي تمنح فكرنا فكرة المادة ، وبما ان الاحساسات التي تتأبنا امام الاشياء لا تأتي من الاشياء نفسها بل من فكرنا فقط ، فان مصدر واقعية العالم والاشياء اذن هو فكرنا ، ونتيجة لذلك ، فكل ما يحيط بنا لا يوجد خارج ذهننا ، ولا يمكن ان يكون الا انعكاسا لفكرنا . ولكن بما ان روحنا ، بالنسبة لباركلي عاجزة بمفردها عن خلق هذه الافكار ، وبما انها ، على كل حال ، لا تستطيع ان تفعل بها ما تريد (كما يحصل لو كانت خلقتها من ذاتها) فيجب القبول بان روحا اخرى اكثر قدرة ، هي الخالق لهذه الافكار . « الله » اذن هو الذي خلق روحنا ، وفرض علينا جميع افكار العالم التي نصادفها فيه .

هذه هي الاطروحات الرئيسية التي تركز عليها المذاهب المثالية ، وهذه هي الاجوبة التي تقدمها للسؤال الاساسي في الفلسفة .

وقد حان الوقت الآن لنرى ما هو جواب الفلسفة المادية عن هذا السؤال وعن المشاكل التي تطرحها هذه الموضوعات .

للقراءة

١ - Berkeley: Dialogues d'hylas et de philonous

٢ - لينين : المادية والمذهب النفدي التجريبي من ص ١١ حتى ص ٢٦

الفصل الثالث

المادية

١ - لماذا يجب علينا دراسة المادية ؟

٢ - من اين تأتي المادية ؟

٣ - كيف تطورت المادية ولماذا ؟

٤ - ما هي مبادئ المادية وحججها ؟

أ - المادة هي التي تنتج الذهن

ب - المادة موجودة خارج كل ذهن .

ج - العلم يتيح لنا معرفة الاشياء بواسطة التجربة .

١ - لماذا يجب علينا دراسة المادية ؟

رأينا انه بالنسبة الى المسألة التالية : « ما هي العلاقة بين الوجود والفكر . لا يمكن ان يوجد الا جوابان اثنان متعارضان ومتناقضان .

وقد درسنا في الفصل السابق الجواب المثالي ، والحجج المقدمة للدفاع عن الفلسفة المثالية .

وعلى الان تمحيص الاجابة الثانية عن هذه المسألة الاساسية (لنكرر انها المسألة الموجودة في اساس كل فلسفة) والنظر في الحجج التي تأتي بها المادية للدفاع . فضلا عن كون المادية بالنسبة لنا هي فلسفة مهمة جدا بما انها فلسفة الماركسية .

انه من الضروري اذن ، ونتيجة لذلك ، معرفة المادية معرفة جيدة . وضروري بصورة خاصة لان تصورات الفلسفة المادية غير معروفة على الوجه الصحيح ،

٣ - كيف تطورت المادية ولماذا ؟

ان تاريخ الفلسفة المادية يظهر لنا، شيئا حيا ودائما الحركة فيها، على عكس ما يدعيه مناهضوها والذين يزعمون ان هذا المذهب لم يتطور منذ عشرين قرنا .

لقد تقدمت المعارف الانسانية العلمية عبر القرون . ففي بداية تاريخ الفكر ، في عصور الاغريق القديمة ، كانت المعارف شبه معدومة . وكان العلماء الاولون فلاسفة في الوقت نفسه ، لان الفلسفة كونت في هذه الحقبة ، كلا متكاملا ، مع العلوم الناشئة ، لان الواحدة كانت امتدادا للآخرى .

بعد ذلك ، واذا ادخلت العلوم في تفسيرها الظواهرات العالم ، تدقيقات ازعجت الفلسفة المثالية بل وناقضتها ، تولد نزاع بين الفلسفة والعلوم . ولأن العلوم كانت متناقضة مع الفلسفة الرسمية في هذه الحقبة ، اصبح من الضروري ان تفصل عنها .

اضف الى ذلك ؟

« ليس لدي العلوم ما هو اكثر الحاحا من التخلص من حشو الكلام الفلسفي ومن ان تترك للفلاسفة اوسع الافتراضات لتتهم هي بالمشكلات المحددة ، تلك المشكلات التي بدأ حلها ينضج . وعندها يحصل التمايز بين العلوم . . والفلسفة^(١) .

لكن الفلسفة التي ولدت مع العلوم ، وارتبطت بها ، وخضعت لها ، تقدمت وتطورت معها لتتوصل مع المادية الحديثة ، مادية ماركس وانجلز ، الى ان تجمع من جديد العلم والفلسفة في المادية الديالكتيكية .

وسندرس في وقت لاحق هذا التاريخ وهذا التطور المرتبطين بتقدم الحضارة . ولكننا نستنتج منذ الآن ، ومن المهم جدا ان نحفظ ذلك ، ان المادية والعلوم مرتبطتان احدهما بالآخرى ، وان المادية تخضع بصورة مطلقة للعلم .

وان هذه التطورات قد زورت وضروري كذلك لاننا في تربيتنا ، وفي تعليمنا الذي تلقيناه - اكان ذلك في الابتدائي او في ما علاه - وعادات عيشنا وتفكيرنا نحن جميعا مطبوعون ، وبدون ان نعي ذلك ، بالتصورات المثالية .

(وسنرى على كل حال في فصول اخرى عدة امثلة على ما نذهب اليه ولماذا الامر كذلك) .

هناك اذن ضرورة مطلقة لدارسي الفلسفة الماركسية ان يعرفوا اساسها : أي المادية .

٢ - من اين تأتي المادية ؟

لقد عرفنا الفلسفة بشكل عام بانها الجهد المبذول لتفسير العالم والكون . ولكننا نعلم ان هذه التفسيرات تتغير تبعا لحالة المعارف الانسانية . وان موقفين اثنين تبناها الفلاسفة عبر تاريخ الانسانية لتفسير العالم :

الاول لا علمي : يستعين بروح او بعدة ارواح عليا لقوى فوق طبيعية .

والآخر علمي يرتكز على الوقائع والتجارب .

ولقد دافع الفلاسفة المثاليون عن احد هذين التصورين . وعن الآخر دافع الماديون .

لذلك قلنا ، منذ بداية هذا الكتاب ، ان الفكرة الاولى الواجب تكوينها عن المادية هي ان هذه الفلسفة تمثل «التفسير العلمي للكون» .

واذا كانت المثالية قد ولدت من جهل الانسان - وسنرى في تاريخ المجتمعات كيف ان قوى ثقافية وسياسية كانت تعتق التصورات المثالية قد صانت الجهل وساندته - فإن المادية نشأت من صراع العلوم ضد الجهل والظلامية .

من اجل ذلك حوربت هذه الفلسفة ، ومن اجل ذلك لم تعرف كثيرا في شكلها الحديث (المادية الديالكتيكية) ان لم نقل انها لم تزال مجهولة وغير معروفة في العالم الجامعي الرسمي .

بقي علينا ان نقوم اسس المادية ونعرفها ، تلك الاسس المشتركة بين جميع الفلسفات التي تنتسب الى المادية باشكال مختلفة .

٤ - ما هي مبادئ المادية وحججها ؟

للإجابة ، علينا ان نعود الى المسألة الاساسية في الفلسفة ، مسألة العلاقات بين الوجود والفكر ، ايها هو الرئيسي ؟

يؤكد الماديون اولاً أن ثمة صلة محددة بين الوجود والفكر ، بين المادة والذهن . بالنسبة لهم الوجود والمادة هما الحقيقة الاولى ، الشيء الاول . والذهن هو الحقيقة الثانية ، التالية ، الخاضعة للمادة .

اذن بالنسبة لهم ، ليس الذهن او الله هو خالق العالم والمادة ، ولكن العالم والمادة والطبعة ، هي التي تخلق الذهن .

« الذهن ليس سوى اعلى نتاج للمادة »^(١).

لذلك فانتا اذا اعدنا السؤال المطروح في الفصل الثاني : « كيف يحدث ان الانسان يفكر ؟ » اجابنا الماديون بان الانسان يفكر لانه يملك دماغاً ، وان الفكر هو نتاج الدماغ ، فلا فكر عندهم بدون مادة ، بدون جسد .

« ان وعينا وفكرنا ، مهما يبدوا مفارقين ، فانهما ليسا سوى نتاج جهاز مادي جسمى هو الدماغ »^(٢).

وبالتالي فالوجود والمادة هي اشياء واقعية بالنسبة للماديين ، اشياء موجودة خارج فكرنا ، وليست بحاجة للفكر او للذهن حتى توجد . كذلك الذهن لا يمكن ان يوجد بدون مادة ، فليس هناك نفس خالدة ومنفصلة عن الجسد .

فالاشياء التي تحيط بنا توجد مستقلة عنا على عكس ما يدعي المثاليون وهي التي تهينا افكارنا ، وافكارنا ليست سوى انعكاس الاشياء في دماغنا .

٢ - فريدريك انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . دار التقدم ص ٢٥

٣ - المرجع نفسه ص ٢٥

لذلك امام الوجه الاخر من السؤال عن العلاقات بين الوجود والفكر :

- ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا ، والعالم نفسه ؟ وهل يستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي ؟ هل يمكننا في تصوراتنا ان نكون انعكاساً صادقاً للواقع ؟

وتسمى هذه المسألة ، في اللغة الفلسفية ، مسألة مطابقة الفكر والكائن^(٣) .

- يؤكد الماديون ، نعم نستطيع معرفة العالم ، والافكار التي نكونها عن هذا العالم تزداد صحة ، لاننا نستطيع دراستها بواسطة العلوم ، وهذه العلوم تبرهن لنا دائماً بالتجربة ان الاشياء التي تحيط بنا تتمتع فعلاً بواقعية خاصة بها ، مستقلة عنا ، ويستطيع الناس اعادة انتاج هذه الاشياء جزئياً ، وخلقها اصطناعياً .

ونوجز فنقول إن الماديين يؤكدون امام المشكلة الاساسية للفلسفة :

١ - ان المادة هي التي تنتج الذهن ، واننا ، علمياً ، لم نصادف قط ذهنًا بدون مادة .

٢ - ان المادة موجودة خارج كل ذهن وليست بحاجة للذهن حتى توجد لانها تملك وجوداً خاصاً ، وانه بالتالي ، على عكس ما يدعي المثاليون ، ليست افكارنا هي التي تخلق الاشياء ، بل ان الاشياء هي التي تعطينا افكارنا .

٣ - ان باستطاعتنا معرفة العالم وإن افكارنا التي نكونها عن المادة والعالم تزداد صحة ، بما اننا نستطيع بواسطة العلوم تحديد ما نعرفه سابقاً واكتشاف ما نجهل .

ملاحظة من الناشرين

لفهم هذا الفصل قارن بالصفحات المهمة ٧٧ - ٧٩ ؛ و ١٩٩ - ٢١٢ (الفصل الأخير)

فعندما يقول انجلز ان الفكر هو نتاج الدماغ يجب ان لا نتصور ان الدماغ يفرز

٤ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٢١

الفكر كما يفرز الكبد الصفراء ، بالعكس فانجلز حارب هذه النظرية (خاصة في كتابه لودفينغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، انظر كذلك لينين في المادية والمذهب النقدي التجريبي . الفصل الاول والثاني) .

فالوعي ليس افرازا لعضو من الاعضاء ، انما هو وظيفة الدماغ فليس هو شيئا ، كالصفراء او الهرمون ، انه نشاط . ان النشاط الانساني هو نشاط واعي في بعض الظروف العضوية المعقدة التي تسمح بتدخل القشرة الدماغية . وهذه الظروف هي نفسها غير منفصلة عن الظروف الاجتماعية ، كما يظهر بوليتزر ذلك فيما بعد .

للتوسع في هذه النقاط، تجدر العودة الى :

Lucien Sève : Introduction au Léninisme p.p. 98 — 108 in Essais de la nouvelle critique. Editions Sociales 1960

الفصل الرابع

من هو على حق ، المثالي ام المادي ؟

- ١ - كيف يجب ان نطرح المشكلة .
- ٢ - هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟
- ٣ - هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟
- ٤ - هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟
- ٥ - الماديون هم على حق ، والعلم يثبت تأكيداتهم .

١ - كيف يجب ان نطرح المشكلة :

الان ، وبعد ان عرفنا اطروحات المثاليين والماديين ، سنحاول معرفة من هو على حق .

لنتذكر انه يجب علينا اولا ملاحظة ان هذه الاطروحات هي متعارضة ومتناقضة من جهة ، ومن جهة اخرى اننا ماذ ان ندافع عن هذه النظرية او تلك فان هذه النظرية تقودنا الى نتائج مهمة جداً بما يترتب عليها .

ولكي ندرك من هو على حق ، يجب ان نرجع الى النقاط الثلاث التي اوجزنا بها كل حجاج .

المثاليون يوكدون :

- ١ - ان الروح تخلق المادة ؟
- ٢ - ان المادة لا توجد خارج فكرنا فهي اذن ليست سوى وهم بالنسبة لنا .
- ٣ - ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء .

بينما يؤكد الماديون عكس ذلك تماما .

ولتسهيل عملنا يجب اولا ان ندرس ما يقع تحت الحس المشترك ، وما يشير دهشتنا كثيرا .

١ - هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟

٢ - هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟

هاتان حجتان تدافع عنهما المثالية « اللامادية » لباركلي ، وتؤدي نتائجها ، كما في جميع اللاهوتيات الى السؤال الثالث :

٣ - هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟

ان هذه الاسئلة مهمة جدا لانها تتعلق بالمشكلة الاساسية في الفلسفة . وبالتالي سنرى من على حق عند مناقشتها ، لانها هامة جدا بالنسبة للماديين . بمعنى ان الاجوبة عن هذه الاسئلة مشتركة بين جميع الفلسفات المادية وبالتالي في المادية الديكالكنتيكية .

٢ - هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟

قبل دراسة هذا السؤال يجب علينا ان نحدد وضع لفظين فلسفيين نحن مدعوون لاستعمالهما ، ونجدهما غالبا في قراءتنا .

الواقع الذاتي (اي الواقع القائم فقط في فكرنا)

الواقع الموضوعي (وهو واقع قائم خارج فكرنا)

فالمثاليون يقولون ان العالم ليس واقعا موضوعيا بل هو واقع ذاتي .

ولاظهار ان العالم والاشياء لا توجد الا في فكرنا ، جزأ الاسقف باركلي الاشياء بحسب خصائصها (لون ، مقدار ، كثافة الخ) وبين لنا ان هذه الخصائص التي تتغير تبعا للاشخاص ليست في الاشياء نفسها ، ولكن في ذهن كل منا . ويستنتج ان المادة هي مجموعة خصائص غير موضوعية وانما ذاتية ، وهي بالتالي غير موجودة .

فاذا اخذنا مثل الشمس من جديد ، فان باركلي يسألنا ، هل نحن نعتقد بالواقع الموضوعي للاسطوانة الحمراء ، وبين لنا ، اعتماداً على منهجه في مناقشة

الخصائص ، ان الشمس ليست حمراء ، وليست اسطوانة ، اذن ليست الشمس واقعا موضوعيا لانها غير موجودة بذاتها وانما هي واقع ذاتي لانها لا توجد الا في فكرنا .

بينما يؤكد الماديون انه ، مهما يكن من امر ، فالشمس موجودة ، ليس لاننا نراها كاسطوانة مسطحة وحمراء ، لان ذلك هو الواقعية الساذجة ، واقعية الاطفال والناس والاوائل الذين لم يملكوا سوى حواسهم لمراقبة الواقع ، بل يؤكدون مستعينين بالعلم ان الشمس موجودة ، فالعلم يتيح لنا بالفعل تصحيح الاخطاء التي تدفعنا حواسنا لارتكابها .

ولكن يجب علينا ، في مثل الشمس هذا ، طرح السؤال بوضوح .

سنقول مع باركلي ان الشمس ليست اسطوانة ، وليست حمراء ، ولكننا لن نقبل باستنتاجاته نفى الشمس كواقع موضوعي .

نحن لا نناقش خصائص الاشياء ، بل وجودها .

نحن لا نناقش لنعرف هل حواسنا تخدعنا وتشوه الواقع المادي ، ولكن لنعرف ما اذا كان هذا الواقع موجودا خارج حواسنا .

يؤكد الماديون وجود هذا الواقع خارجا عنا ويقدمون حججا هي العلم نفسه . فماذا يفعل المثاليون ليبينوا لنا انهم على حق ؟ يناقشون الكلمات ، ينفقون خطبا طويلة ويكتبون صفحات عديدة .

ولنفترض لحظة انهم على حق . فاذا لم يوجد العالم الا في فكرنا ، فهذا يعني انه لم يوجد قبل وجود الناس ؟

نحن نعلم ان ذلك غير صحيح لان العلم بين لنا ان الانسان ظهر متاخرا جدا على الارض ، سيقول بعض المثاليين عندئذ انه قبل الانسان كانت هناك الحيوانات وان الفكر كان يقيم فيها ، ولكن نحن نعلم ان ارضا غير مسكونة وجدت قبل الحيوانات ، وان اية حياة عضوية لم تكن ممكنة عليها . بعضهم ايضا سيقول لنا انه حتى ولو وجد النظام الشمسي وحده والانسان لم يوجد قط ، فالفكرة والروح موجودتان في الله ، وهكذا نصل الى الشكل الاسمي للمثالية . وعلينا ان نختار بين الله والعلم ، فالمثالية لا يمكن ان تستقيم بدون

الله ، والله لا يمكن ان يوجد بدون المثالية .

لنرى اذن كيف تطرح مسألة المادية والمثالية : من هو على حق ؟ الله ام العلم .

الله : هو روح خالص خالق للمادة ، وذاك تأكيد بدون اثبات .

العلم بين لنا بالممارسة والتجربة ان العالم هو واقع موضوعي ويسمح لنا بالاجابة عن السؤال :

٣ - هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟

لنأخذ مثلاً على ذلك ، اوتوبيس يمر في اللحظة التي نجتاز فيها الشارع بصحبة مثالي يناقشنا لمعرفة هل الاشياء هي ذات واقع موضوعي او واقع ذاتي ، وهل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء .

من المؤكد انه اذا اردنا ان لا ندهس علينا ان نتبته جيداً ، اذن المثالي مضطر في الممارسة ان يعترف بوجود الاتوبيس . بالنسبة له ، عملياً لا فرق بين اوتوبيس موضوعي واوتوبيس ذاتي . وهذا امر بالغ الصحة حتى ان الممارسة تقدم البرهان على ان المثاليين هم ماديون في الحياة .

نستطيع في هذا المجال ايراد امثلة عديدة نرى فيها ان الفلاسفة المثاليين ، والذين يدعمون هذه الفلسفة لا يترددون عن ارتكاب بعض السفالات « الموضوعية » ليحصلوا على ما ليس بالنسبة لهم سوى حقيقة ذاتية .

ولهذا السبب بالاحرى لم نعد نصادف احداً يؤكد ، كما يفعل باركلي ، ان العالم غير موجود . فالحجج هي اكثر تنوعاً واكثر تمويهاً . (تجدر العودة ، كمثال على شكل الحجاج المثالية ، الى كتاب لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ، في الفصل المعنون « اكتشاف عناصر العالم »^(١) .

ان « معيار الممارسة » كما يقول لينين ، هو اذن الذي يتيح لنا ان نفهم المثاليين .

١ - الفصل الاول - فقرة ٢ - ص ٤١ وما بعدها .

غير ان هؤلاء لا يتوانون عن القول ان الممارسة والنظرية ليستا سواء وانها شيان مختلفان كلياً . هذا غير صحيح . لان صحة تصور معين او خطئه تبينه لنا الممارسة فقط بواسطة التجربة .

فمثل الاتوبيس بين ان العالم واقع موضوعي وانه ليس سراباً يخلقه ذهننا . يبقى علينا ان نرى الان - وحيث ان النظرية اللامادية لباركلي لا تستطيع ان تدافع عن نفسها بوجه العلوم ، ولا ان تصمد امام معيار الممارسة - ما اذا كانت الروح تخلق المادة كما تؤكد جميع استنتاجات الفلسفات المثالية والاديان واللاهوت .

٤ - هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟

ان الروح بالنسبة للمثاليين كما رأينا سابقاً تجد شكلها الاسمي في الله . هذا هو الجواب النهائي ، وهذه خلاصة نظريتهم ، ولذلك فمسألة الروح - المادة تطرح في آخر التحليل لمعرفة من هو على حق ، المثالي ام المادي ، على شكل السؤال : « الله ام العلم » .

يؤكد المثاليون ان الله وجد منذ الازل وانه ، حيث لم يخضع لاي تغيير ، هو دائماً نفسه . هو الروح المحض ، الذي لا وجود للزمان والمكان بالنسبة اليه ، هو خالق المادة .

ولا يقدم المثاليون هنا ايضاً ، اية حجة لدعم اثباتهم لله .

وللدفاع عن خالق المادة يستعين المثاليون بمجموعة من الالغاز التي لا يستطيع ذهن ان يقبلها .

فعندما نعود الى اصول العلم ونرى ان البدائيين ، بسبب من جهلهم وضمنه اوجدوا داخل اذهانهم فكرة الله ، نلاحظ ان مثالي القرن العشرين يتابعون كالناس الاولين تجاهل كل ما اتاح معرفته عمل مثابر وصبور . لان الله في نهاية المطاف لا يفسر بالنسبة للمثاليين ، ويبقى بالنسبة لهم ايماناً بدون اي دليل . فعندما يريد المثاليون ان « يشبوا » لنا ضرورة خلق العالم بقولهم ان المادة لم توجد منذ الازل ، وكان من الضروري ان تحدث ، يلجأون الى اله لم يكن له هو نفسه بداية . فيماذا يكون هذا التفسير اكثر وضوحاً ؟

على عكس ذلك يستخدم الماديون العلم لدعم نظريتهم ، هذا العلم الذي طوره الناس بمقدار ما جعلوا « حدود جهلهم » تراجع .

ولكن هل يتيح لنا العلم الظن بان الروح خلقت المادة ؟ كلا .

فكرة الخلق بواسطة روح خالصة هي فكرة غير مفهومة لاننا لا نعرف شيئا من هذا القبيل في التجربة . وحتى يصبح ذلك ممكنا كان يجب، كما يقول المثاليون ان تكون الروح وجدت وحدها قبل المادة . بينما يبين لنا العلم ان ذلك غير ممكن وانه لا ذهن بدون مادة ابدا . على عكس ذلك ، الذهن مرتبط دائما بالمادة . ونستنتج بصورة خاصة ان ذهن الانسان مرتبط بالدماع الذي هو مصدر افكارنا وفكرنا . فالعلم لا يسمح لنا بتصور ان الافكار توجد في الفراغ . . .

يجب اذن على الله - الروح ، حتى يمكنه ان يوجد ، ان يكون ذا دماغ . لذلك نستطيع القول انه ليس الله هو الذي خلق المادة وبالتالي الانسان ، لكن المادة بشكل الدماغ الانساني هي التي خلقت الروح - الله .

وسنرى فيما بعد هل العلم يمنحنا امكانية الاعتقاد بالله او بشيء ما لا اثر للزمن عليه ، ولا وجود للمكان والحركة والتغير بالنسبة اليه .

نستطيع الاستنتاج منذ الان ، انه في اجابتهم على المشكلة الاساسية في الفلسفة :

٥ - الماديون هم على حق والعلم يثبت تأكيداتهم :

الماديون على حق في التأكيد :

١ - ضد مثالية باركلي وضد الفلاسفة الذين يخبثون وراء لا ماديته :

من جهة ان العالم والاشياء توجد فعلا خارج فكرنا ، وليست بحاجة لفكرنا حتى توجد ، ومن جهة اخرى ، ليست افكارنا هي التي تخلق الاشياء ولكن ، على عكس ذلك ، الاشياء هي التي تعطينا افكارنا .

٢ - ضد جميع الفلاسفة المثاليين لان استنتاجاتهم تؤدي الى تأكيد خلق المادة بواسطة الروح ، اي تأكيد وجود الله ومساندة اللاهوتيين في نهاية الامر ، يؤكد

الماديون ويثبتون ، بالاستناد الى العلوم ، ان المادة هي التي تخلق الروح وانهم لا يحتاجون الى « فرضية الله » لتفسير خلق المادة .

ملاحظة :

علينا الانتباه الى الشكل الذي يطرح به المثاليون المسائل ، فهم يؤكدون ان الله قد خلق الانسان في حين اننا راينا ان الانسان هو الذي خلق الله . يؤكدون ايضا من جهة اخرى ان الروح خلقت المادة في الوقت الذي راينا ان العكس تماما هو الصحيح . وثمة طريقة في قلب وجهات النظر اقتضى ان يشار اليها .

للقراءة

- ١ - لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٥٢ هل كانت الطبيعة موجودة قبل الانسان ؟ . وهل يفكر الانسان بالدماع ، ص ٧٦ الى ٧٨ .
- ٢ - انجلز : لودفيغ فيورباخ : المثالية والمادية ص ٢١ .

« جديدة » الغرض منها جعلها مقبولة من الناس البسطاء على اعتبارها الفلسفة
« الاحداث »^(١) .

ورأينا انه بالنسبة للسؤال الاساسي في الفلسفة نستطيع ان نعطي جوابين اثنين
متعارضين كلياً ، ومتناقضين ، وغير قابلين للتوفيق . هذان الجوابان واضحان
ولا يسمحان باي غموض .

وبالفعل فحتى السنة ١٧١٠ تقريباً ، كانت المشكلة تطرح على الشكل
التالي : من جهة اولى ، اولئك الذين يؤكدون وجود المادة خارج فكرنا واولئك
هم الماديون ، ومن جهة اخرى اولئك الذين ينفون ، مع باركلي وجود المادة ،
ويدعون انها لا توجد الا فينا ، وفي ذهننا ، واولئك هم المثاليون .

ولكن العلوم تقدمت في هذه الحقبة ، وتدخل فلاسفة آخرون حاولوا ان
يعيدوا النظر في القسمة الى مثاليين وماديين ، بخلقهم تياراً فلسفياً يثير
الغموض بين النظريتين . ومنشأ هذا الغموض هو البحث عن فلسفة ثالثة .
٢ - حجاج هذه الفلسفة الثالثة :

اساس هذه الفلسفة التي صيغت بعد باركلي ، هو انه من غير المفيد البحث
لمعرفة الطبيعة الحقيقية للاشياء ، وانه لن نعرف ابداً سوى المظاهر .

ولذلك دعونا هذه الفلسفة باللاادرية (من اليونانية a اي نفي و Gnosticos
اي مؤهل للمعرفة : اذن غير مؤهل للمعرفة) .

بالنسبة للآدريين ، لا نستطيع ان نعرف هل العالم ، في اساسه ، هو روح
او طبيعة ، فمن الممكن معرفة مظهر الاشياء ، ولكننا لن نستطيع معرفة
واقعها .

ولنعد الى مثل الشمس : فقد رأينا انها ليست كما ظننا الاوائل ، اسطوانة ،
مسطحة وحمراء . هذه الاسطوانة لم تكن سوى سراب ، سوى مظهر ،
(المظهر هو الفكرة السطحية التي غلکها عن الاشياء ، وليس واقعها) .

١ - لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٩

الفصل الخامس

هل هناك فلسفة ثالثة ؟

اللاادرية

- ١ - لماذا فلسفة ثالثة ؟
- ٢ - حجاج هذه الفلسفة الثالثة .
- ٣ - مم تتأني هذه الفلسفة ؟
- ٤ - نتائجها .
- ٥ - كيف ندحض هذه الفلسفة « الثالثة » .
- ٦ - الخلاصة .

١ - لماذا فلسفة ثالثة ؟

قد يكون بدا لنا أنه قد أصبح من السهل ان نتعرف على انفسنا وسط هذه
المحاكمات الفلسفية لان النظريات جميعها تتوزع في تيارين اثنين فقط ، هما
المثالية والمادية ، ولاننا ، فضلاً عما تقدم ، نرى الحجج التي تناضل في سبيل
المادية تحوز الاقناع بشكل نهائي .

تبدى لنا اذن بعد التفحص اننا وجدنا الطريق الذي يؤدي الى فلسفة العقل :
المادية .

ولكن الاشياء ليست بهذه البساطة ، فكما اشرنا سابقاً ، لا يتمتع المثاليون
المحدثون بصراحة الاسقف باركلي : فهم يقدمون آراءهم :

« بمزيد من التصنع في صورة اكثر غموضاً من جراء استعمال مصطلحات

ولذلك وباعتبار ان المثاليين والماديين يتجادلون ليعرفوا هل الاشياء مادة ام روح ، وهل الاشياء موجودة ام غير موجودة خارج فكرنا ، واذا كان من الممكن معرفتها ، فان اللادريين يقولون : اننا نستطيع معرفة المظهر جيدا ، ولكننا لن نعرف الواقع ابدا .

ويقول اللادريون : ان حواسنا تتيح لنا رؤية الاشياء والاحساس بها ومعرفة الأوجه الخارجية اي المظاهر ، هذه المظاهر موجودة اذن بالنسبة لنا ، وتؤلف ما يدعى في اللغة الفلسفية بـ « الشيء » لنا ، لكننا لن نستطيع معرفة الشيء مستقلا عنا ، بواقعه الخاص به ، وهذا ما يسمى بـ « الشيء - في ذاته » ، فالماديون والمثاليون الذين يتناقشون في هذه الموضوعات ، يشبهون رجلين ، احدهما يملك نظارات زرقاء والاخر وردية ، ينتزهان على الثلج ويتجادلان لمعرفة لونه الحقيقي . ولنفترض انهما لا يستطيعان خلع نظاراتهما . فهل يستطيعان معرفة لون الثلج الحقيقي يوما ما ؟ . . طبعاً لا . . فالمثاليون والماديون الذين يتجادلون لمعرفة : ايها على حق ، يضعمون نظارات زرقاء ووردية . لن يعرفوا الحقيقة اذن ابدا بل سيعرفون الثلج « بالنسبة لهم » كل واحد يراه على طريقته ، ولكنهم لن يعرفوا الثلج في ذاته ابدا . تلك هي محاكمة اللادريين .

٣ - مم تتأتى هذه الفلسفة ؟

ان مؤسسي هذه الفلسفة هم : هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) الذي كان اسكتلانديا وكنت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الذي كان المانيا . لقد حاول الاثنان التوفيق بين المثالية والمادية .

وهاكم مقطعا من محاكمات هيوم ، ذكره لينين في كتابه المادية والمذهب النقدي التجريبي .

« يمكن ان تعتبر امرا مفروغا منه كون الناس ميالين ، بغريزتهم الطبيعية . . . الى ان يشقوا بحواسهم ، وكوننا نفترض دائما دون ادنى محاكمة ، او حتى قبل ان نلجأ الى المحاكمة ، وجود كون خارجي لا يتوقف على ادراكنا ، وهو سيظل موجودا حتى لو اختلفنا او زلنا من الوجود نحن وجميع الكائنات

الاخرى التي تملك الحساسية .

لكن هذا الرأي الاولي والكلي ، سرعان ما تدمره الفلسفة الاوهن التي تعلمنا ان الذهن لا يمكن ابدا ان يطال سوى النسخة او الادراك ، وان الاحساسات سبب سوى قنوات تتبعها هذه النسخ ، دون ان يكون في مقدورها ان تنشئ اي علاقة مباشرة بين الذهن والموضوع . ان الطاولة التي تراها تبدو انها تصغر عندما تبعد عنها ، ولكن الطاولة الفعلية ، التي توجد بصورة مستقلة عنا ، لا تتعرض لاي تغيير ، فعقلنا لم يدرك اذن سوى نسخة الطاولة ، تلك هي اوامر العقل البينة^(١) .

نرى ان هيوم يقبل اولاً كل ما يقع تحت الحس المشترك ؛ « وجود كون خارجي » غير مرتبط بنا . ولكنه يرفض في الحال قبول هذا الوجود كواقع موضوعي . فهذا الوجود بالنسبة له ، ليس شيئا آخر غير نسخة ، واحساساتنا التي تستنتج هذا الوجود ، هذه النسخة ، غير جديرة باقامة صلة ايا كانت بين الذهن والموضوع .

بكلمة واحدة ، نحن نعيش وسط الاشياء كما في السينما ، حيث نلاحظ على الشاشة نسخة المواضيع ووجودها ، ولكن وراء النسخة اي وراء الشاشة لا يوجد شيء .

فاذا اردنا الآن معرفة كيف يعرف ذهننا المواضيع ، فالجواب ان هذا يمكن ان ينشأ : « عن طاقة ذهننا نفسه ، او عن فعل اي فكر لا مرئي ومجهول ، او عن اي سبب اخر نحن اشد جهلا به ايضا »^(٢) .

٤ - نتائجها :

تلك نظرية مغرية . ومنتشرة جدا على كل حال . وسنجدها عبر التاريخ بمظاهر مختلفة ، بين النظريات الفلسفية ، وفي ايماننا عند جميع الذين يدعون « البقاء حياديين ومتحفظين علميا » .

٢ - فارن لينين : المرجع نفسه ص ٢١

٣ - فارن المرجع نفسه - الصفحة نفسها .

يجب علينا اذن ان نتفحص صحة هذه المحاكمات والنتائج المترتبة عليها . فاذا كان صحيحا ، كما يؤكد اللاادريون ، ان من المستحيل معرفة الطبيعة الحقيقية للاشياء ، وان معرفتنا تقف عند حدود مظاهرها ، فنحن لا نستطيع اذن تأكيد وجود الواقع الموضوعي ، ولا نستطيع معرفة هل الاشياء موجودة في ذاتها . بالنسبة لنا مثلا ، الاوتوبيس هو واقع موضوعي ، اللاادري يقول ان هذا غير مؤكد واننا لا نستطيع ان نعرف ما اذا كان الاوتوبيس هو فكرة وواقع . انه بمنعنا اذن من القول : ان فكرنا هو انعكاس للاشياء . ونرى اننا هنا في قلب المحاكمة المثالية ، لان الفرق ليس شاسعا بين التأكيد ان الاشياء غير موجودة ابدا ، واننا ببساطة لا نستطيع ان نعرف هل هي موجودة .

ولقد رأينا ان اللاأدرية تميز : « الاشياء - لنا » و « الاشياء - في ذاتها » . ودراسة « الاشياء - لنا » هي ممكنة اذن : هذا هو العلم . لكن دراسة « الاشياء - في ذاتها » امر محال ، لاننا لا نستطيع معرفة ما يوجد خارجا عنا .

ان نتيجة هذه المحاكمة هي الاتية : اللاادري يقبل العلم ، وبما انه لا يستطيع العمل بالعلم ما لم يطرد من الطبيعة كل قوة تفوق الطبيعة ، فانه امام العلم يكون ماديا .

لكن اللاأدري يسرع ليضيف : ان العلم لا يعطينا سوى مظاهر ، وعدا ذلك لا شيء يثبت عدم احتواء الواقع اشياء اخرى غير المادة ، او حتى هل المادة موجودة ، او ان الله غير موجود . فالعقل الانساني لا يستطيع ان يعرف شيئا عن ذلك ، وليس عليه ان يتدخل فيه . واذا وجدت طرق اخرى لمعرفة « الاشياء - في ذاتها » كالاعتقاد الديني فان اللاأدري لا يريد ان يعرفها ايضا ، ولا يعترف لنفسه ابدا بحق مناقشتها .

فاللاادري هو مادي اذن بالنسبة للسلوك في الحياة ولاقامة العلم ولكنه مادي لا يمرؤ على تأكيد ماديته ، ويفتش قبل كل شيء على ان لا يخلق لنفسه المتاعب مع المثاليين ، وان لا يدخل في صراع مع الاديان . انه « مادي خجل » .

النتيجة هي ان هذه الفلسفة الثالثة، وهي تشك بقيمة العلم العميقة ، ولا ترى

فيه الا المظاهر ، تقترح علينا عدم تخصيص العلم باية حقيقة ، واعتبار البحث عن معرفة شيء ما ، ومحاولة الاسهام في التقدم ، عملا عديم الفائدة .

يقول اللاأدريون : رأى الناس الشمس قديما كالاسطوانة المسطحة، فاعتقدوا ان هذا هو الواقع . لقد اخطأوا . واليوم ينبتنا العلم ان الشمس ليست كما نراها ويزعم تفسير كل شيء . ومع ذلك نعرف ان العلم يخطئ غالبا . ويحطم في النهار ما بنه في الليل، خطأ البارحة هو حقيقة اليوم، لكنه خطأ في الغد .

هكذا يدعم اللاأدريون الصيغة : نحن لا نستطيع المعرفة البتة : فالعقل لا يحمل لنا اي يقين ، واذا ادعت طرق اخرى غير العقل كالايمان الديني مثلا منحنا اليقين المطلق ، فلن يستطيع العلم ايضا منعنا من تصديقه . وهكذا ، فان اللاأدرية ، بتقليصها الثقة بالعلم تهيء عودة الايمان .

٥ - كيف ندحض هذه الفلسفة « الثالثة »

راينا ان الماديين لا يستخدمون العلم وحده لاثبات تأكيداتهم . بل يستخدمون كذلك التجربة التي تتيح مراقبة العلوم . بفضل « معيار الممارسة » نستطيع المعرفة ، نستطيع معرفة الاشياء .

يقول اللاأدريون انه من المستحيل تأكيد وجود العالم الخارجي اوعدم وجوده .

لكن ، بالممارسة ، نعلم ان العلم والاشياء موجودة . ونعلم ان الافكار التي نكونها لانفسنا عن الاشياء هي افكار اساسية ، وان الصلات التي نقيمها بيننا وبين الاشياء هي صلات واقعية .

« وما ان نستخدم تلك المواضيع لاستعمالنا الشخصي حسب الخواص التي ندركها فيها ، حتى نمتحن صحة ادراكاتنا الحسية اوخطأها امتحانا لا يخطئ . فاذا كانت هذه الادراكات خاطئة فان حكمنا ، حول امكانية استعمالنا الشيء الذي اوحى به لا بد من ان يكون خاطئا هو الآخر ولا بد من ان تفشل محاولتنا .

لكننا اذا نجحنا في بلوغ هدفنا ولاحظنا ان الشيء يتفق وفكرتنا عنه ويستجيب للغرض الذي توخيناه منه ، فان ذلك يعتبر دليلا ايجابيا على ان ادراكاتنا للشيء وخواصه ، ضمن هذه الحدود ، متفقة مع الواقع الموجود

خارجا عنا . ومتى وجدنا انفسنا وجها لوجه امام الفشل فاننا لن نحتاج عموما الى وقت طويل لتبين السبب الذي جعلنا نفشل ، وسنجد ان الادراك الذي تصرفنا بموجبه كان اما غير كامل وسطحيا ، واما مرتبطا بنتائج ادراكات اخرى - بشكل لا يبرره الواقع - وهذا ما نسميه بالقياس الفاسد . وطالما نحرص على تدريب حواسنا واستخدامها بشكل صحيح ونحصر سلوكنا داخل الحدود التي ترسمها ادراكاتنا المكتسبة والمستعملة بشكل صحيح ، طالما سنجد ان نتيجة تصرفاتنا تثبت تطابق ادراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للاشياء المدركة . ولم يوجد حتى الآن مثل واحد قادنا الى الاستنتاج بان ادراكاتنا الحسية المسيطر عليها علميا تولد في اذهاننا افكارا عن العالم الخارجي هي من حيث طبيعتها بالذات غير مطابقة للحقيقة ، او ان هناك تنافرا لازما بين العالم الخارجي و ادراكاتنا الحسية عنه «^(٥)» .

اذا استعدنا جملة انجلس نقول : « ان الدليل على الفطرة هو اننا ناكلها » (مثل انكليزي) فاذا كانت غير موجودة ، او كانت مجرد فكرة ، فان جوعنا لا يهدأ بعداكلها ابدا . وهكذا فمن الممكن معرفة الاشياء بصورة كاملة ، والنظر في مدى تطابق افكارنا مع الواقع . ومن الممكن مراقبة معطيات العلم بالتجربة ، بالصناعة التي تترجم النتائج النظرية للعلوم الى تطبيقات عملية . فاذا استطعنا صنع الكاوتشوك المركب فهذا يعني ان العلم يعرف « الشيء » - في ذاته « الذي هو الكاوتشوك » .

نحن نرى اذن انه من غير المفيد البحث لمعرفة : من على حق ، لانه ضمن الاخطاء النظرية التي يرتكبها العلم تأتي التجربة لتعطينا في كل مرة البرهان مؤكدة ان الحق هو بجانب العلم .

٦ - الخلاصة :

منذ القرن الثامن عشر ، نرى عند مختلف المفكرين الذين اخذوا من اللادرية قليلا او كثيرا ، نرى ان هذه الفلسفة تتجاوزها المثالية تارة ، والمادية طورا . فتحت غطاء من الكلمات الجديدة ، كما يقول لينين ، مع محاولة استخدام

٥ - قارن : انجلس : الاشتراكية الطوباوية - ص ١٥ .

العلوم لتوسيع تعليقاتهم ، لا يفعلون شيئا اخر غير خلق الغموض بين النظريتين متيحين بذلك للبعض امتلاك فلسفة ميسرة ، تمكنهم من الاعلان عن عدم مثاليتهم لانهم يستخدمون العلم ، لكنهم ليسوا ملادين ايضا لانهم لا يحررون على السير بحججهم حتى النهاية لانهم غير متسقين .

« بالفعل ما هي اللادرية ان لم تكن مادية « خجلة » ، اذا استعملنا كلمة لنكشيرية بليغة التعبير ؟ فتصور اللادري عن الطبيعة هو مادي بكلتيه ، فالعالم الطبيعي كله تحكمه قوانين ولا يقر بتدخل اي فعل خارجي . ولكن اللادري يضيف مستدركا : نحن لا نملك الوسيلة التي تتيح لنا ان نؤكد او ندحض وجود كائن ما اعلى في ما وراء الكون المعروف «^(٦)» .

تلعب هذه الفلسفة اذن لعبة المثالية ، وفي نهاية المطاف ينتهي اللادريون الى المثالية لانهم غير متسقين في تعليقاتهم . يقول لينين : « حكوا اللادري ستجدون المثالي » .

كنا قد راينا اننا نستطيع ان نعرف ايها على حق : المثالية ام المادية .

ونرى الآن ان النظريات التي تدعي وصل الفلسفتين لا تستطيع فعليا الا مساندة المثالية ، وانها لا تقدم بالتالي جوابا عن السؤال الاساسي في الفلسفة ، وانه بالتالي ليس هناك فلسفة ثالثة .

للقرءاءة

لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي من ص ٩ الى ص ٢١

انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٢٠ وما بعدها .

انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ص ١٤ - ١٥ .

٦ - قارن انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ص ١٤

القسم الثاني

المادية الفلسفية

الفصل الأول

المادة والماديون

- ١ - ما المادة ؟
- ٢ - النظريات المتتابعة في المادة .
- ٣ - ما المادة بالنسبة للماديين ؟
- ٤ - المكان ، الزمان ، الحركة والمادة .
- ٥ - خلاصة .

بعد ان حددنا :

اولا ، الافكار المشتركة لدى جميع الماديين ، ثم حجج جميع الماديين ضد الفلسفات المثالية ، وبعد ان اظهرنا خطأ اللأدرية اخيرا ، سنستخلص نتائج هذا التعليم ونقوي حججنا المادية بتقديم اجوبتنا على السؤالين التاليين :

- ١ - ما المادة ؟
- ٢ - ماذا يعني ان نكون ماديين ؟

١ - ما المادة ؟

اهمية السؤال : علينا طرح الاسئلة بوضوح في كل مرة تطرح فيها مشكلة للحل . فليس من السهل هنا بالفعل اعطاء جواب مرض . وللتوصل الى ذلك علينا ان نصوغ نظرية للمادة .

يظن الناس عموما ان المادة هي ما نستطيع لمسه ، ما هو صامد وصلب . هكذا حددت المادة في عصور الاغريق القديمة .

لكننا نعلم اليوم وبفضل العلوم ان هذا ليس دقيقا .

٢ - النظريات المتتابة في المادة :

ان هدفنا هو ان نتناول تناولا عابرا وبأكثر ما يمكن من البساطة مختلف النظريات المتعلقة بالمادة ، دون الدخول في الشروحات العلمية .

في اليونان ، كان يظن ان المادة هي واقع ممتليء لا يحترق ، ولا يستطيع الانقسام الى ما لا نهاية . وكان يقال : في لحظة ما لا تعود الاجزاء قابلة للانقسام . وسميت هذه الجزئيات الذرات (الذرة = غير منقسم) ، فالطاولة هي اذ ذاك تجمع من الذرات . وكان يظن ايضا ان هذه الذرات يختلف بعضها عن بعض : هناك ذرات ملساء ومدورة كذرات الزيت ، واخرى خشنة ومعقوفة كذرات الخل .

اول من حاول اعطاء قوام لهذه النظرية هو ديمقريطس ، وهو مادي قديم . وهو الاول الذي حاول ان يعطي تفسيراً مادياً للعالم . كان يعتقد مثلاً ان الجسم الانساني مركب من ذرات غير صقيلة ، وان النفس هي تجمع من الذرات اكثر رقة ، انه كان يعترف بوجود الالهة وكان مع ذلك يريد شرح كل شيء من وجهة نظر المادي . فقد كان يؤكد ان الالهة نفسها مكونة من ذرات في غاية الرقة .

هذه النظرية عدلت بصورة عميقة في القرن التاسع عشر .

كان ما يزال يظن ان المادة تنقسم الى ذرات ، وان هذه الذرات كانت جزئيات قاسية جدا ، متجاذبة فيما بينها ، لقد اهتمت نظرية اليونانيين ، ولم تعد هذه الذرات معقوفة او ملساء ، ولكن استمر الاعتقاد انها لا تحترق ولا تنقسم ، وتخضع لحركة التجاذب فيما بينها .

اليوم يبرهن ان الذرة ليست حبة من المادة لا تحترق ولا تقطع (اي لا تنقسم) ولكنها هي نفسها مركبة من جزئيات تسمى الكترونات تدور بسرعة كبيرة حول نواة تتضمن كتلة الذرة تقريبا بشكل مكثف . واذا كانت الذرة محايدة ، فان الالكترونات والنواة هي ذات شحنة كهربائية ، الا ان الشحنة الايجابية للنواة تساوي مجموع الشحنات السلبية في الالكترونات . المادة هي تجمع هذه

الذرات وهي اذ تبدي مقاومة للاختراق ، فانما يعود ذلك لحركة الجزئيات التي تتركب منها .

ان اكتشاف الخصائص الكهربائية للمادة ، وخاصة اكتشاف الالكترونات في بداية القرن التاسع عشر قد احدث هجمة من قبل المشايين ضد وجود المادة نفسه . لقد زعموا « ان الالكترونات ليس فيه شيء مادي ، وانه ليس الا شحنة كهربائية متحركة . فاذا لم يكن من مادة في الشحنة السلبية فلماذا يكون في النواة الايجابية ؟ اذن ان المادة قد تلاشت ، وليس هناك سوى الطاقة ! »

ولقد اعاد لينين ، في كتابه « المادية والمذهب النقدي التجريبي » (الفصل الخامس) ، الامور الى نصابها باظهاره ان الطاقة والمادة لا ينفصلان . فالطاقة هي مادية ، والحركة ليست سوى غط وجود المادة . بالاجمال يترجم المشايون اكتشافات العلم بالمقلوب . ففي الوقت الذي يظهر فيه العلم بجلاء اوجهاً لوجود المادة كانت حتى ذلك الحين مجهولة ، يستنتجون ان المادة غير موجودة ، بحجة انها لا تطابق الفكرة المكونة عنها سابقا كأن يعتقد ان المادة والحركة هما واقعان متمايزان^(١) .

٣ - ما المادة بالنسبة للماديين ؟

من الضروري في هذا الموضوع ان نميز : فالمطلوب ان نرى اولاً :

١ - ما المادة ؟

ثم
٢ - كيف هي المادة ؟

جواب الماديين على السؤال الاول ، هو ان المادة واقع خارجي مستقل عن الذهن ولا حاجة به للذهن حتى يوجد . يقول لينين في هذا الموضوع : « ان

١ - القسم الثاني من هذا الفصل عدل بمساعدة لوس لانجفن وجان اورسل . حول التقدم المنجز منذ بداية القرن في دراسة بنية المادة ، ارجع الى :

مفهوم المادة لا يعبر الا عن الواقع الموضوعي الذي يعطى لنا في الاحساس^(١) ،
والآن عن السؤال الثاني : « كيف هي المادة ؟ يقول الماديون : « على العلم
ان يجيب وليس علينا نحن » .

الجواب الاول لم يتغير منذ القدم حتى ايامنا هذه .
الجواب الثاني تغير ويجب ان يتغير لانه يخضع للعلوم وحالة المعارف
البشرية ، انه ليس اذن جوابا نهائيا .

نرى انه من الضروري ضرورة مطلقة ان نطرح السؤال جيدا وان لا ندع
المثاليين يخلطون السؤالين معا . يجب فصلهما جيدا ، وتبيان ان الاول هو
الرئيسي وان جوابنا بالنسبة له لم يتغير ابدا .

لان « الخاصة » الوحيدة للمادة التي يحدد التسليم بها المادية الفلسفية هي انها
« واقع موضوعي » ، هي انها خارج وعينا^(٢) .

٤ - المكان ، الزمان ، الحركة ، والمادة :

اذا اكدنا ان المادة موجودة خارجة عنا ، لاننا نلاحظ ذلك ، فائنا نؤكد
ايضاً :

١ - ان المادة توجد في الزمان وفي المكان .

٢ - ان المادة في حركة .

المثاليون يظنون ان المكان والزمان افكار لذهننا (كنط اول من دعم هذا
الاتجاه) . بالنسبة اليهم ، المكان هو صورة نعطيها للاشياء ، المكان يخلق من
ذهن الانسان ، والشيء نفسه بالنسبة للزمان .

الماديون يؤكدون ، على العكس ، ان المكان ليس فينا ، انما نحن الذين
نوجد في المكان . يؤكدون ايضا ان الزمان هو شرط ضروري لمجرى حياتنا ،
وان المكان والزمان هما بالتالي غير منفصلين عما يوجد خارجا عنا ، اي عن

المادة . « ان الاشكال الاساسية لكل كائن هي المكان والزمان ، واي كائن
خارج الزمان هو خلف كبير ، بقدر ما هو خلف وجود الكائن خارج
المكان »^(٣) .

نعتقد اذن ان هناك واقعاً مستقلاً عن الوعي . نعتقد جميعاً ان العالم وجد
قبلنا ، وانه سيكمل الوجود بعدنا . انه ليس بحاجة لنا ليوحد . نحن مقتنعون
بان باريس وجدت قبل مولدنا ، وانها اذا لم تهدم نهائياً ستوجد بعد موتنا .
نحن متأكدون من وجود باريس حتى عندما لا نفكر بها ، كذلك ان مشات
الالوف من المدن موجودة ولم نزرها ابدا ، حتى اننا لا نعرف اسمها وهي مع
ذلك موجودة . هذه هي القناعة العامة . وقد اتاحت العلوم اضافة دقة وصلابة
على هذه الحجة تحيلان كل الحذلقات المثالية الى عدم .

« وتؤكد علوم الطبيعة ايجابيا ان الارض كانت موجودة في حالات لم يكن
يسكنها معها ، ولا يمكن ان يسكنها ، لا انسان ولا اي كائن حي . ان المادة
العضوية ظاهرة متأخرة ، نتاج تطور طويل »^(٤)

فاذا كانت العلوم تقدم لنا اذن البرهان على ان المادة موجودة في المكان
والزمان ، فهي تعلمنا في نفس الوقت ان المادة متحركة . هذا التدقيق الذي
زودتنا به العلوم الحديثة مهم جدا ، لانه يحطم النظرية القديمة التي كانت المادة
بموجبها غير قادرة على الحركة ، اي خامدة .

« الحركة هي غطووجود المادة . . ولا يمكن تصور المادة بدون حركة تماماً كما لا
يمكن تصور الحركة بدون مادة »^(٥) .

نحن نعلم ان العالم في حالته الحاضرة هو نتيجة تطور طويل في جميع
المجالات . وبالتالي هو نتيجة حركة بطيئة ولكن متصلة . وبعد ان بينا وجود
المادة نقول اذن :

« ليس الكون سوى مادة في حالة الحركة ، وهذه المادة التي هي في حالة

٤ - فارن انجلس انتي دوهرينغ - دار دمشق . ترجمة فؤاد ابوب ، ص ٦٥ ، ١٩٦٨

٥ - لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٦٤

٦ - فارن انجلس انتي دوهرينغ ، ص ٧٥

٢ - فارن لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٢٦٧

٣ - فارن لينين : المادية والمذهب النقدي والتجريبي ص ٢٦٠

الحركة لا يمكن ان تتحرك الا في المكان والزمان (٧).

٥ - خلاصة :

حاصل هذه الملاحظات هو ان فكرة الله ، فكرة « الروح الخالص » خالق الكون ، لا معنى لها . لانها خارج المكان والزمان هو شيء غير ممكن الوجود .

يجب ان نقاسم المثاليين صوفيتهم وبالتالي عدم قبولهم بأية رقابة علمية ، حتى نعتقد باله موجود خارج الزمان ، اي غير موجود في اية لحظة ، وموجود خارج المكان اي لا وجود له في اي مكان .

الماديون ، المدعمون بنتائج العلوم ، يؤكدون ان المادة موجودة في المكان ، وفي زمن معين (في الزمان) . وبالتالي لا يمكن للكون ان يكون مخلوقا لانه سيكون على الله ، ليستطيع خلق العالم ، خلق لحظة لا تكون في اية لحظة (لان الزمان غير موجود بالنسبة لله) وسيكون واجبا ان يخرج العالم من لا شيء . ولقبول الخلق ، يجب اذن القبول اولا بوجود زمن لم يكن الكون قد وجد فيه قط ، ثم انه من لا شيء ، خرج شيء ، وهذا ما لا يمكن للعلم قبوله .

نرى اذن ان الحجج المثالية ، اذا ما عرضت على محك العلوم لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، في حين ان حجج الماديين ، لا يمكنها ان تكون مفصولة عن العلوم نفسها . نشدد هنا ، مرة اخرى ، على الصلات الحميمة التي تربط المادية بالعلوم .

للقراءة

- ١ - انجلس : انتي دوهر ينغ ، ص ٧٥ .
- ٢ - لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي : (الفصل الثالث) (ص ١٧٠ - ١٧٦) والفصل الخامس .

٧ - لينين : المرجع نفسه ص ١٧١

الفصل الثاني

ماذا يعني ان يكون الانسان ماديا

- ١ - وحدة النظرية والممارسة .
- ٢ - ماذا يعني كون المرء نصيراً للمادية في مجال الفكر ؟
- ٣ - كيف نكون ماديين في الممارسة ؟
 - أ - الوجه الاول للسؤال .
 - ب - الوجه الثاني للسؤال .
- ٤ - خلاصة .

١ - وحدة النظرية والممارسة :

ان هدف الدراسة التي نتابعها هو العمل على معرفة ما هي الماركسية ، ورؤية كيف ان الفلسفة المادية ، عندما تصبح جدلية ، تصبح هي هي الماركسية . نحن نعلم ، حتى الآن ، ان احد اسس هذه الفلسفة هو الصلة الوثيقة بين النظرية والممارسة .

لذلك ، وبعد ان رأينا ما المادة بالنسبة للماديين ثم كيف هي المادة ، فقد اصبح ضروريا بعد هذين السؤالين النظريين ان نقول ماذا يعني كون المرء ماديا ، اي كيف يتصرف المادي . هذا هو الوجه العملي لهذه المشكلات .

أساس المادية هو الاعتراف بأن الوجود هو مصدر الفكر . ولكن أيكفي ان نكرر هذا بصورة متواصلة ؟ لكي نكون انصاراً حقيقين للمادية المتسقة ، يجب ان نكون كذلك : ١ - في مجال الفكر ، ٢ - في مجال الفعل .

٢ - ماذا يعني ان يكون المرء نصيراً للمادية في مجال الفكر ؟

ان يكون المرء نصيراً للمادية في مجال الفكر ، هذا يعني معرفة المعادلة الاساسية للمادية التي هي الوجود ينتج الفكر ، ثم معرفة كيفية تطبيق هذه المعادلة .

فعندما نقول : ان الوجود ينتج الفكر ، فان لدينا هنا صيغة مجردة لان كلمتي : وجود وفكر هما كلمتان مجردتان . « الوجود » تعني الوجود بالمعنى العام ، و « الفكر » تعني الكلام على الفكر بالمعنى العام . الوجود والفكر بالمعنى العام ، هما واقع ذاتي (راجع القسم الاول ، الفصل الرابع ، شرح « الواقع الذاتي » و « الواقع الموضوعي ») : ان ذلك غير موجود . وهذا ما نسميه تجريداً . فالقول « ان الوجود ينتج الفكر » هو اذن صيغة مجردة لانها مركبة من تجريدات .

نحن نعرف مثلاً الاحصنة معرفة جيدة ، ولكن اذا تكلمنا على الحصان يكون الكلام على الحصان بالمعنى العام ، فالحصان بالمعنى العام هو اذن تجريد .

فاذا وضعنا مكان الحصان الانسان ، او الوجود بالمعنى العام ، فهذه ايضا تجريدات .

ولكن ، اذا كان الحصان بالمعنى العام لا وجود له فماذا يوجد اذن ؟ - الاحصنة على وجه الخصوص . فالبيطري الذي يقول : « انا اعالج الحصان بالمعنى العام وليس الحصان بالمعنى الخاص » يضحك الناس منه ، كذلك الطبيب الذي يقول الكلام نفسه على الناس .

لا وجود اذن للوجود بالمعنى العام ، وما يوجد هو كائنات على وجه الخصوص ، لها كفاءات خاصة . والقول نفسه يقال عن الفكر .

نقول اذن : ان الوجود بالمعنى العام هو شيء مجرد ، وان الوجود بالمعنى الخاص هو شيء ملموس ، والشيء نفسه بالنسبة للفكر بالمعنى العام ، وللفكر بالمعنى الخاص .

المادي هو الذي يعرف كيف يتعرف في كل الظروف على موقع الوجود وموقع الفكر ، ويعرف كيف يجعله ملموساً .

مثلاً : الدماغ وافكارنا .

علينا معرفة تحويل الصيغة العامة المجردة الى صيغة ملموسة . فالمادي يحدد اذن هوية الدماغ بكونه الوجود ، وهوية افكارنا بكونها الفكر . فيفكر قائلاً : ان الدماغ (الوجود) هو الذي ينتج افكارنا (الفكر) . هذا مثل بسيط ، ولناخذ مثلاً من المجتمع البشري اكثر تعقيداً ولنر كيف سيحكم المادي .

حياة المجتمع مركبة (اجمالاً) من حياة اقتصادية وحياة سياسية . ما هي العلاقات بين الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ؟

ما هو العامل الاول في هذه الصيغة المجردة التي نريد تحويلها الى صيغة ملموسة ؟

العامل الاول اي الوجود ، العامل الذي يعطي الحياة للمجتمع ، هو عند المادي الحياة الاقتصادية . والعامل الثاني هو الفكر الذي خلقه الوجود والذي لا حياة له بدون ، هو الحياة السياسية .

المادي سيقول اذن ان الحياة الاقتصادية تفسر الحياة السياسية ، لان الحياة السياسية هي نتاج للحياة الاقتصادية .

هذه الملاحظة الموجزة هي في اساس ما نسميه المادية التاريخية والتي وضعها لأول مرة ماركس وانجلز .

لناخذ مثلاً اكثر دقة ، الشاعر . من المؤكد ان عوامل عديدة تدخل في الحساب عند « تفسير » الشاعر ، ولكن نريد هنا تبين وجه من هذه المسألة . يقال عموماً ان الكاتب يكتب مدفوعاً بالوحي . ايكفي هذا لتفسير كون الشاعر يكتب هذا بدلاً من ذاك ؟ كلا .

من المؤكد ان الشاعر لديه افكار في رأسه ، ولكنه ايضا كائن يعيش في المجتمع . وسنرى ان العامل الاول الذي يهب الكاتب حياته الخاصة هو المجتمع ، لان العامل الثاني هو الافكار التي يمتلكها الكاتب في دماغه . وبالتالي فان احد العناصر ، العنصر الاساسي الذي « سيفسر » الكاتب سيكون المجتمع ، اي الوسط الذي يعيش فيه الكاتب داخل المجتمع . (سنعود فنجد

« الشاعر » عندما سندرس الديالكتيك ، لانه سيكون لدينا عندئذ جميع العناصر لدرس هذه المسألة جيداً) .

ونحن نرى ، في هذه الامثلة ، ان المادي هو الذي يعرف كيف يطبق الصيغة المادية دائماً وفي اي مكان ، وفي كل لحظة ، وفي جميع الحالات .

٣ - كيف نكون ماديين في الممارسة ؟

١ - الوجه الاول للسؤال :

رأينا انه لا وجود للفلسفة الثالثة ، وانه اذا لم تكن متسقين في تطبيق المادية ، فاما ان نكون مثاليين ، واما ان نحصل على خليط من المادية والمثالية .

العالم البورجوازي ، في دراساته وفي تجاربه ، هو مادي دائماً . هذا طبيعي لانه من الضروري ان يشتغل على المادة لجعل العلوم تتقدم ، واذا ظن العالم فعلاً بأن المادة لا توجد الا في ذهنه ، فانه سيسجد اجراء التجارب عملاً عديم الفائدة .

هناك اذن انواع عدة من العلماء :

١ - العلماء الماديون الواعون والمتسقون .^(١)

٢ - العلماء الماديون دون ان يدروا ، اي جميع العلماء على وجه التقريب لانه من المستحيل ان تشتغل علماً دون ان نفترض وجود المادة . ولكن بين هؤلاء يجب ان نميز :

أ - هؤلاء الذين يبدأون باتباع المادية ثم يتوقفون لانهم لا يجرؤون على القول بانهم كذلك ، هؤلاء هم اللاأدريون ، اولئك الذين دعاهم انجلس « الماديون الخجلون » .

ب - ثم العلماء الماديون على غير علم منهم ، وغير المتسقين . هم ماديون في المختبر ، ثم بعد خروجهم من عملهم ، هم مثاليون مؤمنون ومتدينون .

وفي الواقع فان هؤلاء لم يعرفوا ، او لم يريدوا ترتيب افكارهم . انهم في

١ - Voir P. Langevin: La pensee et l'action. Editeurs Français Réunis, Paris s.d.

تناقض دائم مع انفسهم . يفصلون اعمالهم المادية بالضرورة عن تصوراتهم الفلسفية . انهم « علماء » ، وعلى الرغم من ذلك يظنون - وهذا امر قليل العلمية - انه من غير المجدي معرفة طبيعة الاشياء الواقعية ، هذا اذا لم يتفوا صراحة وجود المادة . هم « علماء » ومع ذلك يؤمنون ، بدون اي برهان ، باشياء مستحيلة (لنر حالة باستور وبرنلي وآخرين من المؤمنين ، بينا العالم اذا كان متسقاً، عليه ان يتخلى عن اعتقاده الديني) فالعلم والايمان متضادان بصورة مطلقة .

٢ - الوجه الثاني للسؤال :

المادية والفعل : اذا كان صحيحاً ان المادي الحقيقي هو الذي يطبق الصيغة التي هي في اساس هذه الفلسفة ايما كان وفي جميع الحالات ، فعليه اذن الانتباه لتطبيقه جيداً .

وكما رأينا للتو الى يجب ان نكون متسقين ، وليكون الانسان مادياً متسقاً يجب ان ينقل المادية الى الفعل .

ولكي يكون الانسان مادياً في الممارسة ، عليه ان يعمل بصورة مطابقة للفلسفة ، معتبراً الواقع العامل الاول والاهم ، والفكر العامل الثاني .

وسنرى ما هي المواقف التي يتخذها هؤلاء الذين ، على غير علم منهم ، يأخذون الفكر كعامل اول وهم في ذلك مثاليون دون ان يدروا .

أ - ماذا نسمي ذاك الذي يعيش كأنه وحيد في العالم؟ الفردي . انه يعيش منطقياً على نفسه ، العالم الخارجي لا يوجد الا بالنسبة له . المهم بالنسبة اليه نفسه هو وفكره . انه مثالي صرف او ما نسميه مثالي وحداني (راجع شرح هذه الكلمة في القسم الاول ، الفصل الثاني)

الفردي هو انسان اناني ، وان يكون الانسان انانيا ليس موقفاً مادياً . فالاناني يجعل حدود العالم داخل شخصه الخاص .

ب - ذاك الذي يتعلم للذة التعلم ، كهوا ، ولا يجد صعوبة في الفهم ، لكنه يحفظ هذا لنفسه فقط ، يعلق الاهمية الاولى على نفسه وفكره .

المثالي هو مغلق على العالم الخارجي ، على الواقع . المادي هو منفتح دائماً على

الواقع : لذلك على الذين يتابعون دراسة الماركسية ويتعلمون بسرعة ان يحاولوا نقل ما تعلموه .

ج - ذاك الذي يفكر حول جميع الاشياء انطلاقاً من ذاته ، يخضع لتشويه مثالي . سيقول مثلاً عن اجتماع قيل فيه اشياء غير مستحبة بالنسبة له ، « ان هذا الاجتماع سيء » . لا يجوز ان تحلل الاشياء هكذا ، يجب الحكم على الاجتماع بالنسبة لتنظيمه ، لهدفه ، وليس بالنسبة لذاتنا نحن .

د - التزمت العقائدي ليس موقفاً مادياً هو الآخر لان المتزمت يفهم المشاكل ، ولانه متفق مع ذاته ، يزعم ان على الآخرين ان يكونوا مثله . المتزمت هو ايضاً الذي يعطي الاهمية الاولى لنفسه ، اول شيعة معينة .

هـ - المذهبي ، الذي درس النصوص ، واستخلص منها تعريفات ، هو ايضاً مثالي عندما يكتفي بايراد النصوص المادية عندما يعيش فقط مع نصوصه لان العالم الواقعي يخفى آنذاك . فيعيد هذه الصيغ بدون ان يطبقها في الواقع . ويعطي الاهمية الاولى للنصوص والافكار . الحياة نفسها تجري في وعيه بشكل نصوص . ونستخلص عموماً ان المذهبي ايضاً هو متزمت عقائدي .

ان الاعتقاد بان الثورة هي مسألة تربية ، والقول انه ان شرحنا ضرورة الثورة للعمال « مرة واحدة بشكل جيد » فان ذلك يكفي ان يفهموا وانه اذا لم يريدوا الفهم ليس مهماً محاولة تحقيق الثورة . هذا ايضاً تزمت عقائدي وليس موقفاً مادياً .

يجب علينا ان نلاحظ الحالات التي لا يفهم فيها الناس ، ان نبحث لماذا يكون الامر كذلك ، ان نلاحظ القمع ، دعاية الصحف البورجوازية ، الراديو ، السينما الخ . . ونفتش عن الطريق الممكنة لايصال ما نريد بواسطة المنشورات والكتيبات والصحف والمدارس الخ . . .

ان لا نملك الاحساس بالوقائع ، ان نعيش في القمر ، وعملياً ان نضع التصاميم بدون ان نأخذ في الاعتبار الاوضاع والوقائع ، ذاك اتجاه مثالي يعلق الاهمية الاولى على المشاريع الجميلة دون الانتباه الى : هل هي قابلة للتحقيق ام لا . اولئك الذين ينتقدون بصورة متصلة ولا يفعلون شيئاً لكي تجري الامور

بشكل افضل اذ لا يقترحون اي علاج ، واولئك الذين يفتقرون الى الحس النقدي تجاه ذواتهم ، جميع هؤلاء هم ماديون غير متسقين .

٤ - خلاصة :

نحن نرى في هذه الامثلة ان العيوب التي نلاحظها قليلاً او كثيراً في كل منا ، هي عيوب مثالية . نحن مصابون بها لاننا نفصل النظرية عن الممارسة ولان البورجوازية التي تأثرنا بها ، تود ان لا نعلق اهمية على الواقع . فبالنسبة للبورجوازية ، التي تدعم المثالية ، النظرية والممارسة هما شيان مختلفان كلياً وليس بينهما اية علاقة .

هذه العيوب هي اذن مضرّة وعلينا محاربتها ، لانها في نهاية المطاف تفيد البورجوازية . بايجاز، علينا ان نلاحظ ان هذه العيوب التي ولدها فينا المجتمع بواسطة الاسس النظرية لتربيتنا ولثقافتنا المتجذرة في طفولتنا ، هي من عمل البورجوازية وعلينا التخلص منها .

نرحم ادمغة قرائنا، نعتقد انه من الضروري تسمية الفلاسفة الماديين الرئيسيين المعروفين قليلا او كثيرا من القراء حسب التسلسل التاريخي .

لذلك ، واختصارا للعمل ، سنخصص الصفحات الاولى للجانب التاريخي المحض ، ثم ، في القسم الثاني من هذا الفصل ، سنرى لماذا خضع تطور المادية لهذا الشكل من النمو الذي عرفه .

١ - ضرورة درس هذا التاريخ :

البرجوازية لا تحب تاريخ المادية . ولذلك فان هذا التاريخ المدرسي في الكتب البورجوازية هو تاريخ غير كامل البتة وخاطيء دائما . وتستعمل فيه مختلف عمليات التزوير .

١ - انها تذكر المفكرين الماديين الكبار ، ما دامت غير قادرة على تجاهلهم ، وتحدث عن كل ما كتبوا ، الا عن دراساتهم المادية ، وتنسى القول انهم فلاسفة ماديون .

هناك الكثير من حالات النسيان هذه في تاريخ الفلسفة كما يدرس في الثانويات او في الجامعات ، وسنورد « ديدرو » كمثال على ذلك ، ديدرو الذي كان اكبر فيلسوف مادي قبل ماركس وانجلس .

٢ - كان هناك العديد من المفكرين عبر التاريخ الذين كانوا ماديين دون ان يدروا ، او كانوا غير متسقين . اي انهم كانوا ماديين في بعض كتاباتهم ، ومثاليين في البعض الآخر : ديكارت مثلا .

والحال ان التاريخ الذي كتبه البورجوازية يترك في الظل ليس فقط كل ما اثر في المادية عند هؤلاء المفكرين ، بل وايضا كل ما ادى الى ولادة تيار بكامله في هذه الفلسفة .

٣ - بعد ذلك ، اذا لم تنجح هاتان العمليتان في التزوير لتمويه بعض المؤلفين ، فانهم يطمسون بكل بساطة .

هكذا يدرس تاريخ الادب والفلسفة في القرن الثامن عشر « بتجاهل » دولباخ (D'holbach) وهلفيتيوس (Helvétius) ، اللذين كانا مفكرين

الفصل الثالث

تاريخ المادية

١ - ضرورة دراسة هذا التاريخ .

٢ - مادية ما قبل الماركسية .

أ - عصور الاغريق القديمة .

ب - المادية الانكليزية .

ج - المادية في فرنسا .

د - مادية القرن الثامن عشر .

٣ - عم تتأني المثالية .

٤ - مم يتأني الدين .

٥ - حسنات المادية ألما قبل الماركسية .

٦ - عيوب المادية ألما قبل الماركسية .

درسنا حتى الآن ما هي المادية بصورة عامة ، وما هي الافكار المشتركة لدى جميع الماديين . سنرى الآن كيف تطورت المادية منذ القدم حتى بلوغ المادية الحديثة . بايجاز سننتج بسرعة تاريخ المادية .

ليس في نيتنا تفسير ٢٠٠٠ سنة من تاريخ المادية في صفحات قليلة ؛ نريد فقط ، اعطاء بعض التوجيهات العامة التي ستوجه القراء .

ولكي ندرس جيدا هذا التاريخ ، ولو بصورة مختصرة ، من الضروري ان نرى في كل لحظة لماذا جرت الاشياء على هذا النحو . وإن عدم ايراد بعض الاسماء التاريخية أقل سوءاً من عدم تطبيق هذا المنهج . لكن مع حرصنا على ان لا

كبيرين في هذه الحقبة .

لماذا الامر كذلك ؟ لان تاريخ المادية هو تاريخ يعلم بصورة خاصة معرفة مشاكل العالم وفهمها ؛ وكذلك لان نمو المادية مضر بالايديولوجيات التي تدعم امتيازات الطبقات الحاكمة

هذه هي الاسباب التي دعت البورجوازية لتقديم المادية كمذهب متحجر لم يتغير منذ عشرين قرنا ، بينما كانت المادية على العكس شيئا حيا ودائم الحركة .

« ولكن المادية ، شأنها شأن المثالية ، قد مرت بعدة مراحل من التطور . فعند كل اكتشاف يفتح عهدا جديدا في ميدان العلوم الطبيعية ، كان ينبغي على المادية ان تغير شكلها »^(١) .

نفهم الآن بصورة افضل ضرورة دوس تاريخ المادية هذا ولو بايجاز . وللقيام بهذا العمل علينا ان نميز مرحلتين :

١ - من المنشأ (عصور الاغريق القديمة) حتى ماركس وإنجلس .

٢ - من مادية ماركس وإنجلس حتى ايامنا هذه . (سندرس القسم الثاني مع المادية الديالكتيكية)

نسمي المرحلة الاولى « مادية ما قبل الماركسية » ، والثانية « المادية الماركسية » او « المادية الديالكتيكية » .

٢ - المادية الما قبل الماركسية :

أ - عصور الاغريق القديمة .

نذكر ان المادية مذهب ارتبط ارتباطا دائما بالعلوم وتطور وتقدم معها . وعندما ابتدأت العلوم تظهر مع « الفزيائيين » في عصور الاغريق القديمة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، تكون في ذلك الوقت تيار مادي جذب اليه افضل المفكرين والفلاسفة في ذلك العصر (طاليس ، اناكسيمنس

١ - فارن إنجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية - دار التقدم ص

٢٥ - ٢٦

وهيراقليطس) . هؤلاء الفلاسفة الاول سيكونون كما قال إنجلس : « ديالكتيكيين بالطبع » لقد ادعشتهم واقعة اننا نصادف الحركة والتغير في كل مكان ، وان الاشياء ليست منعزلة ، ولكنها مرتبطة بصورة وثيقة بعضها ببعض . .

قال هيراقليطس الذي نسميه « ابا الديالكتيكية » :

« لا شيء جامد ، كل شيء يسيل ، ولا نستحم ابدا في النهر ذاته مرتين ، لانه في لحظتين متتاليتين لا يكون ابدا هو نفسه ، لقد تغير من لحظة الى اخرى واصبح آخر » .

وكان هيراقليطس اول من حاول تفسير الحركة والتغير ، ورأى في التناقض اسباب تطور الاشياء .

فتصورات هؤلاء الفلاسفة الاول كانت تصورات صائبة ، ومع ذلك اهملت لانها تشكو من كونها مصاغة قبلية ، بمعنى ان حالة العلوم في تلك الحقبة لم تكن تسمح باثبات ما قدموه . من جهة اخرى لم تكن قد تحققت بعد الظروف الاجتماعية الضرورية لازدهار الديالكتيك (وضرى فيما بعد ما هي هذه الظروف) .

ولم تتحقق الظروف (الاجتماعية والذهنية) فتيح للعلوم اثبات صحة الديالكتيك الا في زمن متاخر جدا ، في القرن التاسع عشر .

وكان لدى فلاسفة يونانيين آخرين تصورات مادية : وقد ناقش لوسيب (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) الذي كان معلم ديمقريطس ، مشكلة الذرات هذه التي اقام نظريتها ديمقريطس .

وابيقور (٣٤١ - ٢٧٠ قبل الميلاد) من اتباع ديمقريطس ، هو مفكر كبير زورت الكنيسة فلسفته كليا في القرون الوسطى . فقد قدمت الكنيسة المذهب الابيقوري كرها بالمادية ، كمذهب لا اخلاقي جذريا ، كتبرير للانفعالات الاكثر خسة . لقد كان ابيقور في الواقع ناسكا وفلسفته تهدف لاعطاء الانسانية اساسا علميا (اذن لا ديني) .

جميع هؤلاء الفلاسفة كانوا يعون ان الفلسفة مرتبطة بمصير الانسانية، ملاحظ هنا معارضتهم للنظرية الرسمية ، ومعارضتهم للمثالية*.

لكن مفكراً كبيراً سيطر على العصور الاغريقية القديمة ، هو ارسطو ، كان بالاحرى مثالياً . وكان تأثيره كبيراً بصورة خاصة . فقد اقام لائحة المعارف البشرية في هذا العصر وسد ثغراتها التي خلفتها العلوم الجديدة . وهو ذو ذهن كليّ ، وضع كتباً عديدة في جميع المواضيع . وبشمولية معرفته ، التي لم يحفظ منها الا الميول المثالية ، واهملت فيها المظاهر المادية والعلمية ، كان له تأثير كبير على تصورات الفلاسفة حتى نهاية العصور الوسطى ، اي خلال عشرين قرناً .

خلال هذه المرحلة كلها ، اتبع التقليد القديم ، ولم يفكر احد الا من خلال ارسطو . وكان الذين يفكرون بطريقة اخرى يقيمون بوحشية . وبالرغم من كل هذا ، وحوالي نهاية القرون الوسطى ، نشب صراع بين المثاليين الذين كانوا ينكرون المادة ، واولئك الذين كانوا يعتقدون بوجود واقع مادي .

ففي القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، تنابع هذا الخصام في فرنسا وخاصة في انكلترا .

في البداية ، غمت المادية بصورة رئيسية في انكلترا . يقول ماركس : « المادية هي الابنة الحقيقية لبريطانيا العظمى »^(٢).

بعد ذلك بقليل ازدهرت المادية في فرنسا . على كل حال نرى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظهور تيارين : احدهما المادية الانجليزية ، والآخر المادية الفرنسية ، اللتان ادت وحدتهما الى ازدهار المادية العظمى في القرن الثامن عشر .

* - وفي الاصل الفرنسي يوجد : ومعارضتهم للمادية وقد رأينا في ذلك خطأ مطبعياً .

Marx- Engels. La Sainte Famille in Etudes Philosophiques — E.S. 1961

٢ -

ب - المادية الانجليزية :

اما الاب الحقيقي للمادية الانجليزية ولكل علم تجريبي حديث فهو بيكون . ان علم الطبيعة عنده هو العلم الصحيح . والفيزياء القائمة على تجربة الحواس ، هي الجزء الاشرف و« القسم الأهم في علم الطبيعة »^(٣) .

اشتهر بيكون كمؤسس للمنهج التجريبي في دراسة العلوم ، وكان المهم عنده هو دراسة العلم في « كتاب الطبيعة الكبير » . وذلك امر مثير للاهتمام خاصة في عصر درست فيها العلوم في الكتب التي خلفها ارسطو قبل ذلك بعدة قرون .

فدراسة الفيزياء مثلاً ، اليكم كيف كانوا يتصرفون : في موضوع معين تؤخذ المقاطع التي كتبها ارسطو ، ثم تؤخذ كتب القديس توما الاكوينى ، الذي كان لاهوتياً كبيراً ، ويقرأ ما كتبه بالنسبة لمقطع ارسطو . ولا يقوم الاستاذ باي تعليق شخصي ، وكان يقول اقل مما يفكر به ايضاً ، ولكنه كان يرجع الى مؤلف ثالث يعيد ارسطو والقديس توما . هكذا كان العلم في العصور الوسطى ، هذا العلم الذي دعى السكولائية : كان علماً كتبياً ، لانهم كانوا يدرسون فقط في الكتب .

انتفض بيكون ضد هذه السكولائية ، ضد هذا التعليم المتحجر ، داعياً للدراسة في « كتاب الطبيعة الكبير » .

وقد طرح في هذا العصر السؤال التالي :

عم تتأتى افكارنا ؟ عم تتأتى معارفنا ؟ إن لكل منا افكاره ، فكرة البيت مثلاً . يقول الماديون : ان هذه الفكرة تأتي لان البيوت موجودة . ويظن المثاليون ان الله هو الذي اعطانا فكرة البيت .

بيكون هو الآخر كان يقول مؤكداً ان الفكرة لا توجد الا لاننا نرى او نلمس الاشياء ولكنه لم يستطع اثبات ذلك .

٣ - قارن انجلس : الاشتراكية الطوباوية الاشتراكية العلمية ، دار التقدم ص ٩

ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) هو الذي شرع بتبيان كيف تتأتى الافكار من التجربة . فبين ان جميع الافكار تتأتى من التجربة وان التجربة وحدها تعطينا الافكار . ففكرة الطاولة الاولى تأتت للانسان حتى قبل ان توجد لانه بالتجربة استخدم في السابق حجرا او جذع شجرة بوصفه طاولة .

مع افكار لوك ، انتقلت المادية الانكليزية الى فرنسا في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، لانه خلال تطور هذه الفلسفة في انكلترا بشكل خاص ، تكون تيار مادي في فرنسا .

ج - المادية في فرنسا :

نستطيع ان نحدد بوضوح ابتداء بديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ولادة تيار مادي في فرنسا . ولقد كان لديكارت تأثير كبير على هذه الفلسفة ولكن لا يحكى عن هذا التأثير بصورة عامة !

في هذه الحقبة ، التي كانت الايديولوجية الاقطاعية فيها حية جدا حتى في العلوم ، هذه العلوم التي كانت تدرس بالاسلوب السكولاتي الذي رأيناه ، دخل ديكارت في صراع مع هذا الأمر الواقع .

ان الايديولوجية الاقطاعية مصطبغة بالعقلية الدينية . فهي تعتبر ان الكنيسة ، ممثلة الله على الارض ، تحتكر الحقيقة . وينتج عن ذلك انه لا يستطيع اي انسان ان يدعي الحقيقة اذا لم يخضع فكره لتعاليم الكنيسة . لقد هفّت ديكارت هذا التصور . وبالطبع هو لم يهاجم الكنيسة ككنيسة ، لكنه جاهر بجرأة ان كل انسان ، مؤمنا كان ام غير مؤمن ، يستطيع الوصول الى الحقيقة بتمرين عقله ، «النور الطبيعي» .

ففي مطلع كتابه «القول في المنهج» يعلن ديكارت : «العقل السليم هو في العالم الشيء الافضل توزيعا» . وبالتالي فان كل واحد يتمتع بالحقوق نفسها امام العلم . وهو اذا انتقد مثلا طب عصره انتقادا جيدا (المريض الوهمي لمولير هو صدى انتقادات ديكارت) فلأنه يريد ان يحقق علما يكون علما حقيقيا ، قائما على دراسة الطبيعة ، رافضا العلم المدرسي حتى ايامه ، حيث كان ارسطو وتوما الاكوييني «الحجج» الوحيدة .

كان ديكارت يعيش في بداية القرن السابع عشر ، وفي القرن التالي كانت الثورة مستدلع ، ولذلك نستطيع القول انه يخرج من عالم يحتضر ليدخل في عالم جديد ، في العالم الذي سيولد . هذا الوضع جعل من ديكارت توفيقيا ، فهو يريد خلق علم مادي وفي الوقت نفسه هو مثالي لانه يريد خلاص الدين .

وعندما كان يسأل في عصره ، لماذا يوجد حيوانات تعيش ؟ كان يجاب وفق الاجابة اللاهوتية الجاهزة : لان هناك مبدأ يجعلها تعيش . على العكس من ذلك دعم ديكارت القول بأن قوانين الحياة الحيوانية هي بكل بساطة قوانين مادية وقد اعتقد واكد ان الحيوانات ليست شيئا آخر غير آلات من لحم وعصل ، كما ان باقي الالات هي من حديد وخشب . كان يظن ان هذه او تلك لا تملك احساسات ، وعندما كان الناس المنتسبون لفلسفته يخزون الكلاب خلال اسابيع الدراسة في دير بوررويال كانوا يقولون «لله كم هي حسنة الصنع هذه الطبيعة حتى لكأنها (كلاب) تتألم ..»

في نظر ديكارت المادي ، كانت الحيوانات اذن آلات ، لكن الانسان كان مختلفا ، لانه يملك نفسا كما يقول ديكارت المثالي ...

من هذه الافكار التي طورها ودافع عنها ديكارت سيتولد تيار فلسفي مادي واضح من جهة ، ومن جهة اخرى تيار مثالي .

بين هؤلاء الذين يكملون الفرع الديكارتي المادي نذكر لاماتري (١٧٠٩ - ١٧٥١) الذي يستعيد هذه الاطروحة عن الحيوان - الآلة ويمدها حتى تشمل الانسان . لماذا لا يكون الانسان آلة ؟ . النفس البشرية نفسها ، يراها كألة ، حيث الافكار هي حركات ميكانيكية .

في هذه الحقبة دخلت المادية الانكليزية الى فرنسا مع افكار لوك . ومن النقاء هذين التيارين ستتولد مادية اكثر تطورا . وهذا سيكون ،

د - مادية القرن الثامن عشر :

دافع عن هذه المادية فلاسفة عرفوا ايضا ان يكونوا مقارعين ، وكتابا مدهشين : كانوا ناقدين للمؤسسات الاجتماعية والدين بصورة متصلة ، مطبقين النظرية في الممارسة ، وكانوا في صراع دائم مع السلطة ، فسجنوا احبانا

في الباستيل ، او في فانسين .

هؤلاء هم الذين جمعوا اعمالهم في الموسوعة الكبيرة التي ثبتوا فيها الاتجاه الجديد للمادية . وقد كان لهم تأثير كبير لأن هذه الفلسفة ، كما يقول أنجلس كانت « قناعات الشبيبة المثقفة بأسرها » . .

وكانت هذه هي الحقبة الوحيدة في تاريخ الفلسفة في فرنسا حيث أصبحت فلسفة ذات خصائص فرنسية ، فلسفة شعبية حقا .

وييمن ديدرو ، المولود في لانجر في السنة ١٧١٣ ، والمتوفي في باريس في السنة ١٧٨٤ ، على كل هذه الحركة . وما يجب قوله قبل كل شيء وما لا يقوله التاريخ البورجوازي ، انه كان اكبر مفكر مادي قبل ماركس وأنجلس . فقد قال لينين ان ديدرو توصل تقريبا الى خلاصات المادية المعاصرة (الديالكتيكية) .

كان مناضلا حقا ، في معركة دائمة ضد الكنيسة ، ضد الحالة الاجتماعية ، وعرف السجون . والتاريخ الذي كتبه البورجوازية المعاصرة طمسته كثيرا ولكن يجب قراءة محاورات ديدرو والمبار وحفيد رامو وذاك القديري لفهم تأثير ديدرو الضخم على المادية^(٥) .

ونلاحظ تأخر المادية في النصف الاول من القرن التاسع عشر بسبب الحوادث التاريخية . فبورجوازية جميع البلدان قامت بدعاية كبرى لمصلحة المثالية والدين ، لانها ليس فقط لم تعد تريد انتشار الافكار التقدمية (المادية) ، بل صارت بحاجة ايضا لتنويم المفكرين والجهال حتى تبقى في السلطة .

وفي اثناء ذلك نرى في المانيا ان فيورباخ يؤكد وسط جميع الفلاسفة المثاليين قناعاته المادية : معلنا من جديد وبكل صراحة ، انتصار المادية^(٥) .

٤ - Voir dans la collection « des classiques du peuple » aux Editions Sociales les textes publiés de Diderot (6 vol.), D'holbach Helvetius, La Mettrie et Morelly et dans une certaine mesure ceux de Rousseau et de Voltaire.

٥ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ١٧

واذ يطور فيورباخ نقد الدين بصورة رئيسية ، يستعيد بشكل سليم ومعاصر اسس المادية المنسية ، فيؤثر هكذا في فلاسفة عصره .

ونصل الى هذه الحقبة من القرن التاسع عشر حيث نلاحظ التقدم في العلوم ينجم بشكل خاص عن الاكتشافات الكبيرة الثلاثة : الخلية الحية ، تحول الطاقة ، التطور (داروين) ، هذه الاكتشافات التي ستتيح لماركس وأنجلس ، المتأثرين بفيورباخ ان يطورا المادية ليعطيانا المادية الحديثة او الديالكتيكية .

رأينا للتو ، وبشكل مختصر تماما ، تاريخ المادية قبل ماركس وأنجلس . ونعرف ان هذين ، وان اتفقا مع الماديين الذين سبقوهم في عدة نقاط مشتركة ، الا انهم يريان ان اعمال هؤلاء انما تنطوي ، على العكس من ذلك ، على اخطاء وثغرات عديدة .

ولفهم التحولات التي أحدثها في مادية ما قبل الماركسية ، أصبح ضروريا بصورة مطلقة اذن ان نبحث عن هذه الاخطاء والثغرات ، ولماذا كان الامر كذلك .

...

بكلام آخر نقول ان دراستنا لتاريخ المادية ، بعد ان عددنا مختلف المفكرين الذين ساعدوا على تقدمها ، سيكون ناقصا اذا لم نحاول معرفة كيف حدث هذا التطور ومعنى هذا الحدوث ولماذا خضعت المادية لهذا الشكل من التطور او ذاك .

ونهتم بصورة خاصة بمادية القرن الثامن عشر ، لانها نقطة الوصول لمختلف التيارات في هذه الفلسفة .

سندرس اذن اخطاء هذه المادية وثغراتها ، ولكن ، بما انه يجب ان لا ترى الاشياء بشكل احادي الجانب ، بل على العكس يجب ان نراها بمجملها ، فاننا سنشير ايضا الى ما ملكت من حسنات .

لم نستطيع المادية الديالكتيكية في بدايتها ، اكمال تطورها على هذه

الاسس ، فقد اهتمل التحليل الديالكتيكي بسبب عدم كفاية المعارف العلمية وكان من الواجب اولا خلق العلوم وتطويرها .

« يجب اولا معرفة ما هو هذا الشيء المعني او ذاك ، قبل التمكن من دراسة السيرورات »^(١) .

فالوحدة الوثيقة بين المادية والعلوم هي التي ستتيح لهذه الفلسفة ان تصبح من جديد وعلى اسس اكثر صلابة وعلمية ، المادية الديالكتيكية مادية ماركس وانجلس .

سنجد اذن عملية ولادة المادية جنباً الى جنب مع عملية ولادة العلم . لكن ، اذا كنا نعرف من اين تتأتى المادية دائماً ، فان علينا ايضا ان نحدد من اين تأتي المثالية .

٣ - مم تتأتى المثالية :

لئن استطاعت المثالية ان توجد عبر التاريخ الى جانب الدين ولئن سمح لها الدين بهذا الوجود وصادق عليه ، فلأنها في الحقيقة ولدت من الدين ونجمت عنه . ونجمت عنه .

ولقد كتب لينين ، في هذا الموضوع ، عبارة يجب دراستها : « المثالية ليست سوى صورة مهذبة ومنقاة للدين » ، ماذا يعني هذا ؟ - انه يعني الآتي :

ان المثالية تعرف ان تقدم تصوراتها بصورة اكثر مرونة بكثير من الدين . فالادعاء بان الكون خلق بواسطة روح ترف فوق الظلمات وان الله لا مادي ، ثم الاعلان فجأة ، كما يفعل الدين ، انه يتكلم (بكلمة الله) وان له ولداً (يسوع) ، إن هو إلا مجموعة من الافكار المقدمة بصورة فجأة . فالمثالية وهي تؤكد ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ، وفي ذهننا ، تقدم نفسها بشكل اكثر تحفياً . وفي الواقع ، نحن نعرف ان النتيجة واحدة في الاساس ، اما الشكل فهو اقل فظاظاً واكثر لباقة ! ولذا فان المثالية هي شكل مهذب من اشكال الدين .

٦ - قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٩

المثالية منقاة ايضا لان الفلاسفة يجيدون التنبؤ بالاسئلة في المناقشات ، ويجيدون نصب الافخاخ كما فعل فيلونوس بالمسكين هيلاس في محاورات باركلي .

ولكن القول : ان المثالية تتأتى من الدين هو مجرد تأخير للمشكلة ويجب علينا ان نسأل فوراً :

٤ - مم يتأتى الدين :

ان انجلس قد اعطانا جواباً واضحاً جداً في هذا الموضوع : « ولد الدين من تصورات الانسان المحدودة » .

هذا الجهل مزدوج بالنسبة للناس الاولين : جهل الطبيعة ، وجهل انفسهم . ويجب التركيز على هذا الجهل المزدوج عندما ندرس تاريخ الناس البدائيين .

ففي عصور الاغريق القديمة التي نعتبرها مع ذلك حضارة متقدمة ، يظهر هذا الجهل لنا طفولياً ، وذلك مثلاً عندما نرى ان ارسطو ظن ان الارض ثابتة ، وانها مركز العالم ، وحوها تدور الكواكب (هذه الكواكب التي رأها مثبتة كمسامير في سقف ، عددها ٤٦ ، وهذا الكل هو الذي يدور حول الارض . .)

وقد اعتقد اليونان ايضا بوجود اربعة عناصر : الماء ، الارض ، الهواء ، النار ، وظنوا انه من غير الممكن تجزئتها . نحن نعلم ان كل ذلك خطأ ، مادامنا الآن نجزيء الماء والارض والهواء ، ولا نعتبر النار جسماً من الرتبة نفسها .

وكان اليونانيون ايضا في جهل كبير عن الانسان نفسه ، ماداموا لا يعرفون وظيفة اعضائنا ، ويعتبرون مثلاً ان القلب هو مقر الشجاعة !

فاذا كان جهل علماء اليونان كبيراً الى هذا الحد ، هؤلاء الذين نعتبرهم متقدمين ، فماذا يكون جهل الناس الذين عاشوا آلاف السنين قبلهم ؟

ان التصورات التي امتلكها الناس البدائيون عن الطبيعة وعن انفسهم كان يحدها الجهل ، لكن هؤلاء الناس حاولوا رغم كل شيء ان يفسروا الاشياء .

٥ - حسنات المادية الما قبل الماركسية :

رأينا ولادة المادية عند اليونان منذ وجدت العلوم بشكل جنيني . ووفقا لهذا المبدأ : تتطور المادية عندما يتطور العلم ونلاحظ عبر التاريخ ما يلي :

١ - في العصور الوسطى ، تطور ضعيف للعلوم ، توقف للمادية .
٢ - في القرنين السابع عشر والثامن عشر تطور كبير للعلوم يقابله تطور كبير للمادية . فالمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر هي النتيجة المباشرة لتطور العلوم .

٣ - في القرن التاسع عشر ، نشهد اكتشافات كبيرة وعديدة ، والمادية تخضع لتحول كبير مع ماركس وانجلس .

٤ - في الوقت الحاضر ، تتقدم العلوم بصورة كبيرة وفي الوقت نفسه تتقدم المادية . ونرى افضل العلماء يطبقون في اشغالهم المادية الديالكتيكية .

فالمثالية والمادية لهما اذن اصول متعارضة تماما . ونلاحظ عبر القرون صراعا بين هاتين الفلسفتين ، صراعا لا يزال مستمرا حتى ايامنا هذه ، صراعا اكاديميا فقط .

هذا الصراع ، الذي يخترق تاريخ الانسانية ، هو الصراع بين العلم والجهل ، هو الصراع بين تيارين . احدهما يجذب الانسانية نحو الجهل ويشبها فيه والاخر على عكسه ، يطمح الى تحرير الناس محلا العلم محل الجهل .

وقد ارتدى هذا الصراع في بعض الاحيان اشكالا خطيرة ، كما هو الحال في زمن « محاكم التفتيش » حيث نستطيع ان نأخذ مثالا ، بين امثلة اخرى ، غاليلي . لقد اكد غاليلي ان الارض تدور . وهذه معرفة جديدة تناقض التوراة وتناقض ارسطو : فاذا كانت الارض تدور فمعنى ذلك انها ليست مركز العالم ، بل هي ببساطة نقطة في العالم ، وعندئذ علينا ان نوسع حدود افكارنا . ما العمل اذن امام هذا الاكتشاف لغاليلي .

لابقاء البشرية في الجهل اسسوا محكمة دينية وحكم على غاليلي بتقديم جزاء

كل ما نملك من وثائق عن الناس البدائيين يشير الى انشغالهم بالاحلام ، وقد رأينا في الفصل الاول كيف حلوا مسألة الاحلام هذه باعتقادهم بالوجود « المزدوج » للانسان وفي البدء اصفوا على هذا المزدوج نوعا من الجسد الشفاف الخفيف ، ذي كثافة مادية ايضا ، ولم يتولد في اذهانهم الا بعد ذلك بزمان طويل التصور بأن الانسان يملك مبدأ لا ماديا يحيا بعد الموت ، مبدأ روحيا (كلمة مشتقة من كلمة روح ، التي تعني النفخة في اللاتيني ، النفخة التي تذهب مع آخر نفس ، في اللحظة التي تستعاد في النفس ، وحيث « المزدوج » وحده مستمر) وهكذا فالنفس ، هي التي تشرح الفكر ، والحلم .

وفي القرون الوسطى كانت لديهم تصورات غريبة عن النفس ، ظن ان في الجسم السمين نفس رقيقة ، وفي الجسم النحيل نفس كبيرة ، لذلك كان النساك يقومون بصيامات متعددة وطويلة في تلك الحقبة حتى يملكوا نفسا كبيرة ، ويحققوا مسكنا كبيرا للنفس .

وبما ان الناس البدائيين سلموا ببقاء الانسان بعد الموت بصورة المزدوج الشفاف ، ثم بصورة النفس كمبدأ روحي ، فقد خلقوا الالهة .

وباعتقادهم بوجود كائنات اكثر قدرة من الناس ، موجودة على شكل ما يزال ماديا ، توصلوا لا شعوريا الى الاعتقاد بالهة متعددة موجودة على شكل نفس ارقى من نفسنا . وهكذا ، وبعد ان خلقوا حشدا من الالهة لكل منها وظيفة محددة ، كما هو الشأن في عصور الاغريق القديمة ، توصلوا الى هذا التصور للاله الواحد . وعندها خلق الدين الموحد الحالي . نرى ، بذلك ، ان الجهل كان في اصل الدين ، حتى في شكله الحالي .

لقد ولدت المثالية اذن من تصورات الانسان المحدودة ومن جهله ، بينما ولدت المادية ، على العكس ، من تراجع هذه الحدود .

وسنشهد ، عبر تاريخ الفلسفة ، هذا الصراع المتواصل بين المثالية والمادية ، فهذه تعمل على تراجع حدود الجهل ، وسيكون ذلك احد امجادها واحدى حسناتها ؛ وعلى العكس من ذلك ، فالمثالية - والدين الذي يغذيها ، يبذلان كل جهودهما لحفظ الجهل والاستفادة من جهل الجماهير لجعلها تقبل القمع والاستغلال الاقتصادي والاجتماعي .

مشرف^(٧) . ذاك مثل من الصراع بين الجهل والعلم .

علينا اذن ان نحكم على الفلاسفة والعلماء في هذه الحقبة في ضوء موقعهم من صراع الجهل هذا ضد العلم ، ونستنتج انهم بدفاعهم عن العلم دافعوا عن المادية دون ان يدروا هم انفسهم ذلك . هكذا اعطى ديكارت بتعليلاته افكارا استطاعت ان تعمل على تقديم المادية .

يجب ان نلاحظ ان هذا الصراع لم يكن صراعا نظريا بسيطا عبر التاريخ . بل كان صراعا اجتماعيا وسياسيا . فالطبقات المسيطرة هي دائما بجانب الجهل في هذه المعركة . فالعلم هو ثوري ويساهم في تحرر الانسانية .

وحالة البورجوازية هي حالة نموذجية . ففي القرن الثامن عشر كانت البورجوازية خاضعة للاقطاع ، كانت في ذلك الوقت مع العلوم ، فقادت الصراع ضد الجهل واعطتنا الموسوعة^(٨) . والبورجوازية هي الطبقة المسيطرة في القرن العشرين ، وهي مع الجهل في هذا الصراع بين العلم والجهل وبوحشية اكبر من السابق (انظروا هتلرية) .

نحن نرى اذن ان المادية الماقبل الماركسية قد لعبت دورا كبيرا ، وكان لهذا الدور اهمية تاريخية كبيرة . وخلال هذا الصراع بين الجهل والعلم تطور تصور عام للعالم استطاع مواجهة الدين اي مواجهة الجهل . وبفضل تطور المادية ايضا وتتابع اعمالها ، تحققت الشروط الضرورية لتفتح المادية الديالكتيكية .

٦ - عيوب المادية الماقبل الماركسية :

لفهم تطور المادية ، ولرؤية عيوبها وثغراتها جيدا ، يجب ان لا ننسى لحظة واحدة ان المادية والعلم مرتبطان .

كانت المادية في البداية متقدمة على العلوم ، ولذلك لم تستطيع هذه الفلسفة

تأكيد ذاتها دفعة واحدة . كان يجب ان تولد العلوم وتتطور للبرهان على ان المادية الديالكتيكية هي على حق ، ولكن ذلك تطلب اكثر من عشرين قرنا .

طوال هذه المرحلة الطويلة خضعت المادية لتأثير العلوم وبصورة خاصة لتأثير روح العلوم ، ولتأثير العلوم الجزئية الاكثر تطورا .

لذلك ، « فان مادية القرن المنصرم (اي القرن الثامن عشر) كانت قبل كل شيء مادية ميكانيكية ، لان الميكانيك ، ولا سيما علم الميكانيك المتعلق بالاجسام الصلبة (الارضية والساوية) ميكانيك الجاذبية باختصار ، كان العلم الوحيد الذي وصل في ذلك الوقت ، من بين جميع العلوم الطبيعية ، الى بعض درجات الكمال . فالكيمياء ، كانت ما تزال في شكلها الطفولي الفلوجسطي^(٩) . والبيولوجيا كانت ما تزال في القمط : العضوية النباتية والحيوانية لم تدرس الا في خطوطها الكبرى ، ولم تعلق الا باسباب ميكانيكية بحتة . والانسان ، برأي مادبي القرن الثامن عشر ، كان عبارة عن آلة ، كما كان الحيوان بنظر ديكارت »^(١٠) .

هكذا كانت اذن المادية المنبثقة من تطور العلوم الطويل والبطيء بعد حقبة « شتوية للعصور الوسطى المسيحية » .

كان الخطأ الكبير في هذه الحقبة اعتبار العالم بمثابة آلة كبيرة ، والحكم على كل شيء في ضوء قوانين هذا العلم الذي نسميه الميكانيك . فباختبار الحركة مجرد حركة ميكانيكية كان يعتبر ان نفس الحركات يجب ان تعاد بصورة متواصلة . كأن يرى الجانب الميكانيكي للاشياء دون الجانب الحي . لذا نسمي هذه المادية « ميكانيكية » .

لنأخذ مثلا على ذلك : كيف يشرح هؤلاء الماديون الفكر ؟ انهم يشرحونه كالآتي : « الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء » ! هذا امر تبسيطي نوعا

٩ - نظرية الفلوجسطين : هي نظرية مزيفة انتشرت في الكيمياء في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، واعتبرت ان الاحتراق يحدث بسبب وجود مادة خاصة في الاجسام هي الفلوجسطين . (المترجمة)

١٠ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ - ص ٢٦

٧ - حول محاكمة غاليلي راجع . Laberrenne : l'origine des mondes (E.F.R.)

٨ - Voir pages choisies de l'encyclopedie - Les classiques du peuple - Editions Sociales.

ما ! ان مادية ماركس تغطي على العكس ، سلسلة من التوضيحات . افكارنا لا تتأني فقط من الدماغ . علينا ان نرى لماذا نملك بعض الافكار وبعض القيم وليس غيرها ، فنرى عندئذ ان المجتمع والبيئة . . تختار افكارنا . المادية الميكانيكية تعتبر الفكر مجرد ظاهرة ميكانيكية ، والحال انها اكثر من ذلك بكثير ! .

« فتطبيق اصول الميكانيك بهذا الشكل الحصري على الظواهر التي هي من طبيعة كسبائية وعضوية ، حيث لا تزال قوانين الميكانيك تؤثر ، وحيث ابعدها الى الصف الاخير قوانين اخرى ارفع ، هذا التطبيق انما يشكل نظرة ضيقة ، ولكن لا مفر منها في ذلك الوقت ، خاصة بالمادية الكلاسيكية الفرنسية »^(١١) .

هذا هو خطأ المادية الكبير في القرن الثامن عشر . نتج عن هذا الخطأ ان المادية كانت تجهل التاريخ بصورة عامة ، اي تجهل وجهة نظر التطور التاريخي للعملية : هذه المادية اعتبرت ان العالم لا يتطور وانه يعود في فترات منتظمة الى حالات مشابهة : ولم تتصور قط تطورا للانسان او للحيوانات

« اما النظرة الضيقة الخاصة الثانية لهذه المادية ، فتقوم في عجزها عن فهم العالم بوصفه حركة تطور ، بوصفه مادة تتطور تطورا تاريخيا متواصلا . وهذا ما كان يتفق ووضع العلوم الطبيعية في ذلك الوقت ، وطريقة التفكير الفلسفي الميتافيزيقية^(١٢) ، أي المنافية للديالكتيك المرتبط بهذا الوضع .

ان الطبيعية في حركة دائمة : كان هذا معروفا في ذلك الحين ايضا . ولكن هذه الحركة ، حسب المفهوم المنتشر في ذلك العصر ، كانت تدور دائما ايضا في حلقة واحدة ، وعلى هذه الصورة ، بقيت من حيث الاساس ، في مكان واحد . انها ادت دائما الى النتائج نفسها »^(١٣) .

- هو الخطأ الثاني للمادية الماقبل الماركسية .

الخطأ الثالث انها كانت تأملية جدا ، فلم تر بصورة كافية دور الفعل الانساني في العالم وفي المجتمع . مادية ماركس وانجلس تعلمنا انه ليس علينا تفسير العالم فقط بل تحويله . فالانسان هو عنصر فاعل يستطيع أن يحقق تغييرات في العالم .

ان عمل الشيوعيين الروس هو مثل حي لفعل قادر ليس فقط على تحضير الثورة وانجاحها ، بل وعلى اقامة الاشتراكية منذ ١٩١٨ وسط صعوبات هائلة .

هذا التصور لفعل الانسان لم تكن تعيه مادية ما قبل الماركسية . كان يظن في ذلك العصر ان الانسان هو نتاج الوسط (الاجتماعي) . بينما يعلمنا ماركس ان الوسط هو نتاج الانسان ، وان الانسان هو اذن نتاج نشاطه الخاص في بعض الظروف المعطاة بدءا . فهو وان خضع لتأثير الوسط ، يستطيع ان يغير الوسط والمجتمع ، وبالتالي ان يغير نفسه ايضا .

لقد كانت مادية القرن الثامن عشر اذن تأملية جدا ، لانها كانت تجهل التطور التاريخي لكل شيء ، وهذا كان لا مفر منه لان المعارف العلمية لم تكن متقدمة بما يكفي لتصور العالم والاشياء بصورة مختلفة عن المنهج القديم في التفكير : الميتافيزيقيا .

للقرءاءة

- ماركس وانجلس : « العائلة المقدسة »
- ماركس : اطروحات حول فيورباخ .
- ليخانوف : بحوث في تاريخ المادية (هولباخ - هلفيتيوس - ماركس)

- ١١ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٢٦
- ١٢ - ميتافيزيقية : سنبدا دراسة المنهج الميتافيزيقي في القسم التالي .
- ١٣ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٢٦ - ٢٧

القسم الثالث

دراسة الميتافيزيقيا

فصل وحيد

بم يتقوم المنهج الميتافيزيقي ؟

- ١ - سمات هذا المنهج
 - أ - السمة الاولى : مبدأ الهوية .
 - ب - السمة الثانية : عزل الاشياء
 - ج - السمة الثالثة : تقسيمات ابدية لا تُعبر
 - د - السمة الرابعة : تقابل الاضداد .
- ٢ - ايضاح .
- ٣ - التصور الميتافيزيقي للطبيعة .
- ٤ - التصور الميتافيزيقي للمجتمع .
- ٥ - التصور الميتافيزيقي للفكر .
- ٦ - ما المنطق ؟
- ٧ - شرح كلمة « ميتافيزيقي » .

نحن نعلم ان اخطاء ماديي القرن الثامن عشر تنأت من شكل محاكماتهم ، ومن منهجهم الخاص في البحث والذي سميناه « المنهج الميتافيزيقي » . فالمنهج الميتافيزيقي يعبر اذن عن تصور خاص للعالم ، وعلينا الملاحظة انه اذ نقابل المادية الماقبل الماركسية بالمادية الماركسية ، علينا ان نقابل المادية الميتافيزيقيّة بالمادية الديالكتيكية .

لذلك علينا الان ان نتعلم ما هو هذا المنهج الميتافيزيقي ، لنفحص فيما بعد ما هو عكس ذلك اي المنهج الديالكتيكي .

١ - سمات هذا المنهج :

ان ما سندرسه الان هو هذا « المنهج القديم في البحث والتفكير التي يسميها

لنبدأ على الفور بملاحظة بسيطة . ما الذي يترأى اكثر طبيعية لأكثر الناس : الحركة ام الجمود؟ ما الحالة العادية للأشياء بالنسبة لهم : التحرك ام السكون .

بصورة عامة يُظنّ ان السكون وُجد قبل الحركة ، وان شيئا ما قد كان قبلا في حالة سكون ، حتى استطاع ان يتحرك .

التوراة ايضا تخبرنا انه قبل الكون ، الذي خلقه الله ، وجدت الابدية الجامدة ، اي السكون .

هاكم كلمات نستعملها غالبا : سكون ، جمود ، وكذلك ، حركة وتغير . لكن الكلمتين الاخيرتين ليستا مترادفتين .

فالحركة بالمعنى الدقيق للكلمة هي النقلة . مثلا ان حجرا يقع وقطارا يسير هما في حركة .

التغير بالمعنى الحقيقي للكلمة : هو العبور من شكل الى آخر . مثلا : الشجرة التي تفقد اوراقها ، قد غيرت شكلها . كذلك هو العبور من حالة الى اخرى . مثلا : الهواء اصبح غير صالح للتنفس : هذا تغير .

اذن الحركة تعني تغير المكان ، والتغير يعني تغير الشكل او الحالة . سنحاول احترام هذا التمييز لتجنب الالتباس (عندما سندرس الديالكتيك سنضطر لاعادة النظر في دلالة هذه الكلمات) .

لقد رأينا انه يظن بصورة عامة ، ان الحركة والتغير هما امران عاديان بدرجة اقل من السكون ، ومن المؤكد اننا نفضل اعتبار الاشياء ساكنة وبدون تغير .

مثلا : اشترينا زوجا من الاحذية الصفراء ، وبعد وقت معين ، وبعد اصلاحات متعددة (استبدال النعل ، الكعب ، الصاق قطع عديدة) نقول ايضا : « اريد ان احتذى حذائي الاصفر » ، بدون ان نأخذ في حسابنا انها ليست نفسها . بالنسبة لنا الحذاء هو دائما نفسه الحذاء الاصفر الذي اشتريناه

في تلك المناسبة ودفعنا فيه ذاك الثمن . نحن لا نلاحظ ابدا التغير الذي طرأ على حداثنا ، هو ابدا نفسه ، هو هو . نهمل التغير ولا نرى الا الهوية كأن شيئا مهما لم يحصل البتة . وهذه هي :

أ - السمة الاولى للمذهب الميتافيزيقي ، مبدأ الهوية

يقوم على تفضيل الجمود على الحركة والهوية على التغير في مواجهة الاحداث .

من هذا التفضيل الذي يكون السمة الاولى لهذا المنهج ، ينتج تصور كامل للعالم . فيعتبر الكون كما لو كان متحجرا كما يقول انجلس . ويحصل الشيء نفسه بالنسبة للطبيعة والمجتمع والانسان . وهكذا يزعم غالبا : « لا جديد تحت الشمس » . هذا يعني انه لا يوجد اي تغير منذ الازل ، الكون جامد وباق هو هو ، ويفهم بذلك ايضا رجوع دوري لنفس الاحداث . لقد خلق الله العالم بابداعه للأسماك والعصافير والثدييات الخ . . . ومنذ ذلك الحين لم يتغير شيء ، لم يتحرك العالم . يقال ايضا « الناس هم دائما انفسهم » وكأن الناس لم يتغيروا منذ الازل .

هذه التعابير العادية هي انعكاس لهذا التصور الذي تجذر فينا بعمق ، في ذهننا وتستغل البورجوازية هذا الخطأ حتى النهاية .

عندما تنتقد الاشتراكية ، فان اخدى الحجج التي تعطى بداهة هي ان الانسان اناني ومن الضروري تدخل قوة معينة لضبطه والا عمت الفوضى . هذه نتيجة للتصور الميتافيزيقي الذي يريد ان يملك الانسان طبيعة ثابتة لا يمكن ان تتغير .

من المؤكد انه لو كان بإمكاننا ان نعيش فجأة في نظام شيوعي ، اي انه لو كان بإمكاننا توزيع المنتجات فوراً لكل حسب حاجاته ، وليس حسب عمله ، فسيكون هناك تدافع لاشباع النزوات ، ومجتمع كهذا لن يستطيع ان يصمد . ومع ذلك فهذا هو المجتمع الشيوعي وهذا هو ما هو عقلاني . ولكن ، ولأننا نملك تصورا ميتافيزيقيا متجذرا فينا ، تمثل الانسان المستقبلي الذي سيعيش في مستقبل بعيد نسبيا كأنه هو هو إنسان اليوم .

وبالتالي فعندما تؤكد ان مجتمعا اشتراكيا او شيوعيا غير قابل للحياة لان الانسان اناني ، ننسى انه اذا تغير المجتمع ، سيتغير الانسان ايضا .

نسمع كل يوم انتقادات للاتحاد السوفياتي ، تبين لنا مصاعب الفهم عند اولئك الذين يصوغونها . هذا لانهم يملكون تصورا ميتافيزيقيا للعالم والاشياء .

وبين امثلة عديدة نستطيع ايرادها لتأخذ هذا المثل فقط : يقال لنا : « ان الشغل في الاتحاد السوفياتي يقبض راتبا لا يساوي القيمة الكلية لما ينتج ، اذن هناك فائض قيمة ما ، اي اقتطاع ما من راتبه . اذن هو مسروق . في فرنسا العمال مستغلون ايضا ، ليس من فرق اذن بين شغل سوفياتي وشغل فرنسي » .

اين التصور الميتافيزيقي ، في هذا المثل ؟ انه يقوم في عدم اعتبار ان لدينا هنا نموذجين من المجتمعات ، وفي عدم اخذ الفروقات بين هذين المجتمعين في الحسبان . والاعتقاد انه في الوقت الذي يوجد فيه فائض قيمة هنا وهناك يعني ان الامور متماثلة بدون اعتبار للتبدلات الحاصلة في الاتحاد السوفياتي حيث الانسان والآلة لم يعد لهما نفس الدلالة الاقتصادية والاجتماعية كما في فرنسا . والحال ان الآلة في فرنسا توجد لتنتج في خدمة رب العمل والانسان وجد ليكون مستغلا . وفي الاتحاد السوفياتي وجدت الآلة لتنتج في خدمة الانسان والانسان ليستمتع بشمرة عمله . فائض القيمة في فرنسا يذهب الى رب العمل ، في الاتحاد السوفياتي يذهب الى الدولة الاشتراكية اي للجماة الخالية من المستغلين . وهكذا تغيرت الاشياء .

نرى اذن بعد هذا المثل ان الاخطاء في الرأي تنأتى عند المخلصين من نهج ميتافيزيقي في التفكير ، وبصورة خاصة من السمة الاولى لهذا النهج وهي سمة اساسية تقوم على عدم اعطاء التغير حقه في التقدير وتفضيل الجمود ، وبكلمة واحدة سمة تميل الى تأبيد الهوية فيما وراء التغير .

ولكن ما هي هذه الهوية ؟ شاهدنا مثلا بناء بيت انتهى في اول كانون الثاني ١٩٣٥ . وفي اول كانون الثاني ١٩٣٦ ، وفي كل السنوات التالية سنقول انه

لا يزال هو هو ، لانه لا يزال ذا طابقين ، وعشرين نافذة ، وبابين على الواجهة الخ . . لانه يبقى دائما هو نفسه ، لا يتغير ولا يختلف ابدا . اذن ان يكون هو هو هذا يعني ان يبقى ذاته ، وان لا يصير بيتا آخر . ومع ذلك فقد تغير هذا البيت ! وبمنظرة اولية فقط ، بمنظرة سطحية ، نرى ان البيت قد بقي هو نفسه . اما المهندس ، او البناء الذي يرى الاشياء عن قرب ، فانها يدرك ان البيت لم يعد هو نفسه منذ الاسبوع الاول لبنائه . هنا حدث شق صغير ، وهنا حاد حجر ، وهناك ذهب اللون . الخ . . اذن عندما نلاحظ الاشياء « بالاجمال » فقط ، تظهر هي هي . وفي التحليل والتفصيل تتغير دون توقف .

لكن ما هي النتائج العملية للسمة الاولى للمنهج الميتافيزيقي ؟

بما اننا نفضل رؤية الهوية في الاشياء ، اي رؤيتها باقية هي نفسها ، نقول مثلا : « الحياة هي الحياة ، والموت هو الموت » فنؤكد ان الحياة تبقى هي الحياة ، والموت يبقى نفسه هو الموت ، وهذا كل شيء .

ونحن بما اننا معتادون على اعتبار الاشياء في هويتها ، نفصلها عن بعضها . القول « ان الكرسي هو الكرسي » هو ملاحظة طبيعية ولكنه تركيز على الهوية ؛ وهذا يعني في الوقت نفسه : ان ما هو غير كرسي هو شيء آخر . فمن الطبيعي جدا ان نقول هذا لدرجة ان التركيز عليه يبدو طفوليا . وفي نفس الترتيب للافكار سنقول : « الحصان هو الحصان ، وما ليس الحصان هو شيء آخر » . نفصل جيدا اذن من جهة الكرسي ، ومن جهة اخرى الحصان ، ونفعل هكذا في كل شيء . نميز اذن فاصلين بصرامة الاشياء بعضها عن بعض ونصل هكذا الى تحويل العالم الى مجموعة من الاشياء المنفصلة وهذه هي :

ب - السمة الثانية للمنهج الميتافيزيقي . عزل الاشياء

ما اتينا على ذكره يظهر طبيعيا بشكل يمكن ان نتساءل معه لماذا نقول هذا ؟ سنرى انه بالرغم من كل شيء . كان ذلك ضروريا ، لان هذه الطريقة في التعليل ستقودنا الى رؤية الاشياء من زاوية معينة .

وسنحكم ايضا على السمة الثانية لهذا المنهج في نتائجه العملية .

في الحياة العادية ، اذا لاحظنا الحيوانات وعزلنا الكائنات عندما نعلل

بصددها ، لا نعود نرى ابدا ما هو مشترك بين الكائنات من اجناس مختلفة
وانواع مختلفة . حصان هو حصان وبقرة هي بقرة ، ولا صلة بينهما البتة .

هذه وجهة نظر علم الحيوان القديم الذى يصنف الحيوانات بعزلها عن بعضها
بطريقة واضحة ولا يرى بينها اية صلة . ومنى احدى نتائج تطبيق المنهج
المتافيزيقي .

وكمثل آخر نستطيع ايراد هذه الواقعة : ان البورجوازية تريد من العلم ان
يكون هو العلم ، ومن الفلسفة ان تبقى هي نفسها ، وكذلك السياسة ؛
وبطبيعة الحال لا شيء مشترك ولا صلة اطلاقاً بين الثلاثة .

والنتائج العملية لهذا التعليل هي ان عالما ما يجب ان يبقى عالما ، وليس له ان
يقرن علمه بالفلسفة او بالسياسة . الشيء نفسه يكون بالنسبة للفيلسوف
وللإنسان في حزب سياسي .

عندما يعلل انسان حسن النية هكذا نستطيع القول انه يعلل كميّافيزيقي .
لقد ذهب الكاتب الانكليزي ويلس الى الاتحاد السوفياتي منذ عدة سنوات ،
وزار الكاتب الكبير المتوفي حاليا ، مكسيم غوركي . وعرض عليه انشاء ناد
ادبي لا يتعاطى السياسة ، لان في ذهنه : ان الادب هو الادب ، والسياسة هي
السياسة . ويظهر ان غوركي واصدقائه ضحكوا منه وهذا ما اغاظه ، ذلك ان
ويلس يرى ويتصور الكاتب يعيش خارج المجتمع ، في حين ان غوركي
واصدقائه يعرفون ان لا شيء هكذا في الحياة ، حيث جميع الاشياء مرتبطة
حقيقة - شئنا ذلك ام ابينا .

في الممارسة العادية ، نحن نرغم انفسنا على التصنيف ، على عزل الاشياء ،
على رؤيتها ودراستها في ذاتها . والذين ليسوا ماركسيين ينظرون الى الدولة
عامة بعزلها عن المجتمع ، بكونها مستقلة عن شكل هذا المجتمع . ان التعليل
على هذه الصورة ، وعزل الدولة عن المجتمع ، يعني عزلها عن علاقتها
بالواقع .

الخطأ نفسه سيكون عندما نتكلم عن الانسان بفصله عن الناس الآخرين ،
عن وسطه ، عن المجتمع . فاذا لاحظنا ايضا الآلة بنفسها ، معزولة عن

المجتمع الذي تنتج فيه ، سترتكب هذا الخطأ في التفكير : « الآلة في باريس ،
الآلة في موسكو ، فائض قيمة هنا وهناك ، لا فرق ، الشيء نفسه بصورة
مطلقة » .

ومع ذلك فان هذا التعليل نقراه بصورة متواسية ، والذين يقرأونه ،
يقبلونه . لان وجهة النظر العامة والمألوفة هي تقسيم الاشياء وعزلها . وهذه
عادة مميزة للمنهج الميتافيزيقي .

ج - السمة الثالثة : تقسيمات ابدية لا تُعبر

بعد ان اعتبرنا الاشياء جامدة وغير متغيرة ، صنفناها ، وبوبناها خالقين بينها
تقسيمات تنسبنا العلاقات التي يمكن ان تكون بينها .

هذا الشكل من النظر وابداء الحكم يجرنا الى الاعتقاد ان هذه التقسيمات
موجودة مرة الى الابد (الحصان هو حصان) وانها مطلقة وابدية ومتعذرة
العبور . هذه هي السمة الثالثة للمنهج الميتافيزيقي .

ولكن علينا الانتباه عندما نتكلم على هذا المنهج ؛ لانه عندما نقول نحن
الماركسيين ، ان هناك طبقتين في المجتمع الرأسمالي : البورجوازية والبروليتاريا ،
فنحن نصنع تقسيما يمكن ان يظهر قريبا من وجهة النظر الميتافيزيقية . لكن ليس
بمجرد ادخال التقسيمات فقط نكون ميتافيزيقيين . وإنما في الطريقة ، في
الشكل الذي نقيم به هذه الفروقات والعلاقات الموجودة بين هذه التقسيمات .

فعندما نقول ان في المجتمع طبقتين ، تظن البورجوازية فوراً ان هناك اغنياء
وفقراء وستقول لنا بالطبع : « كان هناك دائما اغنياء وفقراء » .

« كان هناك دائما ، وسيكون هناك دائما » . ذاك الشكل ميتافيزيقي في
التعليل . نصنف نهائيا الاشياء المستقلة بعضها عن بعضها الاخر ونقيم بينها
حواجز واسوارا متعذرة العبور .

يقسم المجتمع الى اغنياء وفقراء بدل ان يشار الى وجود البورجوازية
والبروليتاريا : وحتى اذا قبلنا هذا التقسيم الاخير ، فسيعتبران خارج
علاقاتها المتبادلة اي خارج صراع الطبقات .

ما هي النتائج العملية لهذه السمة الثالثة التي تقيم الحواجز بين الأشياء بصورة نهائية ؟ هذا يعني انه ليس بين الحصان والبقرة صلة قرابة . الشيء نفسه بالنسبة لجميع العلوم ، ولكل ما يحيط بنا . وسنرى فيما بعد ما اذا كان ذلك صوابا . لكن يبقى علينا ان نتفحص نتائج هذه السمات الثلاث التي تكلمنا عنها وهذا سيكون :

د - السمة الرابعة : تعارض الاضداد .

ينتج عن كل ما رأيناه انه عندما نقول : « الحياة هي الحياة » و « الموت هو الموت » نؤكد ان لاشيء مشترك بين الموت والحياة . نصنفهما كلا على حدة فننظر الى كل من الحياة والموت بحد ذاته ، بدون ان نرى الى العلاقات التي يمكن ان توجد بينهما . في هذه الشروط انسان مات للتو ، يجب اعتباره كشيء ميت ، لانه من المستحيل ان يكون حيا وميتا في الوقت نفسه ، لان الحياة والموت ينفي احدهما الآخر بصورة متبادلة .

وباعتبار الاشياء منعزلة ومختلفة بصورة نهائية بعضها عن البعض الآخر ، فاننا سنصل الى تعارضها واحدة مع الاخرى .

ها نحن في السمة الرابعة للمنهج الميتافيزيقي التي يعارض الاضداد واحداها بالآخر وتؤكد ان شيئين ضدين لا يمكنهما الوجود في الوقت نفسه .

في هذا المثل عن الموت والحياة ، لا يمكن بالفعل ان يوجد احتمال ثالث . علينا ان نختار بصورة مطلقة الواحدة او الاخرى من الاحتمالات التي ميزناها . ونعتبر ان احتمالا ثالثا سيكون تناقضا وان هذا التناقض هو خُلف وبالتالي فهو مستحيل .

السمة الرابعة للمنهج الميتافيزيقي هي اذن الهلع من التناقض .

والنتائج العملية لهذا التعليل ، هي انه عندما نتحدث عن الديمقراطية والديكتاتورية مثلا ، نرى ان وجهة النظر الميتافيزيقية تَطلب ان يختار المجتمع بين الاثنين : لان الديمقراطية هي الديمقراطية والديكتاتورية هي الديكتاتورية . الديمقراطية ليست الديكتاتورية . والديكتاتورية ليست الديمقراطية . علينا الاختيار والا فنحن في مواجهة التناقض والخلف والمستحيل .

الموقف الماركسي مختلف كليا :

نحن نظن ، على العكس من ذلك ، ان ديكتاتورية البروليتاريا مثلا هي ديكتاتورية الجماهير ، وفي الوقت نفسه هي الديمقراطية للجماهير المستغلين .

ونعتقد ان الحياة ، حياة الكائنات الحية ، غير ممكنة بدون الصراع الابدي بين الخلايا والتي يموت بعضها ليحل مكانه بعضها الاخر بصورة متواصلة . وهكذا فالحياة تتضمن في ذاتها موتا . ونحن نعتقد ان الموت ايضا ليس شاملا ومنفصلا عن الحياة كما تظن الميتافيزيقيا ، لان الحياة لم تختف تماما عن جثة ها ، بما ان بعض الخلايا تتابع العيش لبعض الوقت وان حيوات اخرى تتولد من هذه الجثة .

٢ - مختصر مفيد :

نرى اذن ان السمات المختلفة للمنهج الميتافيزيقي ترغمنا على اعتبار الاشياء من زاوية معينة ، وتجبرنا الى التعليل بشكل معين . ونلاحظ ان هذه الطريقة في التحليل تملك « منطقا » معيننا سندرسه فيما بعد ، ونلاحظ ايضا ان ذلك ينطبق كثيرا على شكل للنظر والتفكير والدراسة والتحليل نصادفه عموما .

نبدأ - وهذا التعداد سيتيح لنا الاختصار - ب :

- ١ - رؤية الاشياء في جمودها ، في هويتها .
- ٢ - فصل الاشياء بعضها عن بعض ، وفك ارتباطها بعلاقاتها المتبادلة .
- ٣ - اقامة تقسيمات ابدية بين الاشياء واسوار متعذرة على العبور
- ٤ - معارضة الاضداد بالتأكيد بان شيئين ضدين لا يمكن ان يوجدوا في الوقت نفسه .

رأينا عندما تفحصنا النتائج العملية لكل سمة ان شيئا من ذلك لا ينطبق على الواقع .

هل ينطبق العالم على هذا التصور ؟ هل الاشياء جامدة وبدون تغير في الطبيعة ؟ نحن نلاحظ ان كل شيء يتغير ، ونحن نرى الحركة . اذن هذا

التصور غير متفق مع الاشياء نفسها . وبديهي ان الطبيعة هي على حق ، وان هذا التصور هو الخاطيء .

منذ البدء عرفنا الفلسفة انها تبغي إلى تفسير الكون، والانسان، والطبيعة الخ . . العلوم تدرس المشكلات بالمعنى الخاص ، والفلسفة كما قلنا هي دراسة المشكلات الأكثر عمومية ، تلاقيا مع العلوم وامتدادا لها .

والحال ان طريقة التفكير « الميتافيزيقية » القديمة التي تنطبق على جميع المشكلات هي ايضا تصور فلسفي يعتبر الكون والانسان والطبيعة بشكل خاص جدا

« والاشياء وانعكاساتها في الفكر والمفاهيم ، بالنسبة للميتافيزيقي هي مواضيع دراسية منعزلة يجب ان تؤخذ في الاعتبار واحدة بعد الاخرى ، وواحدة بدون الاخرى ، هي ثابتة ، صلبة ، معطاة مرة الى الابد . لا يفكر الميتافيزيقي الا في متناقضات بدون حد وسط ، يقول نعم ، نعم ، ولا . وما يتعدى ذلك لا يساوي في نظره شيئا . بالنسبة له ، اما ان يوجد الشيء او لا يوجد . ولا يمكن للشيء ان يكون نفسه وغيره في ذات الوقت . الايجابي والسلبي ينفي احدهما الآخر بصورة مطلقة ، السبب والنتيجة يتعارضان تماما ايضا »^٢.

التصور الميتافيزيقي اذن يعتبر « الكون مجموعة من الاشياء المتحركة » ولاسيما هذه الطريقة في التفكير استيعابا جيدا ، سندرس فيما بعد كيف نتصور الطبيعة ، والمجتمع والفكر .

٣ - التصور الميتافيزيقي للطبيعة :

ان الميتافيزيقي تعتبر الطبيعة بمثابة مجموعة من الاشياء ثابتة نهائيا .

ولكن هناك طريقتين لاعتبار الاشياء كذلك .

الطريقة الاولى : تعتبر ان العالم جامد اطلاقا والحركة ليست سوى سراب حسي ، فاذا انتزعنا تراثي الحركة هذا ، فالطبيعة لا تتحرك ابدا .

٢ - فارن انجلس : انتي دوهرينغ ، ص ٢٧

وكانت المدرسة الايلية ، وهي مدرسة للفلاسفة اليونانيين ، تدافع عن هذه النظرية . ان هذا التصور المبسط ، هو في تناقض شديد مع الواقع بحيث لا نجد في ايماننا هذه من يدعمه .

الطريقة الثانية لاعتبار الطبيعة مجموعة من الاشياء الثابتة ، هي اكثر تدقيقا من الاولى ، فلا يقال ان الطبيعة جامدة بل لا بأس ان تتحرك . لكن يؤكد انها تتحرك حركة آلية .

لقد اختفت الطريقة الاولى هنا . ولم تعد تنكر الحركة ، وهذا يبدو كأنه ليس تصورا ميتافيزيقيا . يسمى هذا التصور « ميكانيكيا »

لقد شكل هكذا التصور خطأ غالبا ما يرتكب ، كما نجده عند مادي القرن السابع عشر والثامن عشر . وقد رأينا انهم لا يعتبرون الطبيعة جامدة ، ولكن في حركة . لكن هذه الحركة ، بالنسبة لهم ، هي مجرد تغير آلي ، هي نقلة .

يقبلون كل النظام الشمسي (الارض تدور حول الشمس) لكنهم يظنون ان هذه الحركة هي حركة آلية محضة ، اي مجرد تغيير في المكان ، وينظرون اليها من هذا الجانب فقط .

لكن الاشياء ليست بهذه البساطة . ان تدور الارض ، فهذه حركة آلية طيعا ، لكنها تستطيع وهي تدور ، ان تخضع لتأثيرات ، ان تبرد قليلا على سبيل المثال . فليس هناك اذن نقلة فقط ، بل هناك تغيرات اخرى كذلك .

ان ما يميز هذا التصور ، المسمى ميكانيكيا . هو اذن انه يعتبر الحركة آلية فقط .

فاذا دارت الارض دون انقطاع ، ولم يحصل شيء زيادة على ذلك ، تغير الارض مكانها ، لكنها لا تتغير هي نفسها ، تبقى هي هي نفسها . ولا تفعل سوى ان تواصل دوراتها دائما وابدا قبلنا وبعدها ، وهكذا تسير الامور جميعها كما لو ان شيئا لم يحدث . نحن نرى اذن ان التسليم بالحركة ، إنما مع جعلها حركة ميكانيكية محضة ، هو تصور ميتافيزيقي لان هذه الحركة بدون تاريخ .

مثلا ، ان الساعة ذات الاجهزة الكاملة والمصنوعة من معادن لا تتاكل ، ستسير الى الابد بدون ان تتغير في شيء ، والساعة لن يكون لها تاريخ . هذا التصور للكون نجده عند ديكارت بصورة ثابتة . فهو يحاول ان يحيل الى

الميكانيك جميع القوانين الفيزيائية والفيزيولوجية . ولم تكن لديه اية فكرة عن الكيمياء (انظر تفسيره لدوران الدم) وسيكون تصوره الميكانيكي هذا ، هو تصور مادي القرن الثامن عشر .

(سوف نستثنى ديدرو ، الذي كان اقل ميكانيكية والذي استشف في بعض كتاباته التصور الديالكتيكي) .

فالذي يميز مادي القرن الثامن عشر هو انهم جعلوا من الطبيعة ميكانيكية ساعائية .

ولو كان ذلك صحيحا ، لعادت الاشياء باستمرار الى النقطة نفسها بدون ان تترك اثرا ، ولبقيت الطبيعة هي هي نفسها ، وهذه هي السمة الاولى للمنهج الميتافيزيقي .

٤ - التصور الميتافيزيقي للمجتمع :

التصور الميتافيزيقي يريد ان لا يتغير شيء في المجتمع . ولكنه لا يعرض عادة كما هو . يتم الاعتراف بحدوث التغيرات كما في الانتاج مثلا ، عندما تنتج مواضيع تامة من مواد اولية ، في السياسة ، حيث تتوالى الحكومات بعضها اثر بعض ، يعترف الناس بهذا كله ، لكنهم يعتبرون ان النظام الرأسمالي نظام نهائي وابددي ، ويشبهونه ايضا بالآلة في بعض الاحيان .

وهكذا يتحدثون عن الآلة الاقتصادية التي تعطل في بعض الاحيان ، ولكن يراد اصلاحها للمحافظة عليها . يراد الحفاظ على هذه الآلة لكي تستطيع ، كآلة اوتوماتيكية ، ان توزع للبعض العائدات وللآخرين البؤس .

ويمجري الحديث ايضا عن الآلة السياسية ، التي هي النظام البرلماني البرجوازي ولا يطلب منها سوى شيء واحد : ان تعمل تارة الى اليمين وطورا الى اليسار ، لكي تحفظ للرأسمالية امتيازاتها .

ان اعتبار المجتمع على هذا النحو هو تصور ميكانيكي ، ميتافيزيقي .

فاذا كان بإمكان هذا المجتمع ، الذي تعمل فيه جميع هذه الاجهزة ، ان يتابع

سيره بصورة متصلة ، فلن يترك اثرا ولا عقبا في التاريخ .

ثمة ايضا تصور ميكانيكي هام جدا ، صالح لكل الكون ، وخاصة بالنسبة للمجتمع ، وهو يقوم على فكرة السير المنتظم والرجوع الدوري للاحداث نفسها بصيغة : « التاريخ يعيد نفسه دائما » .

ويجب ان نلاحظ ان هذه التصورات هي شديد الانتشار . فهي لا تنكز فعلا الحركة ولا التبدل ، الذي نلاحظه ونجده في المجتمع ، ولكن تُزور الحركة نفسها بتحويلها الى مجرد ميكانيكية .

٥ - التصور الميتافيزيقي للفكر :

ما هو التصور المعمول به من حولنا ؟

نحن نعتقد ان الفكر الانساني كان ولا يزال سرمديا . ونعتقد انه ، وان تكن الاشياء قد تغيرت ، فان طريقة تفكيرنا هي طريقة الانسان الذي كان يعيش منذ قرن من الزمان ، مشاعرنا نعتبرها كأنها هي مشاعر اليونان نفسها ، نعتبر الطيبة والحب وكأنها وجدا دائما ، وهكذا نتكلم عن « الحب الخالد » . من الطبيعي جدا الاعتقاد ان المشاعر الانسانية لم تتغير ابدا .

هذا ما يدفع الى القول والكتابة ان مجتمعا ما لا يمكن ان يوجد الا على اساس الغنى الفردي والاناني . ولذلك ايضا ترانا غالبا ما نسمع القول : ان « رغبات الانسان هي دائما نفسها » .

نفكر غالبا هكذا . وغالبا ما ندع التصور الميتافيزيقي يدخل في حركة الفكر كما في جميع الاشياء الاخرى . ذلك لان هذا المنهج موجود في اساس تربيتنا .

« هذه الطريقة في التفكير تظهر محتملة جدا لنا للوهلة الاولى ، لانها هي ما ندعوها بالحس المشترك » (٣) .

ينتج عن ذلك ان هذه الطريقة في النظر ، هذه الطريقة في التفكير الميتافيزيقي ليست فقط تصورا للعالم ، لكنها ايضا طريقة في التفكير .

٣ - انجلس انتي دوهرينغ ، ص ٢٨ .

على انه ، اذا كان من السهل ، نسبيا ، التخلص من التعليمات الفلسفية فان من الصعب علينا ، على عكس ذلك ، ان نحلل من منهج التفكير الميتافيزيقي . . وعلينا ان نقوم بتدقيق هذا الموضوع : نسمي الطريقة التي نرى فيها الكون : تصورا ، والطريقة التي نحاول بها التفسير : منهجا .

مثلا : أ - التغيرات التي نراها في المجتمع هي تغيرات ظاهرية فقط ، تجدد ما كان موجودا سابقا . ذاك هو « تصور » .

ب - عندما نبحث في تاريخ المجتمع ، في ما حدث سابقا لنستنتج ان « لا جديد تحت الشمس » ، ذاك هو « المنهج » .

ونلاحظ ان التصور يلهم المنهج ويحدده . ومن البديهي طبعا ان المنهج ما ان يستلهم التصور حتى يعود ليفعل فيه بدوره ، موجها التصور وقائدا له .

رأينا ما هو التصور الميتافيزيقي ، وسنرى الان ما هو منهجه في البحث : انه يسمى المنطق .

٦ - ما المنطق ؟

يقال عن « المنطق » انه فن التفكير الجيد . فالتفكير بصورة مطابقة للحقيقة هو التفكير وفقا لقواعد المنطق .

ما هي القواعد ؟ هناك ثلاث قواعد رئيسية كبيرة هي :

١ - مبدأ الهوية : هذا يعني ، كما رأينا سابقا ، القاعدة التي تريد ان يبقى الشيء هو هو نفسه ولا يتغير (الحصان هو الحصان) .

٢ - مبدأ عدم التناقض : الشيء لا يمكن ان يكون هو نفسه ونقيضه في الوقت نفسه . يجب الاختيار (الحياة لا يمكن ان تكون الحياة والموت) .

٣ - مبدأ الثالث المرفوع - او طرد الحالة الثالثة ، هذا يعني انه بين احتمالين متناقضين لا مكان لثالث . يجب الاختيار بين الموت والحياة ولا وجود لاحتمال ثالث .

اذن ان نكون منطقيين ، يعني ان نفكر جيدا . وان نفكر جيدا يعني ان لا

ننسى تطبيق هذه القواعد الثلاث .

نعرف هنا على المبادئ التي درسناها ، والتي تتأتى من التصور الميتافيزيقي .

المنطق والميتافيزيقيا هما بالنتيجة مرتبطان ارتباطا وثيقا ، المنطق هو اداة ، هو منهج للتعليل يعمل على تصنيف كل شيء بشكل محدد تماما ، ويلزم بالتالي برؤية الاشياء على أنها هي نفسها ، ويضعنا بعد ذلك امام الزامية الخيار والقول : نعم ام لا ؟ وبالنتيجة يطرد ، بين حالتي الموت والحياة مثلا ، الاحتمال الثالث .

فعندما نقول :

« جميع الناس فانون ، هذا الرفيق هو انسان ، اذن هذا الرفيق فان » لدينا ما يسمى بالقياس (هذا هو الشكل النموذجي للتعليل المنطقي) فنحن بتعليلنا هكذا ، حددنا مكان الرفيق ، فحققنا تصنيفا .

نميل ، ذهنيا عندما نصادف انسانا ، او شيئا ما ، نميل الى القول : اين يجب تصنيفه ؟ فذهننا لا يطرح على نفسه الا هذه المشكلة الوحيدة . نرى الاشياء كدوائر ، او كعلب مختلفة الابعاد ، وهما هو ادخال هذه الدوائر او هذه العلب احداها في الاخرى ضمن ترتيب معين .

في مثلنا ، نحدد اولا دائرة كبيرة تحوي كل الفانين ، ثم دائرة اصغر تحوي كل الناس ، ثم بعد ذلك دائرة تحوي فقط هذا الرفيق .

اذا اردنا تصنيفها ، سنقوم بذلك وفقا « لمنطق » معين بادخال الدوائر بعضها في الاخر .

التصور الميتافيزيقي اذن مكون من المنطق والقياس . القياس هو مجموعة من ثلاث جمل ، الاثنان الاوليان تسميان المقدمات ، اي « الموفدة قبلا » ، والثالثة هي النتيجة .

مثل آخر ، « في الاتحاد السوفياتي قبل الدستور الاخير ، كانت ديكتاتورية البروليتاريا . الديكتاتورية هي الديكتاتورية . وفي الاتحاد السوفياتي هي

الديكتاتورية . اذن لم يكن هناك من فرق البتة بين الاتحاد السوفياتي وايطاليا
والمانيا بلدان الديكتاتورية» .

لا ينظر هنا لاجل من، وعلى من تراول الديكتاتورية ، كذلك عندما نمتدح
الديمقراطية البرجوازية ، لا يقال لصالح من تراول هذه الديمقراطية .

هكذا نصل الى طرح المشكلات ، ورؤية الاشياء والعالم الاجتماعي كجزء
من الدوائر المنفصلة ، والى ادخال الدوائر بعضها في الآخر .

من المؤكد ان هذه الاسئلة هي اسئلة نظرية لكنها تحمل معها اسلوبا في
التصرف عمليا . وهكذا نستطيع ايراد هذا المثل المؤسف عن المانيا ١٩١٩ ،
حيث الاشتراكية الديمقراطية قتلت ديكتاتورية البروليتاريا حتى تحافظ على
الديمقراطية ، دون ان تدرك انها بتصرفها هذا تركت الرأسمالية تستمر واعطت
الفرصة للنازية .

رؤية الاشياء ودراستها منعزلة عن بعضها هي ما فعله علم الحيوان وعلم
الاحياء ، حتى اللحظة التي شاهد فيها التطور الحاصل عند الحيوانات
والنباتات وفهمه . في السابق صنفوا جميع الحيوانات معتقدين ان الاشياء كانت
كما هي عليه الآن منذ الازل .

« وبالفعل ... كان علم الطبيعة حتى نهاية القرن الاخير ، بصورة خاصة
علم التراكم ، علم الاشياء الجاهزة »^(١) .

ولكن علينا حتى ننتهي ان نعطي :

٧ - شرح كلمة « ميتافيزيقا »

في الفلسفة قسم مهم يسمى الميتافيزيقا . ولكن ليس لها هذه الاهمية الا في
الفلسفة البرجوازية ، ما دامت تهتم بالله والنفس . كل شيء فيها سرمدى .
الله سرمدى ، وغير متغير ابدا ، باق هو هو نفسه . النفس ايضا . كذلك الخير
والشر الخ ... كل هذا محدد بوضوح . نهائيا وسرمديا .

في هذا القسم من الفلسفة الذي نسميه الميتافيزيقا ، نرى الاشياء اذن

٤ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٩ .

كمجموع ثابت ، ويتم التعليل بالمتعارض : يعارض الذهن بالمادة، والخير
بالشر الخ ... اي نعلل بمعارضة الاضداد فيما بينها .

نسمى هذه الطريقة في التعليل وفي التفكير ، نسمى هذا التصور :
« ميتافيزيقا » لانها تعالج الاشياء والافكار الموجودة في ما وراء الفيزياء ، كالله
والطبيعة والنفس والشر الخ ...

والميتافيزيقا تنأتى من اليونانية ميتا Meta والتي تعني « ما بعد » ومن
« فيزيقا » اي علم ظاهرات العالم . اذن الميتافيزيقا هي ما يهتم بالاشياء
الواقعة ما بعد العالم

ونسمى هذا التصور ميتافيزيقيا بسبب حادث تاريخي ايضا . فارسطو الذي
كتب اول كتاب في المنطق (الذي ما زلنا نستعمله نحن) ارسطو هذا كعب
كثيرا . وبعد موته رتب اتباعه كتاباته ، فصنعوا فهرسا وبعد كتاب له عنوانه
« فيزيقا » وجدوا كتابا بدون عنوان يعالج اشياء الذهن ، فصنفوه ودعوه « ما
بعد الفيزيقا » ، في اليونانية ميتافيزيقا .
لنركز ، في الخلاصة ، على الرابط الموجود بين الالفاظ التي درسناها .

الميتافيزيقا الميكانيكية والمنطق . هذه الفنون الثلاثة تحضر مجتمعة دائما .
وتستدعي احداها الاخرى ، فهي تؤلف سيستاما ولا يمكن فهم احداها إلا
بالاخرى .

القسم الرابع

دراسة الديالكتيك

الفصل الأول

مقدمة لدراسة الديالكتيك

- ١ - احتياطات تمهيدية .
- ٢ - مم يتولد المنهج الديالكتيكي .
- ٣ - لماذا تغلب التصور الميتافيزيقي على الديالكتيك طويلا ؟
- ٤ - لماذا كانت مادية القرن الثامن عشر ميتافيزيقية ؟
- ٥ - كيف ولدت المادية الديالكتيكية - : هيغل وماركس .

١ - احتياطات تمهيدية :

عندما يدور الكلام على الديالكتيك ، فانما يتم ذلك غالبا بغموض ، ويقدم كشيء معقد . فعن جهل به يتم الكلام عليه كيفما اتفق . وهذا مما يؤسف له ، ومما يدعو لارتكاب اخطاء يجب تجنبها .

ان لفظة ديالكتيك في أصلها اللغوي تعني ببساطة ، فن المناقشة ، وهكذا نسمع غالبا ان الانسان الذي يناقش طويلا ، ويتوسع ، ويحدث جيدا : هو انسان ديالكتيكي !

لن ندرس كلمة الديالكتيك بهذا المعنى . فقد اكتسبت دلالة خاصة من وجهة النظر الفلسفية .

الديالكتيك ، بمعناه الفلسفي ، وعلى عكس ما يظن ، هو بمتناول الجميع لانه شيء واضح جدا وليس فيه اسرار .

ولكن بالرغم من ان الديالكتيك يمكن ان يفهمه جميع الناس فله مع ذلك صعوباته . ولتر كيف يجب علينا فهمه .

بعض الاشغال اليدوية بسيط ، وبعضها الاخر اكثر تعقيدا . ان نصنع

اكتسابا للتعبئة ، مثلا ، هذا عمل بسيط . أما تركيب الآلات اللاسلكية ، فيمثل على العكس عملا يتطلب كثيرا من المهارة ، والدقة ، وليونة الاصابع .

اليدين والاصابع هي ، بالنسبة لنا ، ادوات عمل . لكن الفكر ايضا هو اداة عمل . واذا كانت اصابعنا لا تعمل دائما عملا دقيقا ، فكذلك الامر بالنسبة لدماغنا .

ففي بدء تاريخ العمل البشري ، لم يحسن الانسان الا الاعمال غير المتقنة . ولم تتح له فرصة تحقيق اعمال اكثر دقة الا مع تقدم العلوم .

هذا ما حدث تماما في تاريخ الفكر . الميتافيزيقا هي هذا المنهج من التفكير غير المؤهل ، كما هي اصابعنا ، الا لحركات غير متقنة (كمسمة الصناديق او كفتح جوارير الميتافيزيقا) .

يختلف الديالكتيك عن هذا المنهج لانه يتيح دقة اكبر . فليس هو سوى منهج في التفكير ذي دقة كبرى .

ان تطور الفكر كتطور العمل اليدوي نفسه . نفس التاريخ للثنتين ، ولا وجود لاي لغز ، فكل شيء واضح في هذا التطور .

الصعوبات التي نصادفها تنأت من كوننا ، حتى الخامسة والعشرين من العمر ، نسم الصناديق فقط ، وفجأة يضعوننا امام آلات لاسلكية لتركبها . ومن المؤكد انه سيكون لدينا صعوبات كثيرة . وستكون ايدينا ثقيلة ، واصابعنا قليلة المهارة . ولن نصل الى تايين انفسنا وتحقيق هذا العمل الا قليلا قليلا . وما كان كثير الصعوبة في البداية يظهر لنا اكثر سهولة بعد ذلك .

وكذلك بالنسبة للديالكتيك . نحن مرتبكون ومثقلون بالمنهج القديم في التفكير الميتافيزيقي ، وعلينا ان نحزز لبونة المنهج الديالكتيكي ودقته لكننا نرى ايضا ان ليس ثمة من اسرار وليس ثمة من تعقيد مستعص .

٢ - مم يتولد المنهج الديالكتيك ؟

رأينا ان الميتافيزيقا تعتبر ان العالم مجموعة من الاشياء المتحركة ، وانه على

العكس ، اذا نظرنا الى الطبيعة رأينا كل شيء يتحرك ، وكل شيء يتغير . اننا نلاحظ الشيء نفسه بالنسبة للفكر . ينتج عن هذا الاستنتاج عدم تطابق بين الميتافيزيقيا والواقع . لذلك ومن اجل ان نحدد بشكل بسيط ، ونعطي فكرة مختصرة ، نستطيع القول : الذي يقول « ميتافيزيقا » يقول « جمود » والذي يقول « ديالكتيك » يقول « حركة » .

فالحركة والتغير الموجودان في كل ما يحيط بنا هما في اساس الديالكتيك .

« حين ننظر ونأمل في الطبيعة ، في مداها ، او في تاريخ الجنس البشري او في نشاطنا الخاص ، فاننا نشاهد اول ما نشاهد تشابكا لامتناهيا للعلاقات وردود الافعال ، وللمبادلات والتركيبات ، تشابكا لا يظل فيه شيء ثابتا على حاله ، او في مكانه او مثلما كان من قبل ، بل كل شيء يتحرك ، ويتبدل ، ويخلق ويفنى »^(١) .

نرى بموجب هذا النص الواضح جدا لانجلس ، انه من وجهة نظر الديالكتيك ، كل شيء يتغير ، لا يبقى شيء حيث هو ، ولا يستمر على ما هو عليه ، وبالنتيجة فان وجهة النظر هذه متفقة تماما مع الواقع . لا شيء يثبت في المكان الذي يشغله ما دام الذي يظهر لنا جامدا ، يتحرك ، يتحرك مع حركة الارض حول الشمس ، وفي حركة الشمس حول نفسها . في الميتافيزيقيا ، مبدأ الهوية يريد ان يبقى الشيء هو نفسه . وسنرى ، على العكس ، ان لا شيء يبقى على ما هو عليه .

لدينا انطباع باننا نبقي دائما كما نحن ومع ذلك يقول لنا انجلس : « المتأمل مختلف » نظن اننا نمائلون لانفسنا في حين اننا قد تغيرنا . كنا اطفالا واصبحنا رجالا ، وهذا الرجل لا يبقى هو نفسه ابدا من الناحية الفيزيائية : انه يشيخ كل يوم .

ليست الحركة اذن تراء خادع كما ذهب اليه الايليون بل الجمود هو التراثي ، ما دام كل شيء يتحرك في الواقع ، ويتغير .

١ - انجلس : انتي دوهرنغ : ص ٢٦

لماذا كان ذلك ممكناً ؟ وكيف كان ذلك ؟

لقد ابتداء الناس دراسة الطبيعة في حالة من الجهل كاملة . ولدراسة الظواهر التي لاحظوها ، ابتدأوا بتصنيفها . لكن ، عن شكل تصنيفها ، نتجت عادة ذهنية . وبتقسيمها الى فئات ، وفصل هذه الفئات بعضها عن بعض ، تعود ذهننا ان يقيم انفصالات كهذه . ونعود لنجد هنا السمات الاولى للمنهج الميتافيزيقي . واذن فقد خرجت الميتافيزيقيا من نقص في تطور العلوم . ومنذ ١٥٠ عاما كانت العلوم تدرس مفصولة بعضها عن بعض . فقد كانت الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا تدرس ولم يكن يرى بينها اية صلة . وقد استمر تطبيق هذا المنهج داخل العلوم : الفيزياء تدرس الصوت والحرارة ، والمغناطيس والكهرباء الخ . . وكان يظن انه بين مختلف الظواهر هذه لا توجد اية صلة ، فدرس كل منها في فصول منفصلة .

نتعرف هنا على الميزة الثانية للميتافيزيقيا التي تؤدي الى تجاهل الصلات بين الاشياء ، وان لا شيء مشترك بينها .

كذلك من السهل تصور الاشياء في حالة السكون اكثر منها في حالة الحركة . لتأخذ مثلا على ذلك التصوير : نرى أننا نحاول تثبيت الاشياء في جودها اولا (هذا هو التصوير) ، ثم بعد ذلك في حركتها فقط (هذه هي السينما) اذن ! ان التصوير والسينما هما مثل لتطور العلوم والذهن الانساني .

نحن ندرس الاشياء في سكونها قبل ان ندرسها في حركتها .

ولماذا الامر كذلك ؟ لانا لم نكن نعلم . وللتعلم سلكنا الطريق الاسهل ، والحال ان الاشياء الجامدة هي اسهل للفهم والدرس . ومن المؤكد ان دراسة الاشياء في حالة السكون هي لحظة ضرورية في الفكر الديالكتيكي . لكنها لحظة غير كافية تجزئية ويجب ان تدمج في دراسة الاشياء المتغيرة .

ونجد حالة الذهن هذه في البيولوجيا ، مثلا في دراسة علم الحيوان والنبات . ولانا لا نعرف الحيوانات جيدا ، صنفناها اولا حسب السلالة وحسب الانواع معتقدين ان لا شيء مشترك بينها ، وان الامر كان كذلك دائما (السمة الثالثة للميتافيزيقيا) من هنا تأتت النظرية المسماة « الثبوتية » (التي

التاريخ ايضا يثبت لنا ان الاشياء لا تبقى على ما هي عليه . فليس المجتمع جامدا في اية لحظة . ان اول مجتمع عرفته العصور القديمة ، هو مجتمع الرق ، بعد ذلك تلاه المجتمع الاقطاعي ، ثم المجتمع الرأسمالي . ودراسة هذه المجتمعات تظهر لنا بصورة متواصلة ولا شعورية ، ان العناصر التي اتاحت ولادة مجتمع جديد تمت داخل تلك المجتمعات نفسها . وهكذا يتغير المجتمع الرأسمالي كل يوم ، وقد زال من الوجود في الاتحاد السوفياتي ، لان اي مجتمع لا يبقى جامدا . المجتمع الاشتراكي المبني في الاتحاد السوفياتي ، هو ايضا مصيره الزوال . انه يتغير بشكل مرئي ولذلك لا يفهم الميتافيزيون ما يجري هناك . فيتابعون الحكم على مجتمع تغير كلياً انطلاقاً من مشاعر امرئ لا يزال خاضعاً للقمع الرأسمالي .

مشاعرنا ايضا تتغير ، وهذا ما لا نفهمه جيدا . فنحن نرى ان ما كان مجرد تعاطف قد اصبح حبا ، ثم تحول في بعض الاحيان الى كره .

وما نراه في كل مكان ، في الطبيعة وفي التاريخ وفي الفكر هو التغير والحركة . بهذه الملاحظة يبدأ الديالكتيك .

لقد دهش اليونان لكون التغير والحركة يصادفان في كل مكان . وقد رأينا ان هيراقليطس الذي سمي « ابا المادية » هو اول من اعطانا تصورا جدليا للعالم ، اي انه وصف العالم بانه متحرك وليس متحجرا . ان وجهة نظر هيراقليطس يمكن ان تصبح منهجا .

لكن هذا المنهج الديالكتيكي لم يستطع تأكيد ذاته الا بعد ذلك بوقت طويل ، ويجب علينا ان ننظر لماذا بقي الديالكتيك خاضعا للتصور الميتافيزيقي مدة طويلة .

٣ - لماذا تغلب التصور الميتافيزيقي على الديالكتيك طويلا ؟

رأينا ان التصور الديالكتيكي ولد باكرا في التاريخ ، لكن قصور معارف الانسان اتاح نمو التصور الميتافيزيقي . وجعله يتقدم على الديالكتيك .

نستطيع ان نقيم هنا موازنة بين المثالية التي تولدت من الجهل الكبير للناس وبين التصور الميتافيزيقي المتولد من قصور المعرفة بالديالكتيك .

تؤكد عكس « النظرية التطورية » ، ان الانواع الحيوانية كانت دائما على ما هي عليه ، وانها لم تتطور ابداً) والتي هي بالتالي نظرية ميتافيزيقية تتأتى من جهل الناس .

٤ - لماذا كانت مادية القرن الثامن عشر ميتافيزيقية ؟

نحن نعلم ان الميكانيك لعب دورا كبيرا في مادية القرن الثامن عشر . وان هذه المادية سميت غالبا « المادية الميكانيكية » . لماذا كان الامر كذلك ؟ لان التصور المادي مرتبط بتطور جميع العلوم ولان الميكانيك كان اول ما تطور بينها جميعا . في اللغة العادية ، الميكانيك هي دراسة الماكينات (الآلات) . وهو في اللغة العلمية ، دراسة الحركة بوصفها نقلة . واذا كان العلم الذي تطور اولاً هو الميكانيك ، فذلك لان الحركة الآلية هي الحركة الأكثر بساطة . فدراسة حركة تفاحة يؤرجحها الهواء على شجرة التفاح ، اسهل بكثير من دراسة التغير الذي يطرأ على التفاحة التي تنضج . فالسهولة التي نستطيع ان ندرس بها تأثير الهواء على التفاحة اكبر من السهولة التي ندرس بها عملية نضوجها . لكن هذه الدراسة هي دراسة « جزئية » وتفتح بالتالي الباب للميتافيزيقا .

رغم ان اليونان لاحظوا جيدا ان كل شيء متحرك الا انهم لم يستطيعوا الاستفادة من هذه الملاحظة ، لان معرفتهم كانت غير كافية . كانوا يشاهدون الاشياء والظواهر ، فيصنفون ويكتفون بدراسة النقلة ، من هنا يؤدي الميكانيك ونقص المعارف في العلوم الى التصور الميتافيزيقي .

نحن نعلم ان المادية مرتكزة على العلوم ، وان العلم في القرن الثامن عشر كان خاضعا للذهنية الميتافيزيقية . وان الميكانيك كان الأكثر تطورا من جميع العلوم في تلك الحقبة .

لذلك سيقول انجلس انه لا مفر من ان تكون مادية القرن الثامن عشر مادية ميتافيزيقية وميكانيكية ، لان العلوم كانت كذلك .

نقول اذن ان هذه المادية الميتافيزيقية والميكانيكية هي مادية ، لانها تحجب عن السؤال الاساسي في الفلسفة بان العامل الاول هو المادة . ولكنها كانت ميتافيزيقية لأنها اعتبرت الكون مجموعة من الاشياء المتحركة والآلية ، ولأنها

درست كل شيء ورأته من خلال الميكانيك .

وسياتي اليوم الذي سيتوصل فيه ، وبتراكم الابحاث ، الى الملاحظة ان العلوم ليست جامدة . وانه اصبح مستحيلا معالجة الواحدة او الاخرى دون ان نعود الى الاخريات . فدراسة الهضم مثلا ، والتي هي دراسة بيولوجية ، تصبح مستحيلة بدون الكيمياء . ففي القرن التاسع عشر سيلاحظ اذن ان العلوم مرتبطة بعضها ببعض ، وسينجم عن ذلك تراجع في الذهنية الميتافيزيقية في العلوم ، لاننا نملك معرفة اكثر عمقا في الطبيعة . فحتى ذلك الحين درست الظواهر الفيزيائية بصورة منفصلة ، وها نحن مرغمون على الملاحظة ان هذه الظواهر كانت من الطبيعة نفسها . وهكذا فالكهرباء والمغناطيس التي كانت تدرس بصورة منفصلة ، جمعت في علم وحيد اليوم ، هو الكهروطيسية (كهربية مغنطيسية) .

فدراسة ظواهر الصوت والحرارة ، لوحظ كذلك ان الاثنين نجما عن ظاهرة طبيعية واحدة .

فالحرب بالمطرقة يحدث صوتا ، ويولد حرارة . الحركة هي التي تولد الحرارة . ونحن نعلم ان الصوت هو ارتجاجات في الهواء ، والارتجاجات هي ايضا من الحركة . هاتان اذن ظاهرتان من طبيعة واحدة .

وفي البيولوجيا ، توصلوا اثناء التصنيف المتزايد الدقة الى ايجاد انواع لا نستطيع تصنيفها نباتية او حيوانية . فليس هناك من فصل فجائي بين النباتات والحيوانات . وبالمتابعة الدائمة للدراسات توصلوا الى استنتاج ان الحيوانات لم تكن في الماضي على ما هي عليه . فالوقائع ادانت « الثبوتية » والذهنية الميتافيزيقية .

لقد حدث هذا التغير الذي رأيناه ، والذي أتاح للمادية ان تصبح دياكتيكية خلال القرن التاسع عشر . فالديالكتيك موضة العلوم التي ، بتطورها ، هجرت التصور الميتافيزيقي . وقد استطاعت المادية ان تتحول ، لان العلوم تغيرت . فالمادية الميتافيزيقية توافقت العلوم الميتافيزيقية ، وتوافق العلوم الجديدة مادية جديدة هي المادية الديالكتيكية .

٥ - كيف ولدت المادية الديالكتيكية : هيغل وماركس

إذا سألنا كيف جرى هذا التحول من المادية الميتافيزيقية الى المادية الديالكتيكية ، نجيب عامة قائلين :

١ - كان هناك المادية الميتافيزيقية ، مادية القرن الثامن عشر .

٢ - العلوم تغيرت .

٣ - تدخل ماركس وانجلس ، ففسها المادية الميتافيزيقية الى اثنتين : اهملوا الميتافيزيقيا ، واستبقوا المادية ، مضيفين اليها الديالكتيك .

وإذا كنا نميل لتقديم الاشياء هكذا ، فذلك يتم بتأثير من المنهج الميتافيزيقي الذي يرغب في تبسيط الاشياء لتصنع منها رسماً بيانياً . وعلى العكس يجب ان يكون حاضراً في ذهننا وبصورة متواصلة : ان احداث الواقع يجب ان لا ترسم بيانياً . فالاحداث اكثر تعقيداً مما تظهر لنا ومما نظن . وهكذا ، فان التحول من المادية الميتافيزيقية الى المادية الديالكتيكية لم يكن بهذه البساطة .

لقد تطور الديالكتيك ، بالواقع ، على يد فيلسوف مثالي الماني ، هو هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) الذي عرف كيف يفهم التغير المحدث في العلوم . فقد لاحظ - باستعداده لفكرة هيراقليطس القديمة وساعده في ذلك تقدم العلوم - لاحظ ان كل شيء في الكون هو حركة وتغير ، وان لا شيء معزول البتة ، بل ان كل شيء مرتبط بكل شيء ، وهكذا خلق الديالكتيك . فبفضل هيغل نتحدث اليوم عن حركة العالم الديالكتيكية وما فهمه هيغل اولاً هو حركة الفكر ودعاها طبعاً الديالكتيك .

لكن هيغل مثالي ، اي انه يعطي الاهمية الاولى للروح ، وبالتالي يصنع لنفسه تصوراً خاصاً للحركة وللتغير . فيظن ان تغيرات الروح هي التي تحدث التغيرات في المادة . وأن الكون هو الفكرة وقد صارت مادية . وقبل الكون هناك اولاً الروح الذي يكتشف الكون ، وبايجاز يلاحظ ان الروح والكون هما في تغير ابدي ، ولكنه يستخلص من هذا ان التغيرات في الروح هي التي تحدد التغيرات في المادة .

مثلاً : المخترع لديه فكرة ، هو يحقق فكرته ، وهذه الفكرة المجسدة هي التي تخلق تغيرات في المادة .

هيغل هو اذن ديالكتيكي لكنه يخضع الديالكتيك للمثالية .

ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وانجلس (١٨٢٠ - ١٨٩٥) من اتباع هيغل ، ولكنهم اتبعوه الماديون . وبالتالي يعطون الاهمية الاولى للمادة ، يعتقدان ان الديالكتيك هيغل يعطي اثباتات صحيحة ولكن بشكل مقلوب . يقول انجلس في هذا الموضوع : مع هيغل كان الديالكتيك يقف على رأسه ، وتوجب اعادة وضعه على رجليه . أحال ماركس وانجلس اذن الى الواقع المادي ، السبب الاول لحركة الفكر هذه ، التي حددها هيغل ، وسميها ديالكتك مستعيرين من هيغل اللفظة نفسها .

فهما يعتقدان ان هيغل على حق في القول ان الفكر والكسور هما في تغير دائم ، ولكنه اخطأ بتأكيده ان التغيرات في الافكار هي التي تحدد التغيرات في الاشياء . على عكس ذلك ، فان الاشياء هي التي تعطينا الافكار ، وانما تتعدل الافكار ، لان الاشياء تتعدل .

في الزمن الماضي ، كانوا يسافرون في العربات اليوم يسافر بواسطة السكك الحديدية ولم توجد وسيلة النقل هذه ، لاننا نملك فكرة السفر في السكة الحديدية . ان افكارنا تعدلت لان الاشياء تعدلت .

علينا اذن ان نتجنب القول : « ان ماركس وانجلس كانا يملكان المادية الناجمة عن المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر من جهة اولى ، ومن جهة اخرى يملكان ديالكتيك هيغل ، وبالتالي لم يبق لهما الا ربط احدهما بالآخرى » .

ذاك تصور مبسط تخطيطي ، ينسى ان الظواهر هي اكثر تعقيداً ، إنه تصور ميتافيزيقي .

سيأخذ ماركس وانجلس الديالكتيك من هيغل بالطبع ، لكنها سيحولانه ، وسيفعلان الامر نفسه بالمادية ليعطينا المادية الديالكتيكية .

التفاحة والاجاصة هي الاجاصة . هكذا درست الاشياء في الماضي ، وتشهد على ذلك كتب عديدة .

اذا اردنا دراسة التفاحة من وجهة نظر الديالكتيك فسيكون ذلك من وجهة نظر الحركة : ليس حركة التفاحة عندما تندرج وتنقل ، ولكن في حركة تطورها . عندئذ نلاحظ ان التفاحة الناضجة لم تكن دائما على ما هي عليه . لقد كانت تفاحة خضراء من قبل ، وكانت برعما قبل ان تكون زهرة ، وهكذا نصل الى حالة شجرة التفاح في زمن الربيع . التفاحة لم تكن اذن دائما تفاحة ، التفاحة لها تاريخ ، وكذلك لن تبقى كما هي . اذا وقعت ستعفن وتحلل ، وستحرر البذور التي ستعطي اذا سار كل شيء على ما يرام ، نبتة ، ثم شجرة . اذن لم تكن التفاحة دائما على ما هي عليه ولن تبقى ابدا كما هي .

هذا ما يسمى بدراسة الاشياء من وجهة نظر الحركة . الدراسة من وجهة نظر الماضي والمستقبل . وبدراسنا هكذا ، لا نرى التفاحة الحاضرة الا مرحلة انتقالية بين ما كانت عليه (الماضي) وما ستصبح عليه (المستقبل) . لوضع هذا الشكل من النظر في المكان المناسب ، سنأخذ مثلين ايضا : الارض والمجتمع .

بتبيننا لوجهة النظر الميتافيزيقية نصف شكل الارض بكل تفاصيله . سنلاحظ ان البحار موجودة على سطحه ، كذلك اليابسة والبحار والجبال ، وسندرس طبيعة التربة . ثم سيكون بمقدورنا مقارنة الارض مع الكواكب الاخرى ، او مع القمر ، ونستخلص اخيرا ، الارض هي الارض .

بينما بدراسنا تاريخ الارض من وجهة نظر الديالكتيك ، سنرى انها لم تكن دائما على ما هي عليه ، وانها خضعت لتحولات وانها بالتالي ستخضع من جديد لتحولات اخرى في المستقبل . يجب اذن ان نعتبر اليوم ان حالة الارض الحالية ليست سوى مرحلة انتقالية بين التغيرات الماضية والتغيرات المستقبلية . مرحلة انتقالية تحصل فيها تغيرات غير مرئية بالرغم من كونها على درجة اكبر بكثير من التغيرات التي تحصل في نضوج التفاحة . لنر الآن مثل المجتمع الذي يثير اهتمام الماركسيين بصورة خاصة .

الفصل الثاني

قوانين الديالكتيك

القانون الاول

التغير الديالكتيكي

- ١ - ماذا نعني بالحركة الديالكتيكية .
- ٢ - « ليس من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس بالنسبة للديالكتيك » (انجلس)
- ٣ - السيرورة .

١ - ماذا نعني بالحركة الديالكتيكية :

قانون الديالكتيك الاول يبدأ بملاحظة ان « لا شيء يبقى حيث هو ، ولا شيء يظل على ما هو » فمن يقول « ديالكتيك » ، يقول حركة وتغير . وبالتالي عندما يدور الكلام على تبني وجهة النظر الديالكتيكية ، هذا يعني تبني وجهة نظر الحركة والتغير : فعندما نريد دراسة الاشياء وفقا للديالكتيك ، سندرسها في حركاتها وفي تغيرها .

هذه تفاحة . ثم وسيلتان لدراساتها : من وجهة النظر الميتافيزيقية من جهة ، ومن جهة اخرى من وجهة نظر الديالكتيك .

في الحالة الاولى سنصف هذه الثمرة ، نصف لونها وشكلها . وسنعدد خصائصها ، سنتكلم عن طعمها الخ . . ثم نستطيع مقارنة التفاحة مع الاجاصة ، رؤية تشابهها والفروق بينها ، ونستنتج اخيرا ان التفاحة هي

لنطبق دائما منهجينا الاثنين : من وجهة نظر الميتافيزيقيا ، سيقال لنا كان هناك دائما اغنياء وفقراء . وسنلاحظ وجود مؤسسات مصرفية كبيرة ومصانع ضخمة . سنعطي وصفا مفصلا للمجتمع الرأسمالي الذي سيثبه بالمجتمعات الماضية (الاقطاعية والرقية) باحثين عن وجوه الشبه ووجوه الاختلاف وسيقال لنا : المجتمع الرأسمالي هو ما هو عليه .

من وجهة نظر الديالكتيك ، سنعلم ان المجتمع الرأسمالي لم يكن دائما ما هو عليه . واذا لاحظنا مجتمعات اخرى عاشت زمنا في الماضي ، فذلك لنستنتج منها ان المجتمع الرأسمالي ككل المجتمعات ليس نهائيا ولا يملك اساسا مقدسا ، وليس هو بالنسبة لنا ، على العكس ، سوى واقع مؤقت ، سوى انتقال بين الماضي والحاضر .

نرى ، بهذه الامثلة القليلة ، ان اعتبار الاشياء من وجهة نظر الديالكتيك ، هو اعتبار كل شيء مؤقتا ، كشيء له تاريخ في الماضي ويجب ان يكون له تاريخ في المستقبل ، له بداية ويجب ان يكون له نهاية .

٢ - « ليس من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس بالنسبة للديالكتيك . . »

ليس ثمة من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس ، بالنسبة للديالكتيك . يظهر الديالكتيك تهافت كل شيء والتهافت في كل شيء . ليس ثمة من شيء سوى السيرة المستمرة للصيرورة والانتقال^(١)

هذا تعريف يشير الى ما رأينا وما سندرس :

« ليس من شيء نهائي بالنسبة للديالكتيك » هذا يعني ان كل شيء بالنسبة للديالكتيك له ماضى وسيكون له مستقبل ، وان الشيء بالتالي لا يوجد مرة واحدة والى الابد ، وان ما هو عليه اليوم ليس بنهائي . (امثلة التفاحة ، الارض والمجتمع) .

فليس من سلطة في العالم او في ما وراء العالم ، تستطيع بالنسبة

١ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ - ص ١٠

للديالكتيك تثبيت الاشياء في حالة نهائية . اذن « لا شيء مطلقاً » (مطلق ، تعني : الذي لا يخضع لاي شرط ، اذن كلي ، خالد ، كامل) .

« لا شيء مقدساً » هذا لا يعني ان الديالكتيك يحتقر كل شيء . كلا ! . فالشيء المقدس هو شيء نعتبره ثابتا ولا يجب لمسه او مناقشته بل احترامه فقط . المجتمع الرأسمالي مثلا - هو « مجتمع مقدس » . يقول الديالكتيك بأن لا شيء يقلت من الحركة ، من التغير ، من تحولات التاريخ .

« تهافت » تأتي من التهافت اي الذي يقع ، شيء منهافت هو شيء شاخ . يجب ان يخفي . الديالكتيك يظهر لنا ان التهافت لم يعد لوجوده من سبب ،

وان كل شيء معد للزوال . من هو شاب يصبح هرما ، وما هو في حياة اليوم يموت غداً ، ولا شيء يوجد بالنسبة للديالكتيك « الا السيرة المستمرة للصيرورة والانتقال » .

اذن ان نتبنى وجهة نظر الديالكتيك ، هو ان نعتبر ان لا شيء خالداً عدا التغير . وان نعتبر ان ليس من شيء خاص يستطيع ان يكون خالداً الا الصيرورة » .

ولكن ما هي « الصيرورة » التي تكلم عنها انجلس في تعريفه ؟

رأينا ان للتفاحة تاريخاً . لناخذ الآن ، على سبيل المثال ، قلماً ؛ هذا القلم له ايضا تاريخه .

هذا القلم الذي تأكل اليوم كان جديداً ، الخشب الذي صنع منه خرج من لوح خشب ، وهذا اللوح خرج من شجرة . نرى اذن ان لكل من التفاحة والقلم تاريخه ، وان لا هذا ولا ذاك كان دائما على ما هو عليه الآن . ولكن هل من فرق بين هذين التاريخين ؟ طبعاً ! .

التفاحة الخضراء أصبحت ناضجة . هل كانت تستطيع ، وهي خضراء ، وفيما اذا كان كل شيء على ما يرام ، هل كانت تستطيع ان لا تنضج ؟ كلا . يجب ان تنضج ، كما انه يجب ان تتعفن عندما تقع على الارض ، وان تحمر بذورها .

بينما الشجرة التي اثبتت منها القلم يمكن ان تصير لوحا ، وهذا اللوح يمكن ان لا يصير قلما ، والقلم نفسه يمكن ان يبقى تاما ، وان لا يبرى .
نلاحظ اذن فرقا بين هذين التاريخين . بالنسبة للتفاحة ، التفاحة الخضراء هي التي اصبحت ناضجة ، اذا لم يحدث شي غير طبيعي ، والزهرة هي التي اصبحت تفاحة اذن فيما لو توفر طور ما يتبعه بالضرورة طور آخر ، لا مفر منه (اذا لم يوقف التطور اي شيء آخر) .

في تاريخ القلم ، على العكس ، الشجرة يمكنها ان لا تصير لوحا ، وان لا يصير اللوح قلما ، وان لا يبرى القلم . اذن فيما لو توفر طور ما ، يمكن ان لا يتبعه الطور الاخر . واذا مر تاريخ القلم بهذه الاطوار فان ذلك كان بفعل تدخل خارجي - تدخل الانسان .

في تاريخ التفاحة ، نجد اطوارا تتالى ، الطور الثاني ينجم عن الاول الخ . تبعا « للصيرورة » التي يتكلم عنها انجلس . في تاريخ القلم ، الاطوار تتجاور بدون ان ينجم احدها عن الآخر . اما التفاحة فهي تتبع سيرورة طبيعية .

٣ - السيرورة

(كلمة مشتقة من اللاتينية والتي تعني : سير الى الامام ، او فعل التقدم ، او الرقي)

لماذا اصبحت التفاحة الخضراء ناضجة ؟ بسبب ما تحتوي . بسبب الترابط الداخلي الذي يدفع التفاحة الى النضوج ، ولانها كانت تفاحة قبل ان تكون ناضجة فهي لا تستطيع الا ان تنضج .

عندما نتفحص الزهرة التي ستصير تفاحة ، ثم التفاحة الخضراء التي ستصير ناضجة نلاحظ ان هذا التسلسل الداخلي الذي يدفع التفاحة في تطورها ، يعمل تحت وطأة القوى الداخلية المسماة الدينامية الذاتية . هذا يعني ، قوى تنأتى من الكائن ذاته .

عندما كان القلم لوحا من خشب ، وجب تدخل الانسان لجعله قلما ، لان اللوح لا يمكنه ابدا ان يتحول من ذاته الى قلم . فلم يكن هناك قوى داخلية

دينامية ذاتية ، لم يكن هناك من سرورة . فالذي يقول اذن : دياكتيك ، لا يقول فقط حركة بل ايضا دينامية ذاتية .

هكذا نرى ان الحركة الديالكتيكية تتضمن السرورة والدينامية الذاتية التي هي الاساس فيها ، لان ليست كل حركة دياكتيكية . وليس كل تغير دياكتيكي . فاذا اخذنا برغوتا لندرسه من وجهة نظر الديالكتيك ، سنقول انه لم يكن دائما على ما هو عليه ، ولن يكون على ما هو عليه ، فاذا سحقناه ، سيكون هناك طبعيا تغير بالنسبة له ، لكن هل سيكون هذا التغير دياكتيكي؟ كلا . فبدوننا لن يسحق ، هذا التغير اذن ليس دياكتيكي وانما ميكانيكي .

علينا اذن ان نتنبه جيدا عندما نتكلم عن التغير الديالكتيكي ، نحن نعتقد انه اذا استمرت الارض في الوجود ، سيحل مكان المجتمع الرأسمالي المجتمع الاشتراكي ثم الشيوعي ، سيكون ذلك تغيرا دياكتيكي . لكن اذا اختفت الارض ، سيختفي المجتمع الرأسمالي ليس بتغير دينامي ذاتي ولكن بتغير ميكانيكي .

بترتيب آخر للافكار نقول : ان هناك انضباطا ميكانيكيا عندما لا يكون هذا الانضباط طبيعي ، ونقول ان الانضباط دينامي ذاتي عندما يكون موافقا عليه بحرية ، اي عندما يتأتى من وسطه الطبيعي . ان انضباطا ميكانيكيا يكون مفروضا من الخارج هو انضباطات من الزعماء المختلفين عمن يحكمونهم . (نفهم هكذا كيف ان الانضباط غير الميكانيكي ، الانضباط الدينامي الذاتي ليس بمتناول جميع التنظيمات !)

علينا ان نتجنب اذن استخدام الديالكتيك بشكل ميكانيكي . وهذا ميل ينأتى لنا من عادتنا في التفكير الميتافيزيقي . فلا يجب التريديد كالبيغاء ان الاشياء لم تكن دائما كما هي . عندما يقول دياكتيكي هذا عليه ان يبحث في الوقائع ما كانت عليه الاشياء قبالاً . لان قولا كهذا ليس نهاية التعليل ، وانما بداية الدراسات لاكتشاف ما كانت عليه الاشياء بدقة متناهية .

لقد حقق ماركس وانجلس ولينين دراسات طويلة ودقيقة في المجتمع الرأسمالي وما كان عليه قبلهم . فلاحظوا التفاصيل البسيطة جدا ، ليدونوا

التغيرات الديالكتيكية . لقد حقق لينين دراسات دقيقة وراجع احصاءات عديدة ، وذلك من اجل ان يصف وينتقد التغيرات في المجتمع الرأسمالي ويحلل المرحلة الامبريالية .

الفصل الثالث

القانون الثاني : الفعل المتبادل

- ١ - ترابط السيورورات
- ٢ - الاكتشافات الكبيرة في القرن التاسع عشر
أ - اكتشاف الخلية الحية ونموها .
ب - اكتشاف تحول الطاقة
ج - اكتشاف التطور عند الانسان والحيوانات
٣ - التطور التاريخي او التطور الحلزوني
٤ - خلاصة .

١ - ترابط السيورورات :

رأينا في معرض قصة التفاحة ، ما هي السيورة ، فلنعد الى هذا المثل بحثنا من اين انت التفاحة ، وكان علينا في ابحاثنا ان نعود صعدا حتى الشجرة . لكن مشكلة البحث تطرح نفسها ايضا بالنسبة للشجرة . فدراسة التفاحة تقودنا الى دراسة اصول الشجرة ومصائرهما . من اين تأتي الشجرة ؟ من التفاحة . تأتي من تفاحة سقطت ، وتعفنت لتولد نبتة ، وهذا يقودنا لدراسة التربة والظروف التي استطاعت ان تعطي فيها البذور نبتة ، وتأثيرات الهواء والشمس الخ . . وهكذا انطلاقا من دراسة التفاحة ، قادتنا هذه الدراسة الى فحص التربة عابرين من سيورة التفاحة الى سيورة الشجرة ، وهذه ترتبط بدورها مع سيورة الارض . لدينا ما يسمى : « ترابط السيورورات » . وهذا سيتيح لنا صياغة هذا القانون الثاني للديالكتيك ودرسته : قانون الفعل المتبادل . ولناخذ مثلا على ترابط السيورورات ، بعد

فعندما نتكلم على الدينامية الذاتية ، علينا ان لا نجعل منها جملة ادبية ، علينا ان لا نستعمل هذه الكلمة الا بدراية والى اولئك الذين يفهمونها تماماً .

اخيرا بعد ان رأينا ، بدراستنا لشيء ما ، ما هي تغيراته الدينامية الذاتية ، وبعد ان قلنا ما هو التغير الذي لاحظناه ، يجب ان ندرس ونبحث من اين يتأتى كونه ديناميا ذاتيا .

لذلك فان الديالكتيك والابحاث والعلوم مرتبطة بصورة دقيقة .

فالديالكتيك ليس وسيلة لشرح الاشياء ومعرفتها دون دراستها ، ولكنه وسيلة للدرس الجيد ولتحقيق مشاهدات قيمة بالبحث عن البداية والنهاية للاشياء ، من اين تتأتى والى اين تسير .

مثل التفاحة ، مثل الجامعة العمالية في باريس .

إذا درسنا هذه المدرسة من وجهة نظر الديالكتيك ، سنبحث من أين تأتي ، وسيكون لدينا جواب في أول الأمر : في خريف ١٩٣٢ ، قرر جمع من الرفاق تأسيس جامعة عمالية في باريس لدراسة الماركسية .

ولكن كيف تكونت لدى هذه اللجنة من الرفاق فكرة تدريس الماركسية ؟ طبعاً لأن الماركسية موجودة . ولكن مم تأتي الماركسية إذن ؟

نحن نرى أن البحث عن ترابط السيرورات يجرنا إلى دراسة دقيقة جداً وكاملة . أكثر من ذلك : يبحثنا من أين تأتي الماركسية ، نتوصل للملاحظة أن هذه العقيدة هي وعي البروليتاريا ، ونرى (إذا كنا مع الماركسية أو ضدها) أن البروليتاريا موجودة إذن . وهكذا سنطرح إذن من جديد السؤال : من أين تأتي البروليتاريا ؟

نحن نعلم أنها تأتي من نظام اقتصادي ، الرأسمالية . ونعلم أن انقسام المجتمع إلى طبقات وصراع الطبقات ، لم يتولد كما يدعي خصومنا عن الماركسية ، بل على العكس ، الماركسية لاحظت وجود صراع الطبقات هذا واستمدت قوتها من البروليتاريا الموجودة .

من سيرورة إلى سيرورة إذن ، نصل لتفحص شروط وجود الرأسمالية . لدينا هكذا ترابط سيرورات يبين لنا أن كل شيء يؤثر على كل شيء . هذا هو قانون الفعل المتبادل .

وكخلاصة لهذين المثليين ، مثل التفاحة ومثل الجامعة العمالية في باريس لير كيف كان يتصرف ميتافيزيقي ما .

في مثل التفاحة ، لم يكن يستطيع إلا أن يفكر « من أين تأتي التفاحة ؟ » وكان سيرضي بالجواب : « التفاحة تأتي من الشجرة » . ولم يكن سيفتش أبعد من ذلك .

بالنسبة للجامعة العمالية ، كان سيرضي بالقول عن أصلها ، بأنها استت بواسطة جماعة من الناس تريد « أفساد الشعب الفرنسي » أو هذياناً أخرى .

لكن الديالكتيكي يرى جميع ترابطات السيرورات التي تفصي من جهة إلى التفاحة ، ومن جهة أخرى إلى الجامعة العمالية . ويربط الواقعة الخاصة والتفصيل بالكل .

يربط التفاحة بالشجرة ، ويعود صعوداً إلى أبعد من ذلك ، حتى الطبيعة بمجملها . التفاحة ليست فقط ثمرة شجرة التفاح ، ولكنها أيضاً ثمرة الطبيعة بأسرها .

الجامعة العمالية ليست فقط « ثمرة » البروليتاريا ، ولكن أيضاً « ثمرة » المجتمع الرأسمالي .

نرى إذن أن الديالكتيكي سيرى العالم كمجموعة من السيرورات ، على عكس الميتافيزيقي الذي يتصور العالم كمجموعة من الأشياء المتحركة . وإذا كانت وجهة نظر الديالكتيكي صحيحة بالنسبة للعلوم وللطبيعة ، فهي أيضاً صحيحة بالنسبة للمجتمع .

« أن الطريقة القديمة في البحث والتفكير التي يسميها هيجل « ميتافيزيقاً » والتي قامت بصورة رئيسية بدراسة الأشياء المعتبرة جاهزة ، منتهية ، ثابتة والتي ما زالت بقاياها راسخة في العقول بنبات ، قد كان لها في زمانها تبرير تاريخي كبير »^(١) .

نتيجة لذلك درست الأشياء وكذلك المجتمع ، في هذه الحقبة ، كمجموعة من « الأشياء المعطاة الثابتة » أشياء لا تتغير فحسب ، إنما هي ، وخاصة في المجتمع ليست معدة للاختفاء .

لقد أشار انجلس إلى هذه الأهمية الرئيسية للديالكتيك :

« أن الفكرة الكبرى الأساسية - القائلة أن العالم لا يتكون من أشياء جاهزة منجزة ، بل يتكون من مجموعة سيرورات ، حيث الأشياء ، التي تبدو ثابتة ، وكذلك انعكاسها في الدماغ ، أي الأفكار ، تتغير على الدوام ، تنشأ وتزول ، وحيث التطور سيشتق في آخر المطاف طريقاً لنفسه رغم جميع

١ - انجلس : لودفيغ فيورباخ - ص ٤٩

الاعراض الظاهرة ورغم الخطوات المؤقتة الى الوراء»^(١)

فيجب ان لا نعتبر المجتمع الرأسمالي ، هو الآخر ، كمجموعة من الاشياء المتحركة ، بل على العكس يجب ان يدرس ايضاً كمجموعة من السيورات .

لقد فهم الميتافيزيقيون ان المجتمع الرأسمالي لم يكن دائماً موجوداً ، وقالوا ان له تاريخاً ، ولكنهم ظنوا انه بظهوره ، انتهى تطور المجتمع وان المجتمع سيقى من الآن فصاعداً « ثابتاً » . اعتبروا جميع الاشياء منجزة وليست كبداية لسيورة جديدة . فقصة خلق العالم بواسطة الله هي تفسير للعالم كمجموعة من الاشياء المنجزة . لقد حقق الله مهمة ناجزة في كل يوم . فصنع النباتات والحيوانات والانسان ، دفعة واحدة : من هنا نظرية الثبوتية .

الديالكتيكي يحاكم بشكل مضاد . هو لا يعتبر الاشياء « كأشياء ثابتة » لكن في « حركة » . لا شيء منجز البتة بالنسبة له ، الشيء هو دائماً نهاية سيورة وبداية سيورة اخرى ، في طريق التحول والنمو . لذلك نحن متأكدون من تحول المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي . لا شيء منجز بصورة نهائية . المجتمع الرأسمالي هو نهاية سيورة وسيتبعه المجتمع الاشتراكي ثم المجتمع الشيوعي ، وهكذا . فالتطور موجود وسيوجد بصورة متواصلة . لكن يجب الانتباه هنا الى عدم اعتبار الديالكتيك كشيء قدرى بحيث يمكن ان نستنتج : « بما انكم متأكدون جداً من التغيير الذي ترغبون فيه ، فلماذا تناضلون ؟ » . لأنه كما قال ماركس : « لتوليد المجتمع الاشتراكي يلزم مولد » ، من هنا ضرورة الثورة . والنضال العملي .

فالاشياء ليست بهذه البساطة . يجب ان لا ننسى دور الناس الذين يستطيعون تعجيل او تأخير هذا التحول (سنرى هذه المسألة في الفصل الخامس من هذا القسم عندما سنتكلم عن المادية التاريخية) .

ما نلاحظه في الوقت الحاضر ، هو ترابط السيورات في جميع الاشياء ، هذا الترابط الذي يحدث بالقوة الداخلية للاشياء (الدينامية الذاتية) ذلك لانه -

٢ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٨

ونحن نصر على هذا - لا شيء منجزاً بالنسبة للديالكتيكي .

يجب اعتبار تطور الاشياء وكأنها لن تبلغ المشهد النهائي ابداً . ففي نهاية كل مسرحية في العالم يبتدي المشهد الاول لمسرحية اخرى . وبكلمة اصح ، هذا المشهد الاول ابتداء مع آخر مشهد للمسرحية السابقة .

٢ - الاكتشافات الكبيرة في القرن التاسع عشر :

ان الاكتشافات التي حققت في القرن التاسع عشر ، وخاصة الاكتشافات الثلاثة الكبيرة في هذه الحقبة ، والتي اشار اليها انجلس في كتابه لودفيغ فيورباخ^(٢) ، ان هذه الاكتشافات ، كما نعلم ، هي التي حددت التخلي عن الذهنية الميتافيزيقية ، وهي التي اجبرت العلماء ، ثم ماركس وانجلس على اعتبار الاشياء في حركتها الديالكتيكية .

أ - اكتشاف الخلية الحية ونموها^(٣) .

قبل هذا الاكتشاف اتخذت « الثبوتية » كأساس للتعليل . فاعتبرت الانواع كأنها غريبة عن بعضها . ثم ميز بوضوح بين المملكة الحيوانية من جهة ، والمملكة النباتية من جهة اخرى .

ثم حصل الاكتشاف الذي اتاح تحديد هذه الفكرة عن « التطور » ، الفكرة التي كان قد استشفها مفكرو القرن الثامن عشر وعلماءه ، والتي اتاحت لنا ان نفهم ان الحياة مصنوعة من تنالي الموت والولادة ، وان كل كائن حي هو تجمع من الخلايا ، هذه الملاحظة لم تسمح ببقاء اي حاجز بين الحيوانات والنباتات وطردت هكذا التصور الميتافيزيقي .

٣ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٠

٤ - شوان وشلايدن هما اللذان اقاما الاتصال بين المملكتين الكبيرتين للطبيعة الحية وذلك باكتشافهما للخلية العضوية « الوحدة التي ينمو فيها بالتكاثر والتناحيث كل الجسم النباتي والحيواني » .

ب - اكتشاف تحول الطاقة

مثل البيضة والدجاجة . من اين تأتي البيضة ؟ من الدجاجة . من اين تأتي الدجاجة ؟ من البيضة .

اذا اعتبرنا الاشياء هكذا ، لن يكون هناك سيرورة ، لكن حلقة ، وهذا المظهر اعطى فكرة « العود الابدي » . اي اننا سنعود دائما الى النقطة نفسها ، نقطة الانطلاق .

لكن لنر بدقة كيف تطرح المشكلة .

١ - هذه تفاحة .

٢ - التفاحة بتحللها . تولد شجرة او اشجارا .

٣ - ليس كل شجرة تعطي تفاحة ، بل تفاحا .

اذن لا نعود ابدا الى نقطة الانطلاق نفسها . نعود الى التفاحة ولكن على صعيد آخر .

كذلك اذا انطلقنا من الشجرة ، سيكون لدينا :

١ - شجرة تعطي .

٢ - تفاحا . وهذا التفاح سيعطي .

٣ - اشجارا .

هنا ايضا ، نعود الى الشجرة ، ولكن على صعيد آخر ، فوجهة النظر اتسعت .

ليس لدينا اذن حلقة كما تميل المظاهر لجعلنا نظن ذلك ، ولكن هناك سيرورة تطور سنسميه التطور التاريخي . التاريخ يظهر ان الوقت لا يمر بدون ان يترك اثرا . الزمن يمر لكن التطورات نفسها لا تعود . فالعالم يكون تطورا تاريخيا وكذلك الطبيعة والمجتمع ، تطورا نسميه في اللغة الفلسفية « حلزونيا » .

تستخدم هذه الصورة لتثبيت الافكار . انها إستعاره لتوضيح هذه الواقعة . ان الاشياء تتطور وفقا لسيرورة دائرية ، لكنها لا تعود ابدا الى نقطة الانطلاق ، بل تعود قليلا الى اعلى ، وعلى صعيد آخر ، وهكذا دواليك مما يعطي شكلا حلزونيا صاعدا .

ظن العلم قديما ان الصوت والحرارة والضوء مثلا ، هي غريبة عن بعضها بصورة كاملة . لكن اكتشف ان هذه الظواهر الاخرى تستطيع ان تتحول احداها في الاخرى ، وان هناك سيرورات في المسادة الجامدة كما في الطبيعة الحية . هذا الكشف هو ايضا ضربة موجة للذهنية الميتافيزيقية .

ج - اكتشاف التطور عند الانسان والحيوان

يقول انجلس ان داروين يبين ان جميع منتجات الطبيعة هي نقطة وصول لسيرورة طويلة من تطور الاجنة الوحيدة الخلية في الاصل : وكل شيء هو نتاج سيرورة طويلة اصلها في الخلية .

ويستنتج انجلس انه بفضل هذه الاكتشافات الثلاثة الكبرى نستطيع تتبع ترابط جميع الظواهر في الطبيعة وليس ذلك في مختلف الميادين فحسب ، بل ايضا بين مختلف الميادين .

فالعلوم هي التي اتاحت اذن اعلان قانون الفعل المتبادل .

ليس من قطع بين الممالك الثلاث . النباتية والحيوانية والمعدنية . بل سيرورات فقط . كل شيء يتربط وهذا صحيح بالنسبة للمجتمع . فمختلف المجتمعات التي مرت في تاريخ الناس يجب ان تعتبر كتتابع لترابط سيرورات ، احداها تخرج بالضرورة عن التي سبقتها .

يجب ان نحفظ اذن : ان العلم والطبيعة والمجتمع ، يجب ان ينظر اليها كترباط سيرورات ، وان المحرك الذي يعمل لنمو هذا الترابط هو الدينامية الذاتية .

٣ - النمو التاريخي او النمو الحلزوني

اذا تفحصنا عن كسب السيرورة التي بدأنا بمعرفتها ، نرى ان التفاحة هي نتيجة ترابط للسيرورات . من اين تأتي التفاحة ؟ تأتي من الشجرة . من اين تأتي الشجرة ؟ من التفاحة . يمكن الظن اذن ان لدينا حلقة مفرغة ندور فيها لنعود دائما الى نفس النقطة . شجرة تفاحة وتفاحة شجرة . كذلك اذا اخذنا

اذن العالم يتطور تطورا تاريخيا « حلزونيا » وكذلك الطبيعة والمجتمع والذي يحرك هذا التطور هو - ويجب ان لا ننسى هذا - الدينامية الذاتية .

٤ - خلاصة :

درسنا في الفصول الاولى في الديالكتيك القانونين الاولين : قانون التغير ، وقانون الفعل المتبادل . وقد كان ذلك ضروريا لنستطيع التصدي لدراسة قانون التناقض . لان هذا القانون هو الذي سيتيح لنا فهم القوة التي تحرك « التغير الديالكتيكي » ، الدينامية الذاتية .

في الفصل الاول الخاص بدراسة الديالكتيك ، رأينا لماذا خضعت هذه النظرية للتصور الميتافيزيقي وقتا طويلا . ولماذا كانت مادية القرن الثامن عشر ميتافيزيقية . والان نفهم بصورة أفضل ، وبعد ان رأينا بسرعة الاكتشافات الثلاثة الكبرى للقرن التاسع عشر ، والتي اتاحت تطور المادية لتصبح ديالكتيكية ، نفهم الآن لماذا كان ضروريا ان يعبر تاريخ الفلسفة المادية الحقبات الثلاث الكبرى التي نعرفها :

١ - مادية العصور القديمة (نظرية الذرات) .

٢ - مادية القرن الثامن عشر ميكانيكية وميتافيزيقية . لنصل اخيرا الى ،

٣ - المادية الديالكتيكية .

كنا قد اكدنا ان المادية تولدت من العلوم وارتبطت بها . نستطيع بعد هذه الفصول الثلاثة رؤية كم كان ذلك صحيحا . لقد رأينا في دراستنا للحركة وللتغير الديالكتيكي ، ثم في دراستنا لقانون الفعل المتبادل ، ان جميع تعليقاتنا متركزة على العلوم .

واليوم ، حيث الدراسات العلمية هي متخصصة حتى النهاية ، وحيث العلماء (الذين يجهلون الديالكتيك بصورة عامة) لا يستطيعون في بعض الاحيان فهم اهمية اكتشافاتهم الخاصة بالنسبة لمجمل العلوم ، يأتي دور الفلسفة . التي مهمتها ، كما قلنا ، اعطاء تفسير للعالم وللمشكلات الاكثر عمومية . وتلك مهمة المادية الديالكتيكية بصورة خاصة ، وهي ان تجمع كل الاكتشافات الخاصة بكل علم من العلوم لتحقيق توليفا ، وتعطي بهذا التوليف نظرية نجعلنا اكثر فاكثرا « اسياذ الطبيعة ومالكها » كما يقول ديكارت .

الفصل الرابع

القانون الثالث - التناقض

- ١ - الحياة والموت .
- ٢ - الاشياء تتحول الى ضدها .
- ٣ - اثبات ، نفي ، ونفي النفي .
- ٤ - تلخيص .
- ٥ - وحدة الاضداد .
- ٦ - اخطاء يجب تجنبها .
- ٧ - النتائج العملية للديالكتيك .

رأينا ان الديالكتيك يعتبر الاشياء وكأنها في تغير دائم ، وفي تطور مستمر ، وبكلمة واحدة خاضعة لحركة ديالكتيكية (القانون الاول) .

هذه الحركة الديالكتيكية ممكنة لان كل شيء ليس ، في اللحظة التي ندرسه فيها ، سوى حصيلة لترايط السيرورات ، اي ترايط الاطوار التي يخرج بعضها عن بعض . وبدفعنا لدراستنا الى الامام ، رأينا ان ترايط السيرورة هذا يتطور حتما مع الوقت الى حركة تتقدم « بالرغم من الرجوع المؤقت » الى الخلف .

وقد دعونا هذا التطور « تطورا تاريخيا » او « حلزونيا » ونعلم ان هذا التطور يولد ذاته بفضل الدينامية الذاتية .

ولكن ما هي قوانين الدينامية الذاتية الآن ؟ وما هي القوانين التي تتيح

للاطوار ان يخرج الواحد من الآخر ؟ هذا ما يسمى بـ « قوانين الحركة الديالكتيكية » .

ان الديالكتيك يعلمنا ان الاشياء ليست خالدة ، وان للاشياء بداية ومرحلة نضوج وشيخوخة ، وتنتهي بنهاية ، هي الموت .

جميع الاشياء تمر في هذه الاطوار : ولادة ، نضج ، شيخوخة ، نهاية ، لماذا الامر كذلك ؟ لماذا ليست الاشياء خالدة ؟

هذا سؤال قديم شغفت به البشرية دوما . لماذا يجب ان نموت ؟ هذه الحتمية لم تفهم ، والناس ، عبر التاريخ ، حلموا بالحياة الابدية وحلموا بالوسائل التي تغير حالة الامر الواقع هذه ، فاخترعوا في العصور الوسطى الادوية السحرية (اكسير الشباب او اكسير الحياة) .

لماذا اذن من ولد ملزم بالموت ؟ هذا قانون كبير للديالكتيك ، ولفهمه جيدا علينا ان نواجهه بالمتافيزيقيا .

١ - الحياة والموت :

من وجهة نظر الميتافيزيقا تعتبر الاشياء بشكل منجز ، في حد ذاتها ، ولان الميتافيزيقيا تدرس الاشياء بهذا الشكل ، فهي تنظر اليها بشكل احادي الجانب اي من جانب واحد فقط . ولذلك نستطيع القول عن هؤلاء الذين يرون الاشياء من جانب واحد انهم ميتافيزيقيون . بايجاز ، عندما يتفحص ميتافيزيقي ما الظاهرة التي نسميها الحياة ، يقوم بعمله بدون ان يربط هذه الظاهرة بظاهرة اخرى . فهو يرى الحياة ، لاجل الحياة . وفي ذاتها . بشكل احادي الجانب ويراه من جانب واحد . واذا تفحص الموت سيفعل الشيء نفسه ، وسيطبق نظريته الاحادية الجانب وسيستنتج قائلا : الحياة هي الحياة ، والموت هو الموت . وبين الاثنين لا شيء مشترك فلا نستطيع ان نكون احياء وامواتا في الوقت ذاته ، لانها شيان متعارضان ومتضادان بشكل كامل .

رؤية الاشياء هكذا ، هي رؤيتها بشكل سطحي . فاذا تفحصناها عن كثب ، نرى اننا لا نستطيع معارضتها الواحدة بالآخرى ، ولا نستطيع فصلها هكذا بعنف ، بما ان التجربة والواقع يظهران لنا ان الموت يكمل الحياة وانه

يتأتى من الحي .

وهل تستطيع الحياة ان تخرج من الموت ؟ نعم . لأن عناصر الجسد الميت ستتحول لتولد حياة اخرى وستتحول لتستخدم اسمدة في الارض التي ستصبح اكثر خصوبة مثلاً . فالموت ، في كثير من الحالات ، سيساعد الحياة ، وسيتيح لها ان تولد ، والحياة غير ممكنة ، حتى في الاجسام الحية نفسها ، لولا التجدد الدائم للخلايا التي تموت بخلايا اخرى تتولد^(١) .

تتحول الحياة والموت اذن بصورة دائمة احدهما في الاخرى ونلاحظ في كل الاشياء ثبات هذا القانون الكبير : الاشياء تتحول الى ضدها في كل مكان .

٢ - الاشياء تتحول الى ضدها :

الميتافيزيقيون يقابلون الاضداد ، لكن الواقع يبين لنا ان الاضداد تتحول واحدها في الآخر ، وان الاشياء لا تبقى هي ذاتها ، بل تتحول الى اضدادها .

فاذا تفحصنا الحقيقة والخطأ ، ظننا ان لا شيء مشترك بينهما ، الحقيقة هي الحقيقة ، وخطأ ما هو خطأ . هذه هي النظرية الاحادية الجانب ، التي بموجبها صحيح اننا لا نصادف اية تناقضات في الاشياء مادامنا نأخذها في حالة السكون وبوصفها عديمة الحياة ، كلا على حدة ، متجاوزة ومتعاقبة . واننا لنجد هنا بعض الخصائص التي هي مشتركة جزئياً ، ومتفاوتة جزئياً ، وربما متناقضة ، لكنها تكون في هذه الحالة موزعة بين اشياء متعددة ، وبالتالي فهي لا تنطوي بحد ذاتها على اي تناقض ، واننا لنستطيع ضمن حدود هذا المجال من المشاهدة ان ندبر امورنا على اساس النمط العادي ، الميتافيزيقي في التفكير . بيد ان الوضع يختلف تماماً حالما نأخذ الاشياء في حركتها ، في تبدلها ، في فعلها المتبادل بعضها في بعض . عندئذ تنخرط حالا في التناقضات (قارن : انجلس : انتي دوهرينغ ص ١٤٤) .

ومع ذلك اذا قلنا : « هاك انها تمطر ! » يحصل في بعض الاحيان اننا لا نهي

١ - انجلس : انتي دوهرينغ ، ص ١٤٤

كلامنا حتى تكون قد توقفت عن المطر . هذه الجملة صحيحة عندما بدأناها ثم تحولت الى خطأ . (اليونان كانوا قد لاحظوا ذلك في السابق وقالوا : حتى لا نخطيء يجب ان لا نقول شيئا) .

كذلك لناخذ مثل التفاحة من جديد . نرى تفاحة ناضجة على الارض فنقول « هذه تفاحة ناضجة » . ومع ذلك هي على الارض منذ بعض الوقت وقد ابتدأت بالتحلل بشكل اصبحت معه الحقيقة خطأ .

وتعطينا العلوم ايضا امثلة عديدة عن قوانين كانت معتبرة « حقيقة » خلال سنوات عديدة ، وظهرت « أخطاء » بعد التقدم العلمي .

نرى اذن ان الحقيقة تتحول الى خطأ . ولكن هل يتحول الخطأ الى حقيقة ؟ في بداية الحضارة ، تصور الناس ، خاصة في مصر ، حروبا بين الآلهة ليفسروا طلوع الشمس وغروبها . هذا خطأ بمقدار ما نقول ان الآلهة يدفعون الشمس او يجرونها لجعلها تتحرك . لكن العلم يوضح اسباب هذا التعليل جزئيا بقوله انه هناك بالفعل قوى (فيزيائية محضة على كل حال) تحرك الشمس . فنرى اذن ان الخطأ ليس متعارضاً مع الحقيقة بوضوح .

فاذا كانت الاشياء تتحول الى اضدادها ، فكيف يكون ذلك ممكنا ؟ كيف تتحول الحياة الى الموت ؟

فاذا لم يكن هناك الا الحياة ، الحياة مئة في المئة ، فهي لا تستطيع ابدا ان تكون الموت ، واذا كان الموت نفسه تماما ، الموت مئة في المئة ، سيكون من المستحيل ان يتحول احدها في الاخر . ولكن هناك ، موت في الحياة وايضا حياة في الموت .

واذا نظرنا الى ذلك عن كثب ، سنرى ان الكائن الحي مركب من خلايا ، وان هذه الخلايا متجددة دائما ، تختفي وتعود لتظهر في المكان نفسه . فهي تعيش وتموت في الكائن الحي بصورة مستمرة حيث يوجد في هذا الكائن اذن شيء من الموت وشيء من الحياة .

نعرف ايضا ان لحيمة الميت تتابع النمو ، كذلك الاظافر والشعر . هذه الظواهر المميزة بوضوح تبرهن ان الحياة تستمر في الموت .

في الاتحاد السوفياتي ، يحفظون في ظروف خاصة دم جثة يستخدم في عملية نقل الدم : وهكذا بدم ميت نعيد صنع حي . نستطيع القول بالتالي انه في احشاء الموت توجد الحياة .

« الحياة هي ايضا تناقض » موجود في الاشياء والظواهر نفسها ، تناقض يطرح ويحل بصورة مستمرة : وعندما يتوقف التناقض ، تتوقف الحياة ايضا ويحل الموت^(١) .

فلا تتحول الاشياء اذن احدها في الآخر فقط ، بل ان شيئا ما لا يكون ذاته فحسب ، بل شيئا آخر ايضا ، يكون هو ضده ، لان كل شيء يتضمن ضده .

فكل شيء يتضمن نفسه وضده في آن واحد .

فاذا مثلنا الشيء بدائرة ، سنحصل على قوة تدفع هذا الشيء نحو الحياة دافعة من المركز نحو الخارج مثلا (دفع) . لكن سيكون لدينا ايضا قوى تدفع هذا الشيء في الاتجاه المعاكس ، قوى الموت دافعة من الخارج نحو المركز (ضغط) .

هكذا ، في داخل كل شيء ، تتجاور القوى المتعارضة والمتناحرة .

ماذا يحدث بين هذه القوى ؟ تتصارع . وبالنتيجة ليس الشيء متحركا بقوة فاعلة باتجاه واحد ، ولكن كل شيء متحرك حقيقة بقوتين في اتجاهات متعاكسة . نحو اثبات الاشياء ونحونفيها ، نحو الحياة ، ونحو الموت . وماذا يعني اثبات الاشياء ونفيها ؟

في الحياة قوى تساند الحياة ، وتميل نحو اثباتها ، كما ان في الاجسام الحية قوى تميل نحو نفي الحياة . في جميع الاشياء قوى تميل نحو الاثبات واخرى نحو النفي وبين وبين النفي والاثبات يوجد التناقض .

تلاحظ الديالكتيك اذن التغير ، ولكن لماذا تتغير الاشياء ؟ لانها ليست منسجمة مع نفسها ، لان هناك صراعا بين القوى ، بين التناحرات

٢ - فارن انجلس انتي دوهرنج : ص ١٤٥

الداخلية ، لان هناك تناقضا . هذا هو القانون الثالث للديالككتيك . الاشياء تتغير لانها تتضمن التناقض في ذاتها .

(اذا كنا مرغمين في بعض الاحيان على استعمال كلمات يقل فيها التعقيد او يكثر (كديالككتيك ودينامية ذاتية الخ) ، او الفاظ تظهر كأنها مناقضة للمنطق التقليدي عسيرة الفهم ، فليس لاننا نحب تعقيد الاشياء حبا بالتعقيد وتقليد البورجوازية في هذا^(٣) كلا . لكن هذه الدراسة بالرغم من كونها اولية تريد ان تكون كاملة قدر الامكان ، فتسمح بعد ذلك بقراءة الاعمال الفلسفية لماركس وانجلز ولينين التي تستعمل هذه الالفاظ ، تسمح بقراءتها بسهولة . وبما اننا ، في جميع الاحوال نريد استخدام لغة فلسفية غير مستعملة فنحن مهتمون بجعلها مفهومة للجميع في اطار هذه الدراسة) .

٣ - اثبات ، نفى ، ونفي النفي :

علينا ان نميز هنا بين ما يسمى بالمناقضة الكلامية الذي تعني انه عندما يقال لكم « نعم » تقولون « لا » والتناقض الذي رأيناه للتو والذي دعوانه التناقض الديالككتيكي ، أعني التناقض في الوقائع وفي الاشياء .

عندما نتكلم عن التناقض الموجود في قلب المجتمع الرأسمالي ، فهذا لا يعني ان بعضهم يقول نعم وبعضهم يقول لا بصدد بعض النظريات ، هذا يعني ان هناك تناقضا في الوقائع ، وان هناك قوى واقعية تتحارب : قوة تميل الى اثبات نفسها اولا ، وهذه هي الطبقة البورجوازية ، التي تطمح الى صيانة ذاتها ، ثم قوة اجتماعية ثانية تطمح الى نفي الطبقة البورجوازية ، هي البروليتاريا . التناقض اذن هو في الوقائع ، لان البورجوازية لا تستطيع ان توجد بدون ان تخلق ضدها ، اي البروليتاريا . وكما يقول ماركس : « ان البورجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها »^(٤) .

لمنع هذا ، على البورجوازية ان تراجع عن كونها ذاتها ، وهذا سيكون

٣ - راجع مقال موبلان في La Vie Ouvrière No du-14 oct 1937

٤ - كارل ماركس وفريدريك انجلز : بيان الحزب الشيوعي - دار التقدم ص ٥٦

خلفا . وبالتالي باثبات ذاتها تخلق البورجوازية نفيها الخاص بها .

لنأخذ مثلا البيضة التي باضتها دجاجة وحضنتها : نلاحظ ان النطفة الموجودة في البيضة تتطور تحت تأثير حرارة معينة وفي شروط معينة . هذه النطفة بتطورها ستعطي صوصا . وهكذا فان هذه النطفة هي سلفا نفي سابق للبيضة . نرى جيدا ان في البيضة قوتين : تلك التي تميل ان تبقى بيضة ، وتلك التي تميل ان تصبح صوصا . البيضة اذن في تناقض مع ذاتها . وكل الاشياء هي في تناقض مع ذاتها .

قد يظهر هذا الامر صعبا على الفهم ، لاننا معتادون على طريقة التعليل الميتافيزيقي . ولذلك علينا ان نبذل جهدا لتعود من جديد على رؤية الاشياء في واقعها .

شيء ما يبدأ بكونه اثباتا يخرج من نفي . فالصوص هو اثبات يخرج من نفي البيضة . هذا طور من أطوار السيرورة ، لكن الدجاجة ستكون بدورها تحول الصوص ، وفي قلب هذا التحول سيكون هناك تناقض بين القوى التي تصارع حتى يصبح الصوص دجاجة ، والقوى التي تصارع حتى يبقى الصوص صوصا . فالدجاجة ستكون اذن نفي الصوص الذي خرج لتوه من نفي البيضة .

الدجاجة هي اذن نفي النفي ، وهذا هو السير العام لأطوار الديالككتيك .

١ - اثبات ونقول ايضا الاطروحة .

٢ - نفي او الاطروحة النقيض .

٣ - نفي النفي او التوليف .

هذه الكلمات الثلاث تختصر التطور الديالككتيكي ، وسنستخدمها لتمثل ترابط الاطوار ، ونشير الى ان كل طور هو تدمير للطور السابق .

فالتدمير هو نفي ، الصوص هو نفي البيضة ، لانه بولادته يدمر البيضة . سنبله القمح كذلك هي نفي لحبة القمح . الحبة ستنبت في الارض ، هذا النبات هو نفي لحبة القمح التي ستعطي النبتة وهذه النبتة بدورها ستزدهر وتعطي سنبله ، والسنبله ستكون نفياً للنبتة او نفي النفي .

نرى اذن ان النفي الذي تكلم عنه الديالكتيك هو شكل مختصر للكلام عن التدمير . هناك نفي لما اختفى ، لما يدمر .

١ - الاقطاعية كانت نفيا للرقية .

٢ - الرأسمالية هي نفيا للاقطاعية .

٣ - الاشتراكية هي نفيا للرأسمالية .

كما ميزنا بالنسبة للتناقض بين مناقضة كلامية ، وتناقض منطقي ، يجب ان نفهم ما هو النفي الكلامي ، الذي يقول : « لا » والنفي الديالكتيكي الذي يعني « التدمير » .

ولكن اذا كان النفي يعني تدميرا ، فلا يقصد بذلك اي تدمير كان ، ولكن يقصد بذلك التدمير الديالكتيكي ، وهكذا عندما نسحق البرغوت ، لا يموت بتدمير داخلي ، بنفي ديكالكتيكي ، تدميره ليس نتيجة لاطوار دينامية ذاتية ، بل هو نتيجة تغير ميكانيكي محض .

فالتدمير هو نفي اذا كان فقط نتيجة لاثبات او اذا انبثق منه ، وهكذا : البيضة المحضونة هي اثبات لما عليه البيضة وهي تتضمن نفيا . تصبح صوصا فتخرق القشرة وتدمرها ، هذا الصوص هو رمز للتدمير او لنفي البيضة .

نرى في الصوص قوتين متخاصمتين : « صوص » و « دجاجة » ، خلال تطور السيرورة الدجاجة تبيض البيض ومن هنا نفي النفي . ومن هذه البيضات ينطلق اذن ترابط جديد للسيرورات .

كذلك نحن نرى اثباتا بالنسبة للقمح ، ثم نفي ، ونفي للنفي .

وسنعطي مثلاً آخر على ذلك ، الفلسفة المادية .

في البدء ، نجد المادية بدائية وعفوية ، وبما انها جاهلة ، فهي تخلق نفيا الخاص اي المثالية . لكن المثالية التي تنفي المادية القديمة ستفنيها المادية الحديثة او المادية الديالكتيكية ، لان الفلسفة تتطور وستحدث هذه الفلسفة مع العلوم تدمير المثالية ، اذن هنا ايضا لدينا اثبات ونفي ، ونفي للنفي .

نلاحظ ايضا نفس الامر في تطور المجتمع .

نلاحظ في بدء التاريخ وجود مجتمع من الشيوعية البدائية ، مجتمع بلا طبقات قائم على الملكية المشتركة للأرض . لكن هذا الشكل من الملكية يصير عائقاً لتطور الانتاج ، ويخلق بذلك بالذات نفيا الخاص : المجتمع الطبقي القائم على الملكية الخاصة وعلى استغلال الانسان للانسان . لكن هذا المجتمع يحمل ايضا في ذاته ، نفيا الخاص ، لان التطور في وسائل الانتاج يمر معه ضرورة نفي انقسام المجتمع الى طبقات ونفي الملكية الخاصة . ونعود هكذا الى نقطة الانطلاق : ضرورة المجتمع الشيوعي ولكن على صعيد آخر ؛ في البدء كان لدينا نقص في المنتجات ، اليوم لدينا قدرة على الانتاج مرتفعة جدا .

لنلاحظ في هذا الموضوع انه ، بالنسبة لجميع الامثلة التي اعطيناها ، نعود فعلا الى نقطة الانطلاق ولكن على صعيد آخر (تطور حلزوني) صعيد اعلى .

نرى اذن ان التناقض هو قانون ديكالكتيكي كبير . وان التطور هو صراع قوى متناحرة . وان الاشياء لا يتحول فقط احدها الى الآخر ، بل كل شيء يتحول الى ضده . وان الاشياء متنافرة مع ذاتها ، لان صراعا بين القوى المتعارضة موجود في داخلها ، ولانها تحوي تناقضا داخليا .

ملاحظة :

علينا ان ننتبه الى هذا الامر : ان الاثبات والنفي ونفي النفي ليست سوى تعابير مختصرة لازمة التطور الديالكتيكي ، وانه لا يجب علينا ان نجوب العالم لنجد هذه الاطوار في كل مكان . لاننا لن نجد جميعها دائما ، فنجد في بعض الاحيان الاولى فقط او الثانية ، لان التطور لم ينته بعد . اذن لا نشد رؤية هذه التغيرات كما هي بصورة آلية في جميع الاشياء . لنحفظ خاصة ان للتناقض هو القانون الكبير للديالكتيك . وهذا هو الاساسي .

٤ - تلخيص :

سبق ان علمنا ان الديالكتيك هو منهج في التفكير وفي التعليل والتحليل يتيح الملاحظة جيدا ، ويتيح الدراسة جيدا ، لانه يرغمنا على البحث عن مصدر كل شيء ووصف تاريخه .

طبعاً ، كان للمنهج القديم في التفكير ، كما رأينا ضرورته في زمنه . لكن الدراسة في ضوء المنهج الديالكتيكي ، هي ولنعُد ذلك ، ملاحظة أن جميع الأشياء التي هي في ظاهرها فقط ثابتة ، ليست سوى ترابط للسيرورات حيث لكل شيء بداية ونهاية ، وحيث في كل شيء :

« يشق التطور في آخر المطاف طريقاً لنفسه رغم جميع الأعراض الظاهرة . ورغم الخطوات المؤقتة إلى وراء » .

وحده الديالكتيك يتيح لنا فهم نمو الأشياء وتطورها ، وحده يتيح لنا فهم تدمير الأشياء القديمة وولادة الأشياء الجديدة . وحده فقط يفهمنا جميع التطورات في تحولاتها ، فيعرفنا بها ككل مكون من تضادات . فالنمو الطبيعي للأشياء والتطور بالنسبة للتصور الديالكتيكي هو صراع دائم للقوى وللمبادئ المتعارضة .

فإذا كان القانون الأول بالنسبة للديالكتيك هو ملاحظة الحركة والتغير : « لا شيء يبقى كما هو ، ولا شيء يبقى حيثما هو » (انجلس) فإننا نعلم الآن أن تفسير هذا القانون يكمن في كون الأشياء تتغير ليس فقط بتحولها بعضها في البعض الآخر ، ولكن بتحولها إلى تضاداتها ، فالتناقض هو إذن قانون ديالكتيكي كبير .

درسنا ما هو التناقض من وجهة نظر الديالكتيك ، ولكن علينا أن نصر عليه لنقدم بعض الإيضاحات ، ونشير إلى بعض الأغلاط التي يجب تجنبها .

من المؤكد أنه علينا أن نعتاد هذا التأكيد ، المنسجم مع الحقيقة : علينا أن نعتاد تحول الأشياء إلى تضاداتها ، طبعاً هذا الأمر يصدم الفهم ، يشير دهشتنا ، لاننا معتادون على التفكير بالمنهج الميتافيزيقي القديم . لكننا رأينا لماذا الأمر كذلك ، ورأينا بشكل مفصل ، وبواسطة الأمثلة أن ذلك هو كذلك في الواقع ، ورأينا لماذا تتحول الأشياء إلى تضاداتها .

لذلك نستطيع القول والتأكيد أنه إذا تحولت الأشياء وتغيرت وتطورت

٥ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٨

فذلك لانها في تناقض مع ذاتها ، ولانها تحمل نقيضها في ذاتها ، ولانها تحوي في ذاتها وحدة التضادات .

٥ - وحدة التضادات :

كل شيء هو وحدة تضادات .

إن تأكيد شيء كهذا يظهر خلفاً لأول وهلة . « فالشيء وضده لا يملكان أي شيء مشتركاً » ، هكذا يُظنُّ عموماً . ولكن بالنسبة للديالكتيك ، كل شيء هو ذاته وضده في الآن نفسه ، كل شيء هو وحدة تضادات ، وعلينا أن نشرح ذلك جيداً .

وحدة التضادات ، بالنسبة للميتافيزيقي ، هي ضرب من المستحيل . فالأشياء مصنوعة من القماش نفسه بالنسبة له ، وهي منسجمة مع ذاتها . وها نحن نؤكد العكس ، فنذكر أن الأشياء مصنوعة من قماشين - ذاتها وتضاداتها - وأن فيها قوتين تتحاربان لأن الأشياء ليست منسجمة مع ذاتها وتناقض ذاتها .

إذا أخذنا مثل الجهل والعلم أي المعرفة ، نعلم أنه من وجهة نظر الميتافيزيقي هذان شيان متعارضان كلياً ومتضادان . فالجاهل ليس بعالم ، والعالم ليس بجاهل .

ومع ذلك إذا نظرنا إلى الوقائع ، نرى أنها لا تفصح مجالاً لتعارض صلب كهذا ، نرى أن الجهل كان غمياً في أول الأمر ، ثم قدم العلم ، وثبت هنا أن الشيء تحول إلى ضده : فتحول الجهل إلى علم .

ليس من جهل بدون علم ، وليس من جهل مئة في المئة . فالفرد ، مهما يكن جاهلاً ، يستطيع التعرف على مواد غذائية ، فليس هناك جهل مطبق . هناك دائماً حصة للعلم في الجهل . فالعلم موجود قبل ذلك كنقطة في الجهل ، فالتأكيد إذن ، أن ضد الشيء في الشيء ذاته ، هو صحيح .

لننظر الآن إلى العلم ، هل من الممكن وجود العلم مئة في المئة ؟ كلا ، نحن نجهل دائماً شيئاً ما : فلقد قال لينين : « موضوع المعرفة لا ينضب » ، هذا

يعني ان هناك حاجة للتعليم دائما . لا وجود للعلم المطلق . فكل معرفة وكل علم يتضمن قسما من الجهل^(٦) .

ان ما يوجد في الواقع ، هو جهل نسبي ، وعلم نسبي ، خليط من العلم والجهل .

اذن لا نلاحظ تحول الاشياء الى اضدادها في هذا المثل بل وجود الاضداد او وحدة الاضداد في الاشياء نفسها .

نستطيع اخذ الامثلة التي رايناها سابقا من جديد : الحياة والموت ، الصواب والخطأ ، وسنلاحظ وجود وحدة الاضداد في هذه الحالة او تلك ، كما في كل الاشياء ، اي ان كل شيء يحتوي نفسه وضده في آن واحد . ولذلك سيقول انجلس :

« اذا تمسكنا دائما في البحث بوجهة النظر هذه ، فإن طلب الحلول الحاسمة والحقائق الخالدة يفقد ، بالنسبة لنا ، كل معنى الى الابد ، ونحن لا ننسى ابدا ان كل معارفنا المكتسبة محدودة بالضرورة ، وتحددها الظروف التي نكتسبها فيها ومع ذلك لم يبق الآن من الممكن ان تثير في نفوسنا فائق الاحترام تلك التناقضات المستعصية على المتناهي يقيا القديمة التي لا تزال مع ذلك واسعة الانتشار حتى الآن ، كالتناقضات بين الحقيقة والخطأ ، بين الخير والشر ، بين التشابه والاختلاف ، بين الضرورة والعرض ، ونعلم ان لهذه التناقضات قيمة نسبية فقط ، اي ان ما هو معترف به في الوقت الحاضر كحقيقة ، له جانبه الخطأ المخفي الآن ولكنه يظهر مع الزمن ، والمثل بالمثل ، فان ما هو معترف به الآن كخطأ ، له جانبه الحقيقي الذي بسببه كان من الممكن اعتباره سابقاً كحقيقة^(٧) .

هذا النص لانجلس يظهر لنا جيدا كيف يجب ان نفهم الديالكتيك والمعنى الحقيقي لوحدة الاضداد .

٦ - قصة العلوم هي قصة ابعاد الخطأ بصورة تدريجية اي استبداله بخطأ جديد لكنه اقل خلفا (انجلس) .

٧ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٨ - ٤٩

٦ - اخطاء يجب تجنبها :

يجب ان نفسر جيدا هذا القانون الكبير للديالكتيك الذي هو التناقض حتى لا نخلق سوء فهم للموضوع .

اولا ، يجب ان لا يفهم بشكل آلي ، فلا يظن ان ثمة الحقيقة بالاضافة الى الغلط ، الخطأ بالاضافة الى الصواب ، موجودة في كل معرفة .

اذا طبقنا هذا القانون على هذا الشكل ، سندعم اولئك الذين يقولون انه في كل الآراء ، هناك جزء من الخطأ مع جزء من الصواب وانه : « اذا انتزعنا ما هو خطأ يبقى ما هو صواب ، ما هو جيد » . يقال ذلك في بغض الاوساط التي تدعي الماركسية ، حيث يظن ان الماركسية على حق في اظهارها ، المصانع والتروستات والبنوك التي تسيطر على الحياة الاقتصادية في الرأسمالية ، وانها على حق في القول ان هذه الحياة الاقتصادية تسير بشكل سيء ، لكنهم يضيفون ان ما هو خطأ في الماركسية هو صراع الطبقات : فلترك جانبا نظرية صراع الطبقات وسيكون لدينا مذهب جيد . يقال ايضا ان الماركسية صحيحة وحقيقة اذا طبقت على دراسة المجتمع . لكن لماذا نخلطها بالديالكتيك ؟ هذا هو الجانب الخطأ لننتزع الديالكتيك ولنحتفظ بباقي الماركسية بوصفه صواباً . هذه تفسيرات ميكانيكية لوحدة الاضداد .

لنر ايضا مثلاً آخر : ظن برودون ، بعد ان اخذ علما بنظرية الاضداد ، ان في كل شيء جانبا سيئا وجانبا حسنا . كما ان في المجتمع البورجوازية والبروليتاريا بصورة ثابتة : كان يقول : لنتزع ما هو سيء : البروليتاريا ، وهكذا اقام سيئته عن القروض التي يجب ان تخلق الملكية المجزأة : اي السماح للبروليتاريا بان تصبح مالكة ، بهذا الشكل لن يكون هناك الا البورجوازية ، وسيصبح المجتمع جيدا .

ومع ذلك نحن نعرف جيدا انه لا وجود للبروليتاريا بدون برجوازية ، وان البورجوازية لا توجد الا بها : هذان ضدان لا ينفصلان . وحدة الاضداد هذه هي داخلية ، حقيقية : هي وحدة لا تنقسم . فلا يكفي اذن ، للقضاء على الاضداد ان نقطع هذا اوداك . ففي مجتمع قائم على استغلال الانسان

للإنسان ، توجد طبقتان متناحرتان بصورة الزامية : اسياذ وعبيد في العصور القديمة ، اشراف واقنان في القرون الوسطى ، بورجوازية وبروليتاريا اليوم .

وللقضاء على المجتمع الرأسمالي ، ولتحقيق مجتمع بدون طبقات ، علينا القضاء على البورجوازية والبروليتاريا ، حتى نسمح للناس الاحرار ان يخلقوا مجتمعا اكثر تطورا من الناحية المادية والعقلية ، للسير نحو الشيوعية في شكلها الاسمي ، وليس لخلق شرعية « مساواتية في البؤس » كما يدعي خصومنا .

فعلينا اذن الانتباه . عندما نفسر او نطبق وحدة الاضداد على دراسة ما او على مثل ما ، نفى النفي مثلا ، علينا ان نتجنب تطبيقه الآلي او ايجاده في كل مكان . كذلك ايجاد وحدة الاضداد دائما وفي كل مكان . لان معارفنا محدودة جدا بصورة عامة ، ومن الممكن ان يؤدي بنا ذلك الى مأزق كثيرة .

المهم هو هذا المبدأ : الديالكتيك وقوانينه ترغمنا على دراسة الاشياء لاكتشاف تطورها ولاكتشاف القوى ، اي الاضداد التي تحدد هذا التطور . علينا اذن دراسة وحدة الاضداد المتضمنة في الاشياء . الوحدة هذه تعني القول : ان اي اثبات ليس بمطلق لانه يتضمن قسما من النفي في ذاته . وهذا هو الاساس : الاشياء تتحول لاسها تتضمن نفيها الخاص . فالنفي هو « المحول » والاشياء لا تتحول اذا لم تكن موجودة . وبما ان الاشياء تتحول في الواقع ، فيجب ان تتضمن مبدأ محولا . ولاننا نرى الاشياء تتطور نستطيع ان نؤكد وجوده مسبقا ، لكننا لا نستطيع اكتشاف هذا المبدأ بدون دراسة الشيء ذاته بصورة دقيقة ، لانه لا يملك المظهر نفسه في جميع الاشياء .

٧ - النتائج العملية للديالكتيك :

يرغمنا الديالكتيك عمليا اذن على اعتبار الاشياء ليس فقط من جانب واحد ، بل من جانين : عدم اعتبار الحقيقة ابدأ بدون الخطأ ، ولا العلم بدون الجهل . فخطأ الميتافيزيقيا الاكبر هو اعتبار جانب واحد للاشياء ، والحكم بشكل احادي الجانب . واذا ارتكبنا كثيرا من الاخطاء فذلك دائما بمقدار رؤيتنا للاشياء ، من جانب واحد ، ولاننا نقوم غالبا بتعليلات احادية الجانب .

واذا اكدت الفلسفة المثالية ان العالم لا يوجد الا في افكار الناس ، فيجب الاعتراف ان هناك اشياء لا توجد بالفعل الا في فكرنا . ذلك صحيح ، لكن المثالية ، هي الاحادية الجانب ، ولا ترى سوى هذا المظهر . لا ترى سوى الانسان الذي يخلق اشياء لا وجود لها في الواقع ، وتستنتج ان لا شيء خارج افكارنا : ان المثالية على حق في الاشارة لهذه الملكية في الانسان ، ولكنها لا ترى سواها ما دامت لا تطبق معيار الممارسة ابدأ .

كذلك تخطئ الميتافيزيقيا لانها لا ترى الا جانبا واحدا للمشكلات . ترى الكون ميكانيك . هل الميكانيك موجود ؟ هل يلعب دورا كبيرا ؟ نعم ، المادية الميتافيزيقية على حق اذن في قول ذلك ، ولكن الخطأ في رؤية الحركة الميكانيكية فقط .

وبطبيعة الحال ، نحن ننزع لرؤية جانب واحد للاشياء وللناس . اذا حكمنا على رفيق ، فاننا لا نرى تقريبا الا جانبه الحسن او جانبه السيئ . يجب ان نرى الجانبين ، وبدون ذلك ، لن نتمكن من ان يكون لدينا كادرات في التنظيمات . في الممارسة السياسية يؤدي منهج الحكم الاحادي الجانب الى التزمت . واذا صادفنا خصما ينتمي لتنظيم رجعي ، فنسحك عليه في ضوء الحكم على رؤسائه ، ومن الممكن ان يكون بكل بساطة مستخدما ساخطنا ومتذمرا يجب ان لا نحكم عليه وكأنه رب عمل فاشي كبير . نستطيع تطبيق هذه المحاكمة على ارباب العمل ونفهم انه ، اذ يظهرون سيئين لنا فذلك غالبا لانهم خاضعون ، هم انفسهم ، لبنية المجتمع ، وانه من الممكن ان يصبحوا مختلفين في ظروف اجتماعية اخرى .

اذا كنا نفكر في وحدة الاضداد ، فنحن سنعتبر الاشياء بمظاهرها المتعددة . فنرى ان هذا الرجعي ، هو رجعي من جهة ، وهو عامل من جهة اخرى وان لديه تناقضا . سنبحث وسنجد لماذا انتسب الى هذا التنظيم ، وسنبحث في الوقت نفسه لماذا كان عليه ان لا ينتسب ، وعندئذ سنحكم وسناقش هذا بشكل اقل تزمتا .

يجب علينا اذن ، وفقا للديالكتيك ، اعتبار الاشياء من جميع الزوايا التي نستطيع تمييزها .

ولكي نوجز ، سنقول ، كنتيجة نظرية : الاشياء تتغير لانها تتضمن تناقضا داخليا (فواتها واضدادها) الاضداد في نزاع . والتغيرات ستشأ من هذه النزاعات ، فالتغير هو حل للنزاع .

الراسمالية تحوي هذا التناقض الداخلي ، هذا النزاع بين البروليتاريا والبورجوازية ، التغير يفسر بهذا النزاع ، وتحول المجتمع الراسمالي الى مجتمع شيوعي هو القضاء على النزاع .

هناك تغير وحركة حيث يوجد تناقض . فالتناقض هو نفي الاثبات ، وعندما نحصل على الحد الثالث اي نفي النفي يظهر الحل ، لان سبب التناقض سيكون في هذه اللحظة مبعدا او متجاوزا .

نستطيع القول اذن : انه ، وان درست العلوم ، الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا ، قوانين التغير الخاصة بها ، فان الديالكتيك يدرس قوانين التغير التي هي اكثر عمومية . انجلس يقول :

« ليس الديالكتيك شيئا آخر سوى علم القوانين العامة للحركة وللتطور في الطبيعة وفي المجتمع البشري وفي الفكر^(٨) » .

للقرأة

- انجلس : أنتي دوهرنغ : « الجدلية - انكار الانكار » : ص ١٥٥
- لينين : كارل ماركس ومذهبه . المختارات بالعربية . دار التقدم .

٨ - قارن انجلس : أنتي دوهرنغ ص ١٦٩ .

الفصل الخامس

القانون الرابع

تحول الكمية الى كيفية او قانون التقدم بالقفز

١ - اصلاحات ام ثورة ؟

أ - التدليل السياسي

ب - التدليل التاريخي

ج - التدليل العلمي

٢ - المادية التاريخية :

أ - كيف نفسر التاريخ ؟

ب - التاريخ هو من صنع الناس .

يبقى علينا الآن ، وقبل مباشرة مشكلة تطبيق الديالكتيك على التاريخ ، دراسة القانون الاخير للديالكتيك .

سيكون ذلك سهلا بالدراسات التي سبق وحققناها ، حيث رأينا ما هو نفي النفي ، وماذا نعني بوحدة الاضداد .
كالمعتاد سنتوسل الامثلة .

١ - اصلاحات ام ثورة ؟

يقال ، عند الكلام على المجتمع : هل نعمل الى اصلاحات ام نحقق الثورة ؟ ونحن نناقش لمعرفة هذا الامر ، هل نتوصل لتحويل المجتمع الراسمالي الى مجتمع اشتراكي باصلاحات متتابعة ام بتحول سريع : الثورة .
امام هذه المشكلة ، لتذكر من جديد ما درسناه سابقا : كل تحول هو نتيجة صراع القوى المتعارضة . فاذا تطور شيء ، فذلك لانه يتضمن ضده في ذاته

ما دام كل شيء هو وحدة الاضداد . نلاحظ صراع الاضداد ، وتحول الشيء الى ضده . لكن كيف يتم هذا التحول ؟ هذه هي المشكلة الجديدة التي تطرح نفسها .

يمكن الظن ان هذا التحول يتم قليلا قليلا ، بمجموعة من التحولات الصغيرة وان التفاحة الخضراء تتحول الى تفاحة ناضجة بتأثير مجموعة من التغيرات المتدرجة .

كثير من الناس يظنون ان المجتمع يتحول قليلا قليلا ، وان نتيجة مجموعة هذه التحولات الصغيرة سيكون تحول المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي . هذه التحولات الصغيرة هي الاصلاحات ، ومجموعها سيكون مجموع التغيرات الصغيرة المتدرجة التي ستعطينا مجتمعا جديدا .

هذه هي النظرية المسماة « الاصلاحية » . ويسمى انصار هذه النظريات الاصلاحيين ، ليس لانهم يطلبون الاصلاحات ، بل لانهم يعتقدون ان الاصلاحات تكفي ، وانه بتراكمها يجب ان تحول المجتمع بصورة لا شعورية .

لننظر لما اذا كان ذلك صحيحاً :

أ - التدليل السياسي :

اذا نظرنا الى الوقائع ، اي الى ما حدث في البلدان الاخرى ، سنرى انه اينما جربت هذه الطريقة لم تنجح . لقد نجح تحويل المجتمع الرأسمالي - تدميره - في بلد وحيد : الاتحاد السوفياتي . ونلاحظ ان ذلك لم يتم بمجموعة من الاصلاحات بل بالثورة .

ب - التدليل التاريخي :

هل صحيح ، بصورة عامة ، ان الاشياء تتحول بتغيرات صغيرة ، باصلاحات ؟ لننظر دائما الى الوقائع : اذا تفحصنا التغيرات التاريخية ، سنرى انها لا تحدث بلانهاية ، وانها ليست متصلة . ويحين الوقت الذي يحدث فيه التغير بقفزة فجائية بدل التغيرات الصغيرة .

فالاحداث المهمة ، التي نلاحظها في تاريخ المجتمعات ، هي تغيرات فجائية هي ثورات .

حتى الذين لا يلمون بالديالكتيك يدركون في ايماننا ، ان تغيرات عنيفة حدثت في التاريخ . ومع ذلك كان يعتقد ، حتى القرن السابع عشر ، ان « الطبيعة لا تحقق قفزات » ولا تحقق وثبات ؛ لم يكن يراد رؤية التغيرات السريعة في اتصال التغيرات . لكن العلم تدخل وبين ، بالوقائع ، ان تغيرات تتحقق فجأة . فتورة ١٧٨٩ فتحت الاعين بصورة أفضل ، كانت بذاتها مثالا بديهيًا على القطع الواضح مع الماضي . وتوصلنا الى ملاحظة ان المراحل الفاصلة للتاريخ كانت وما تزال اضطرابات مهمة وسريعة وفورية . فروابط الصداقة التي كانت بين هذه الدولة او تلك اصبحت اكثر برودة ومتوترة ، تسمت هذه الروابط وارتدت طابع العدوانية . ودفعة واحدة كانت الحرب كقطع فجائي في استمرارية الاحداث . في المانيا ايضا بعد الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ كان هناك صعود متدرج للفاشية . وذات يوم تسلم هتلر السلطة : فدخلت المانيا مرحلة تاريخية جديدة .

الذين لا ينكرون اليوم هذه التغيرات السريعة يدعون انها أعراض لان العرض شيء يحدث وكان من الممكن ان لا يحدث .

هكذا تفسر الثورات في تاريخ المجتمعات بانها أعراض .

يشرحون مثالا فيما يختص بناريخ فرنسا ان سقوط لويس السادس عشر وحدوث الثورة الفرنسية بان لويس السادس عشر كان انسانا ضعيفا ، مخنثا ، « ولو كان رجلا قويا لما حصلت الثورة » . ونقرأ ايضا انه ، لو لم يمدد فترة طعامه في فارين ، لما كانوا اعتقالوه ، ولكان تغير مجرى التاريخ . يقال اذن الثورة الفرنسية هي عرض .

لكن الديالكتيك يعترف ان الثورة حتمية . هناك تغيرات متصلة ولكنها بتراكمها ، تنتهي باحداث تغيرات سريعة .

ج - التدليل العلمي :

لنأخذ مثل الماء . ولنتطلق من درجة الصفر ونرفع درجة الحرارة صعودا من ١ إلى ٢ الى ٣ حتى ٩٨ درجة ، التغير هنا متصل . ولكن هل يمكن متابعة ذلك الى ما لا نهاية؟ نذهب حتى ٩٩ درجة ولكن في الدرجة ١٠٠ لدينا تغير سريع : الماء يتحول الى بخار .

اذا نزلنا بصورة عكسية من ٩٩ درجة الى ١ ، سنحصل من جديد على تغير متصل ولكننا لن نستطيع النزول الى ما لا نهاية ، لانه في درجة الصفر يتحول الماء الى ثلج .

من ١ الى ٩٩ درجة يبقى الماء دائما ماءً ، ولا تتغير الا حرارته . هذا ما نسميه تغيرا كميًا ، انه التغير الذي يجيب عن السؤال : «كم؟» أي «كم الحرارة في المياه؟» . فعندما يتحول الماء الى ثلج او الى بخار فاننا نحصل على تغير نوعي ، تغير في الكيفية . فهذا ليس بماء . لقد اصبح ثلجا او بخارا .

فعندما لم تتغير طبيعة الشيء ، كان لدينا تغير كمي (في المياه لدينا تغير في درجة الحرارة وليس في الطبيعة) . وعندما تغيرت طبيعة الشيء ، واصبح شيئا آخر ، صار التغير نوعيا .

نرى اذن ان تطور الاشياء لا يمكن ان يكون كميًا الى ما لا نهاية : فالاشياء بتحولها ، تخضع في نهاية الامر لتغير نوعي . فنتحول الكمية الى كيفية . هذا قانون عام . ولكن علينا ان لا نكتفي ، كالعادة ، بهذه الصيغة المجردة فقط .

سنجد في كتاب انجلس - انتي دوهرنغ ، في فصل «ديالكتيك ، الكمية والكيفية» سنجد في هذا الكتاب عددا كبيرا من الامثلة التي ستفهمنا انه في كل شيء كما في علوم الطبيعة ، تتبرهن صحة القانون الذي بموجبه :

« عند درجة معينة من التغير الكمي يحدث فجأة تحول كيفي»^(١)

١ - فارن انجلس : انتي دوهرنغ : ص ١٥٠

ها كم مثلا جديدا ، ذكره هـ . فالون في الجزء السابع من الموسوعة الفرنسية (حيث يحيل على انجلس) : ان الطاقة العصبية المتراكمة عند طفل ما تحدث الضحك ، لكن اذا تواصل تعاضمها ، تحول الضحك الى ازمة من الدموع ، وهكذا يتهيح الاطفال ، ويضحكون بقوة كبيرة فينتهون بالبكاء .

سنعطي مثلا اخيرا نعرفه جيدا : مثل الرجل الذي يقدم ترشيحه لنيابة ما . فاذا وجب ٤٥٠٠ صوت للحصول على الاكثرية المطلقة ، فلا يفوز المرشح بـ ٤٤٩٩ صوتا فيبقى كما هو ويبقى مرشحا . صوت واحد يزيد ويؤدي التغير الكمي هذا الى تغير كيفي ، ما دام المرشح قد أصبح نائبا .

ان هذا القانون يحمل لنا حل المشكلة : اصلاح أم ثورة .

الاصلاحيون يقولون : «تريدون اشياء مستحيلة لا تحصل الا عرضا ، انتم طوباويون» . لكننا بواسطة هذا القانون نرى جيدا من هم الذين يحملون باشياء مستحيلة! فدراسة ظاهرات الطبيعة والعلم تظهر لنا ان التغيرات ليست مستمرة الى ما لا نهاية ، بل ان التغير يصبح سريعا في وقت معين ، ولسنا نحن الذين نؤكد ذلك بل العلم والطبيعة والواقع !

هكذا نستطيع التساؤل : ما هو الدور الذي نلعبه نحن في هذه التغيرات السريعة ؟

سنجيب على هذا السؤال وسنوسع هذه المشكلة بتطبيق الديالكتيك على التاريخ . ها نحن وصلنا الى قسم مشهور جدا من المادية الديالكتيكية : المادية التاريخية .

٢ - المادية التاريخية :

ما هي المادية التاريخية ؟ بعد ان عرفنا الان ما هو الديالكتيك ، (نقول) ان المادية التاريخية هي تطبيق هذا المنهج على تاريخ المجتمعات الانسانية .

ولفهم ذلك جيدا يجب تحديد ، ما هو التاريخ . فالذي يقول تاريخ يقول تغير ، وتغير في المجتمع . وللمجتمع تاريخ يتغير عبره باستمرار ، نحن نرى

فيه وقوع أحداث مهمة . فتطرح هذه المشكلة عند ذلك : بما ان المجتمعات تتغير في التاريخ . فما الذي يفسر هذه التغيرات ؟

أ - كيف نفسر التاريخ ؟

هكذا يتساءلون : « لاية اسباب يجب ان تعود الحرب ؟ فالناس يجب ان يتمكنوا من العيش بسلام ! »

سنقدم اجوبة مادية على هذه الاسئلة .

فالحرب ، كما فسرنا ، احد احبار الكنيسة ، هي عقاب من الله ! هذا جواب مثالي ، لانه يفسر الاحداث بالله ، هذا تفسير للتاريخ بواسطة الروح ، هنا الروح هي التي تخلق التاريخ وتصنعه .

الكلام عن العناية الالهية هو ايضا جواب مثالي . فهتلر هو الذي يقول لنا في « كفاحي » ، ان التاريخ هو عمل العناية الالهية ، ويشكر العناية الالهية لجعلها مكان ولادته على الحدود النمساوية .

لكن جعل الله ، او العناية الالهية ، مسؤولة عن التاريخ هي نظرية مناسبة : فالناس لا تستطيع شيئا وبالتالي لا نستطيع شيئا ضد الحرب ، فيجب ان تركهم يعملون !

هل نستطيع ، من وجهة نظر علمية ، دعم نظرية كهذه ؟ هل نستطيع ايجاد تبرير لها في الوقائع ؟ كلا .

ان اول تأكيد مادي في هذا النقاش هو ان التاريخ ليس من صنع الله ، بل من صنع البشر . هكذا يستطيع الناس التأثير في التاريخ ويتمكنون من الحصول دون الحرب .

ب - التاريخ من صنع الناس :

« وايا كان سير للتاريخ ، فان الناس يصنعونه على النحو التالي : كل فرد يقصد اهدافه الموضوعية عن وعي وادراك ، اما مجموع هذه الكثرة من المساعي التي تعمل في اتجاهات مختلفة ، وتأثيراتها المتنوعة في العالم الخارجي ، فهذا .

هو التاريخ بالضغط . وهكذا تنحصر المسألة بالتالي في ما تريده الكثرة من الافراد . ان الارادة يحددها الهوى او التفكير . ولكن الخواطر التي بدورها تحدد مباشرة الهوى او التفكير لعل انواع مختلفة . . من جهة ثانية تظهر مسألة جديدة . . ما هي الاسباب التاريخية التي تتخذ شكل هذه الخواطر في رؤوس العاملين ؟ . . (١) .

ان هذا النص لانجلس ، يعلمنا بان الناس يتصرفون وفقا لارادتهم ولكن هذه الارادة ليست دائما في نفس الاتجاه ! فما الذي يحدد افعال الناس ويحققها اذن ؟ لماذا لا تسير ارادتهم في نفس الاتجاه ؟

بعض المثاليين يوافقون على القول ان افعال الناس هي التي تصنع التاريخ وان هذا الفعل ينتج عن ارادتهم . فالارادة هي التي تحدد الفعل ، وافكارنا او شعورنا هي التي تحدد ارادتنا . سيكون لدينا اذن السيرة التالية : فكرة - ارادة - فعل . ولتفسير الفعل ، سنتبع الوجهة المعاكسة في البحث عن الفكرة كسب حاسم .

ولكننا سنحدد على الفور وبدقة ، ان فعل كبار الناس ، وفعل المذاهب ليس مرفوضا ، لكنه بحاجة للشرح . ولا تشرحه السيرة : فكرة - ارادة - فعل . هكذا يدعى البعض . ان ديدرو والموسوعيين في القرن الثامن عشر ، بنشرهم لنظرية حقوق الانسان ، اغروا ارادة الناس وكسبوا ، فقام هؤلاء ، بالتالي ، وحققوا الثورة . كذلك في الاتحاد السوفياتي انتشرت افكار لينين وتصرف الناس وفقا لهذه الافكار . يستنتج من ذلك انه لو لم توجد الافكار الثورية لما كانت هناك ثورة . ان وجهة النظر هذه ، هي التي تدعي ان افكار الزعماء الكبار هي القوى المحركة للتاريخ . وان هؤلاء الزعماء هم الذين يصنعون التاريخ . انتم تعرفون عبارة « العمل الفرنسي Action Française (٢) : « ١٠ ملكا صنعوا فرنسا » . يمكن الاضافة : ملوكا لم يملكوا مع ذلك كثيرا من « الافكار »

٢ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٤ - ٥٥

٣ - Action Française هي حركة سياسية فرنسية خلال فترة الجمهورية الثالثة بزعامة شارل موران رليون دوديه . من اهدافها بعث الملكية في فرنسا (المترجمة) .

ما هي وجهة النظر المادية في هذه المسألة ؟

رأينا ان كثيرا من النقاط المشتركة جمعت بين المادية الحديثة ومادية القرن الثامن عشر . ولكن المادية القديمة كانت ذات نظرية مثالية في التاريخ .

ان هذه النظرية المثالية التي رأيناها والتي كانت اما مثالية صريحة او مستترة بمادية غير متسقة ، والتي تبدو كشرح للتاريخ ، هذه النظرية لا تشرح شيئا . إذ ما الذي يحدث الفعل؟ يقول انجلس؟

«ان مادية الماضي كانت تقدر كل شيء تبعا لدوافع الفعل، وتقسم الناس الذين يؤثرون في التاريخ الى أناس اشراف وأناس نصابين ، وكانت تجد الاشراف ، كقاعدة، مخدوعين والنصابين ظافرين . وقد نتج عن ذلك بالنسبة لها ان التاريخ يحتوي على قدر قليل جدا من العبر . اما بالنسبة لنا نحن فينتج ان المادية القديمة تخون نفسها في ميدان التاريخ ؛ اذا انها تعتبر القوى الحافزة العاملة فيه هي الاسباب الاخيرة للأحداث ، بدلا من ان تبحث فيما يكمن وراءها وما هي القوى الحافزة لهذه القوى الحافزة»^(١) .

الارادة ، الافكار ، كما يدعون . ولكن لماذا كان لدى ماديي القرن الثامن عشر هذه الافكار بالتحديد ؟ فلو حاولوا عرض الماركسية ، لما اصغى لهم الناس ، لان الناس لم تكن تستطيع الفهم في هذه الحقبة . فلا يكفي العمل على اعطاء الافكار ، يجب ان تكون هذه الافكار مفهومة ايضا ، وبالتالي هناك فترات محددة لقبول الافكار وكذلك لخلقها .

لقد قلنا دائما ان للافكار اهمية كبرى ، لكن علينا ان نرى من اين تأتي هذه الافكار .

علينا اذن ان نبحث عن الاسباب التي تعطينا هذه الافكار ، وما هي في التحليل الاخير القوى المحركة للتاريخ .

٤ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٥

للقراءة

(١) انجلس : انتي دوهرنغ : الفصل الثاني عشر : الجدلية : الكمية والكيفية . ص ١٤٣

(٢) لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي . ٣٢١ - (بالنسبة للديالكتيك)

(٣) انجلس : لودفيغ فيورباخ : الفصل الرابع . المادية الديالكتيكية ص ٤٥ وما بعدها .

القسم الخامس

المادية التاريخية

الفصل الأول

القوى المحركة للتاريخ

- ١ - خطأ يجب تجنبه
- ٢ - « الوجود الاجتماعي » والوعي
- ٣ - نظريات مثالية
- ٤ - « الوجود الاجتماعي » والظروف المعيشية .
- ٥ - الصراع الطبقي محرك التاريخ .

ما ان نطرح هذا السؤال : « مم تتأني افكارنا » ؟ حتى نرى انه علينا السير الى أبعد في ابحاثنا . فاذا عللنا ، كما يعلل ماديو القرن الثامن عشر ، الذين يظنون ان « الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء » ، فاننا سنجيب عن هذا السؤال بان الطبيعة تنتج الذهن ، وان افكارنا هي بالتالي انتاج للطبيعة ، انها نتاج للدماغ .

سنقول اذن : ان التاريخ صنع بفعل الناس المسيرين بارادتهم ، وهذه الارادة هي تعبير عن افكارهم المتأنية ، هي نفسها ، عن الدماغ ، ولكن لنتنبه !

١ - خطأ يجب تجنبه :

اذا فرنا الثورة الكبرى بانها نتيجة لتطبيق الافكار المولدة في دماغ الفلاسفة ، فان هذا التفسير سيكون تفسيراً محدوداً وغير كاف ، وسيكون تطبيقاً سيئاً للمادية .

لان ما يجب ملاحظته هو : لماذا استعادت الجماهير هذه الافكار التي طرحها

«فكرو هذه الحقبة . ولماذا لم يكن ديدرو هو الوحيد الذي تصورهما ، وما هي الاسباب التي دفعت اكثرية ساحقة من الادمغة ، منذ القرن السادس عشر ، الى صياغة الافكار نفسها ؟

الآن هذه الادمغة كان لها فجأة ، الوزن نفسه والتلايف عينها ؟ كلا . فهناك تغير في الافكار دون ان يحدث تغير في الجمجمة .

هذا التفسير للافكار بواسطة الدماغ ، يظهر وكأنه تفسير مادي . ولكن الكلام عن الدماغ ، عند ديدرو ، هو في الواقع الكلام عن افكار الدماغ عنده : اذن هذه نظرية مادية مغلوطة ومفرطة نرى فيها تولد الميل المثالي مع الافكار .

لنعدّ الى الترابط : التاريخ - الفعل - الارادة - الافكار . الافكار لها معنى ومحتوى : الطبقة العاملة مثلا ، تناضل لقلب الرأسمالية . هذا ما فكر به العمال المناضلون . هم يفكرون لانهم يملكون دماغا طبعيا ، فالدماغ اذن شرط ضروري للتفكير ، لكنه ليس شرطا كافيا . الدماغ يشرح الواقعة المادية التي هي امتلاك الافكار ، لكنه لا يشرح لماذا غلكت هذه الافكار وليس تلك .

« فكل ما يحرك الناس ينبغي ان يمر بالضرورة بادمغتهم ، ولكن الشكل الذي يأخذه في هذه الادمغة يتعلق ، لدرجة كبيرة جدا ، بالظروف » .^(١)

كيف نستطيع اذن ان نشرح محتوى افكارنا ، اي كيف تأتينا فكرة قلب الرأسمالية ؟

٢ - « الوجود الاجتماعي » والوعي :

نحن نعلم ان افكارنا هي انعكاس للاشياء ، كذلك فان الاهداف التي تحتويها افكارنا هي ايضا انعكاس للاشياء . ولكن لاية اشياء ؟

للإجابة عن هذا السؤال . يجب ان ننظر الى المكان الذي يعيش فيه الناس ، واین تظهر افكارهم . فنلاحظ ان الناس يعيشون في مجتمع رأسمالي ، وان

١ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٦ .

افكارهم تظهر في هذا المجتمع وتأتى لهم منه .

« فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم بل ، على العكس ، ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم » .

ان ما يسميه ماركس « وجودهم » في هذا التعريف ، هم الناس ، نحن . والوعي هو ما تفكر به ، ما نريد .

يقال بصورة عامة . اننا نناضل لاجل مثال مترسخ فينا ، وينتج عن ذلك ان وعينا هو الذي يحدد وجودنا ، نحن نفعل الشيء لاننا نفكر به ، ونريده .

ان الكلام على هذا النحو هو خطأ كبير ، لان وجودنا الاجتماعي هو الذي ، في الحقيقة ، يحدد وعينا .

« كائن » بروليتاري يفكر كبروليتاري و« كائن » بورجوازي يفكر كبورجوازي (سنرى بعد ذلك لماذا الامر ليس كذلك دائما) ولكن بصورة عامة .

« في القصور يفكرون غير ما يفكرون في الاكواح » .

٣ - نظريات مثالية

يؤكد المثاليون ان بروليتاريا ما ، او بورجوازيا ما ، هما هذا او ذاك ، لانها يفكران كهذا او ذاك .

نحن نقول ، على عكس ذلك ، انها اذا فكرا كبروليتاريين او كبورجوازيين ، فذلك لكونها هذا او ذاك . فالبروليتاري يملك وعي الطبقة البروليتارية لكونه بروليتاريا .

ان ما يجب ملاحظته جيدا ، هو ان النظرية المثالية تتضمن نتيجة عملية . يقولون اذا كنا بورجوازيين ، فذلك يعني اننا نفكر كبورجوازيين ، اذن حتى لا نكون بورجوازيين ، يكفي ان نغير شكل التفكير الذي هو موضوع الخلاف ، فيكفي لايقاف الاستغلال البورجوازي ان نقوم بعملية اقناع لرب العمل . هذه نظرية دافع عنها الاشتراكيون المسيحيون ، وهي ايضا نظرية

مؤسسي الاشتراكية الطوباوية .

لكنها أيضا نظرية الفاشيين الذين ناضلوا ضد الرأسمالية ليس للقضاء عليها ولكن لجعلها أكثر « عقلانية » ! . يقال ، عندما يفهم ارباب العمل انهم يستغلون العمال فسوف يكفون عن ذلك . هذه نظرية مثالية تماما واطارها مرفية .

٤ - « الوجود الاجتماعي » والظروف المعيشية :

يحدثنا ماركس عن « الوجود الاجتماعي » . فماذا يعني بذلك ؟

« الوجود الاجتماعي » محدد بالظروف المعيشية المادية التي يعيشها الناس في المجتمع .

فليس وعي الناس هو الذي يحدد ظروف معيشتهم المادية ، بل ان ظروفهم المادية هي التي تحدد وعيهم .

ما هي الظروف المعيشية المادية ؟ . هناك فقراء واغنياء في المجتمع ، تختلف طريقة تفكيرهم ، وافكارهم حول الموضوع نفسه افكار مختلفة ، فركوب المترو بالنسبة لفقير ، لعاطل عن العمل ، هو بذخ ، ولكنه بالنسبة للغني الذي كان يملك سيارة هو انحدار .

افكار الفقير عن المترو ، هل يملكها لانه فقير او لانه يركب المترو ؟ لانه فقير . وكونه فقيرا هو ظرفه المعيشي .

اذن يجب ان ننظر ، لماذا هناك اغنياء وفقراء ، حتى نستطيع تفسير الظروف المعيشية للناس .

مجموعة من الناس تشغل في عملية الانتاج الاقتصادية مركزا ، مماثلا (اي انها تملك في النظام الرأسمالي وسائل الانتاج - او بالعكس تعمل بوسائل انتاج لا تملكها) وتنتمى بالتالي بظروف معيشية مادية متماثلة الى حد ما . هذه المجموعة تكون طبقة . لكن معنى الطبقة لا يقتصر على معنى الغنى والفقير . فربما تمكن البروليتاري ان يجني من الربح اكثر مما يجنيه البورجوازي ولن يكون اقل بروليتارية ، لانه متعلق برب العمل ، ولان حياته غير مؤمنة او غير مستقلة .

فالظروف المعيشية المادية لا تتكون فقط من المال المكتسب ، ولكن من الوظيفة الاجتماعية . وهكذا نحصل على الترابط الآتي :

ان الناس يصنعون تاريخهم بفعلهم وفقا لارادتهم ، التي هي تعبير عن افكارهم . هذه الافكار تنأت من ظروفهم المعيشية المادية اي من انتمائهم الى طبقة ما .

٥ - الصراع الطبقي محرك التاريخ :

يتصرف الناس بشكل معين لانهم يملكون افكارا معينة . هذه الافكار تنجم عن ظروفهم المعيشية المادية . لانهم ينتمون الى هذه الطبقة او تلك . وهذا لا يعني وجود طبقتين فقط في المجتمع : فهناك عدد من الطبقات ، اثنان منها تتصارعان ، بصورة رئيسية : البورجوازية والبروليتاريا .

اذن الطبقات توحد تحت الافكار .

والمجتمع ينقسم الى طبقات تتصارع كل منها مع الاخرى ، وهكذا اذا تفحصنا افكار الناس نلاحظ ان هذه الافكار هي في تنازع ، وتحتها نجد الطبقات المتنازعة ايضا .

وبالتالي فالقوى المحركة للتاريخ اي التي تفسر التاريخ هي الصراع الطبقي .

فاذا ضربنا مثلا ، العجز الدائم في الموازنة ، رأينا ان هناك حلين : الاول يقوم على متابعة ما يسمى بالارثوذكسية المالية : اقتصاد ، قروض ، ضرائب جديدة الخ . . . والحل الآخر يقوم على تغريم الاغنياء .

ونحن نلاحظ صراعا سياسيا حول هذه الافكار ، وبصورة عامة « نأسف » لعدم استطاعتنا الاتفاق على هذا الموضوع ، ولكن الماركسي يريد ان يفهم ويبحث ماذا يوجد تحت الصراع السياسي . فيكتشف عندئذ الصراع الاجتماعي اي الصراع الطبقي . صراع بين أنصار الحل الاول (الرأسمالين) وأنصار تغريم الاغنياء (الطبقات الوسطى والبروليتاريا) .

« على هذا النحو ، ثبت ، بالنسبة للتاريخ الحديث على الأقل ، ان كل صراع سياسي هو صراع طبقي ، وان كل صراع تخوضه الطبقات من اجل تحررها ، رغم شكله الذي هو بالضرورة سياسي - لان كل صراع طبقي هو صراع سياسي - هو في نهاية المطاف صراع من اجل التحرر الاقتصادي »^(١)

علينا اذن ان نضيف حلقة الى الترابط الذي نعرفه لتفسير التاريخ ، لدينا الفعل - الارادة - الافكار - وتحتها توجد الطبقات ، ووراء الطبقات يوجد الاقتصاد .

الصراع الطبقي اذن هو الذي يفسر التاريخ ، ولكن الاقتصاد هو الذي يحدد الطبقات .

فاذا اردنا تفسير واقعة تاريخية ، علينا فحص الافكار المتصارعة ، والبحث عن الطبقات تحت الافكار واخيرا تحديد النمط الاقتصادي الذي يميز الطبقات .

يمكننا التساؤل ايضا عم ثنائي الطبقات والنمط الاقتصادي (ولا يخاف الديالكتيكون من طرح هذه التساؤلات المتتابعة ، لانهم يعرفون انه يجب إيجاد مصدر لكل شيء) . وهذا ما سندرسه بالتفصيل في الفصل القادم . ولكننا نستطيع القول منذ الآن :

لمعرفة عم ثنائي الطبقات ، يجب ان ندرس تاريخ المجتمع ، وسنرى عندئذ ان الطبقات الموجودة لم تكن دائما هي نفسها . في اليونان : العبيد والاسياد في العصور الوسطى : الاسياد والاقنان . وبعد ذلك ، واختصارا لهذا التعداد : البورجوازية والبروليتاريا .

يقوم على متابعة ما يسمى بالارثوذكسية المالية : اقتصاد ، فروض ، ضرائب جديدة الخ . . : والحل الآخر يقوم على تغريم الاغنياء .

ونحن نلاحظ صراعا سياسيا حول هذه الافكار ، وبصورة عامة « نأسف » تبقى ، نمط الانتاج والتكنيك) .

لننظر الآن في هذا النص لانجلس :

« ان البورجوازية وكذلك البروليتاريا نشأتا بسبب التغيرات في العلاقات الاقتصادية ، او بعبارة ادق ، بسبب التغيرات في نمط الانتاج . فالانتقال اولا من نظام الانتاج الحرفي الى المانيفاكتورية وثم من المانيفاكتورية الى الصناعة الكبيرة ، الى الانتاج الميكانيكي باستخدام البخار ، هو الذي طور هاتين الطبقتين »^(٢) .

نرى في نهاية التحليل ، ان القوى المحركة للتاريخ تعطي لنا حسب الترابط الآتي :

أ - التاريخ هو من صنع البشر .

ب - الفعل ، الذي يصنع التاريخ ، يتحدد بارادتهم .

ج - هذه الارادة هي تعبير عن افكارهم .

د - هذه الافكار هي انعكاس للظروف الاجتماعية التي يعيشونها .

هـ - الظروف الاجتماعية هي التي تحدد الطبقات وتحدد صراعاها .

و - الطبقات هي نفسها محددة بالظروف الاقتصادية .

ولتحديد الاشكال والظروف التي يجزي فيها هذا الترابط ، نقول :

١ - ان الافكار تجد تعبيرها في الحياة على الصعيد السياسي .

٢ - الصراع الطبقي الذي يوجد خلف صراع الافكار يجد تعبيره على الصعيد الاجتماعي

٣ - الظروف الاقتصادية (المحددة بحالة التكنولوجيا) تجد تعبيرها على الصعيد الاقتصادي .

للقراءة

Karl Marx: Préface de la contribution à la critique de L'économie Politique

- ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعي .

٣ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ : ص ٥٨

٢ - فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٩

كذلك : ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعي ص ٥٢ وما بعدها .

المجتمع الى طبقات لم يكن دائما موجودا : يريد الديالكتيك ان نبحث عن اصل الاشياء ، لكننا نلاحظ عدم وجود الطبقات في الماضي البعيد ، ففي كتابه : « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » يقول لنا انجلس :

« في جميع اطوار المجتمع الدنيا ، كان الانتاج ، من حيث الاساس جماعيا لم يكن ثمة من طبقة ، فئة شغيلة ثم فئة اخرى . كما ان استملاك المنتجات التي اوجدها الناس كان جماعيا . تلك هي الشيوعية البدائية » .^(١)

يشارك جميع الناس في الانتاج ، ادوات العمل الفردية كانت ملكية خاصة . لكن ما يستعمل جماعيا تملكه الجماعة . ولم يكن تقسيم العمل موجودا في هذه المرحلة الدنيا الا بين الجنسين . الرجل يصطاد الحيوانات والاسماك الخ . . المرأة تعتني بالبيت وليس من فوائده شخصية او « خاصة » تجنى من وراء ذلك .

لكن الناس لم يبقوا في هذا الطور ، وسيكون اول تغير في حياة الناس هو تقسيم العمل في المجتمع .

« لكن تقسيم العمل يتغلغل ببطء في عملية الانتاج »^(٢)

هذه الواقعة الاولى حدثت حيث وجد الناس ،

«حيوانات يمكن تدجينها ومن ثم تربيتها بعد تدجينها . . ان بعضا من اكثر القبائل تقدما . . قد جعلوا من تدجين المواشي اولاً ، ومن تربيتها ورعايتها فيما بعد ، الفرع الرئيسي من نشاطهم . وانفصلت قبائل الرعاة عن بقية البرابرة وكان ذلك اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل»^(٣) .

لدينا اذن ، كنمط اول للانتاج : الصيد البري والصيد البحري ، والنمط الثاني : تربية المواشي التي ولدت قبائل الرعاة .

هذا هو اول تقسيم كبير للعمل والذي هو في اساس ،

١ - فارن انجلس : « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » - دار التقدم - ص ٢٣٠

٢ - انجلس : المرجع نفسه . ص ٢٣٠

٣ - انجلس : المرجع نفسه . ص ٢١٠

الفصل الثاني

مم تتألف الطبقات والظروف الاقتصادية ؟

- ١ - اول تقسيم كبير للعمل .
- ٢ - اول انقسام للمجتمع الى طبقات .
- ٣ - ثاني تقسيم كبير للعمل .
- ٤ - ثاني انقسام للمجتمع الى طبقات .
- ٥ - ما الذي يحدد الظروف الاقتصادية ؟
- ٦ - انماط الانتاج .
- ٧ - ملاحظات .

رأينا ان القوى المحركة للتاريخ هي ، في نهاية التحليل ، الطبقات وصراعهما المحدد بالظروف الاقتصادية .

ذلك حسب الترابط الآتي : يملك الناس افكارا تدفعهم الى العمل ، هذه الافكار تتولد عن الظروف المعيشية المادية التي يعيشون فيها . هذه الظروف المعيشية المادية يحددها الموقع الاجتماعي الذي يشغلونه في المجتمع ، اي الطبقة التي ينتمون اليها . وتتحدد الطبقات نفسها بالظروف الاقتصادية التي يتطور فيها المجتمع .

ولكن علينا عندها ، ان نرى ما الذي يحدد الظروف الاقتصادية والطبقات التي تخلقها . وهذا ما سندرسه .

١ - اول تقسيم كبير للعمل :

بدراسة تطور المجتمع ، واعتبار الوقائع في الماضي ، نلاحظ اولاً ان انقسام

٢ - اول انقسام للمجتمع الى طبقات :

« ان نمو الانتاج في جميع الفروع - تربية المواشي ، الزراعة ، الحرف المنزلية - قد منح قوة عمل الانسان القدرة على انتاج كمية من المنتجات تزيد عما يحتاج اليه للعيش والبقاء ، وزاد في الوقت نفسه كمية العمل الذي يترتب على كل من اعضاء العشيرة او المشاعة البيئية ، او العائلة المنفردة ان يبذله يوميا . وظهرت الحاجة الى استعمال قوة عمل جديدة . فقدمت الحروب هذه القوة : فقد طفقوا يحولون اسرى الحرب الى عبيد . وبانحاء انتاجية العمل ، وبالتالي الثروة ، وبتوسيع ميدان النشاط الانتاجي ، ادى اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل ، في مجمل الظروف التاريخية المعنية ، الى نشوء العبودية بصورة محتمة . ومن اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل نجم اول انقسام كبير للمجتمع الى طبقتين : الاسياد والعبيد ، المستغلون والمستغلون »^(١) .

وصلنا الآن الى عتبة الحضارة ، وهي تنفتح بخطوة جديدة الى الامام في تقسيم العمل . ففي الطور الادنى ، كان الناس لا ينتجون الا من اجل تلبية حاجاتهم الشخصية مباشرة . وكانت عمليات التبادل نادرة جدا ، ولم تكن تشمل غير الفوائض المتبقية صدفة . وفي الطور الاوسط من البربرية ، نجد ان الماشية صارت عند الشعوب الرعاة ، ملكية . . وهذا يعني توفر الظروف لاجل التبادل المنظم^(٢)

لدينا اذن في تلك اللحظة طبقتان في المجتمع : اسياد وعبيد . ثم يكمل المجتمع حياته ويخضع لتطورات جديدة . فسوف تتولد طبقة جديدة وتكبر .

٣ - ثاني تقسيم كبير للعمل :

« وتنامت الثروة بسرعة ، ولكن بوصفها ثروة افراد ، واخذت الحياكة ومعالجة المعادن والحرف الاخرى تنفصل وتنزل اكثر فأكثر عن بعضها ، واخذ الانتاج يزداد تنوعا واتقاناً اكثر فأكثر . وعلاوة على الحبوب والبقول والفواكه ، بدأت الزراعة تعطي الآن الزيت والخمور . . وهذا النشاط المتنوع

الوجوه لم يبق من الممكن ان يمارسه شخص بمفرده ، فحدث التقسيم الكبير الثاني للعمل ، فقد انفصلت الحرفة عن الزراعة . ان نمو الانتاج المستمر ومعه انتاجية العمل قد رفع قوة عمل الانسان . وإذا العبودية التي كانت في الطور السابق قد ظهرت للتو وحسب . . تصبح الآن جزءا مكونا أساسياً من النظام الاجتماعي . ولم يبق العبيد مجرد معاونين ، بل شرعوا يسوقونهم الى العمل بالعثرات . . ومع انقسام الانتاج الى فرعين رئيسيين كبيرين ، هما الزراعة والحرفة ، يظهر الانتاج من اجل التبادل مباشرة ، اي الانتاج البضاعي ، ومعه تظهر التجارة . . »^(٣)

٤ - ثاني انقسام للمجتمع الى طبقات :

وهكذا ، فان اول تقسيم كبير للعمل يزيد قيمة قوة عمل الانسان ويخلق زيادة في الثروة ، التي تزيد بدورها في قيمة العمل وترغم على ثاني تقسيم للعمل : الحرف والزراعة . في هذا الوقت نرى ان الزيادة المتواصلة للانتاج والزيادة المتواصلة لقيمة قوة عمل الانسان بشكل متواز ، تجعل « ضروريا ، وجود العبيد ، وتخلق الانتاج البضاعي ومعه الطبقة الثالثة ، اي التجار .

لدينا الآن ، انقسام ثلاثي للعمل في المجتمع ، وثلاث طبقات :

الزراعيون والحرفيون والتجار . ونرى لاول مرة ظهور طبقة لا تشارك في الانتاج وتسيطر على الطبقتين الاخرتين . هذه الطبقة هي طبقة التجار .

« وفي الطور الاعلى للبربرية يجري تقسيم جديد للعمل بين الزراعة والحرفة ، ويجري بالتالي انتاج قسم متزايد ابدا من منتجات العمل لاجل التبادل مباشرة ويحدث بالتالي ايضا تحويل التبادل بين مختلف المنتجين الى ضرورة حياتية بالنسبة للمجتمع وتوطد الحضارة وتعزز جميع اشكال تقسيم العمل هذه التي نشأت قبلها ، ولا سيما بتشديد التناحر بين المدينة والقرية . . وتضيف اليها تقسيما ثالثا للعمل تختص به وحدها ويتسم باهمية حاسمة : فهي تخلق طبقة لا تتعاطى الانتاج ، بل مبادلة البضائع فقط ، هي طبقة التجار .

٤ - فارن انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٢١٢ - ٢١٣

٥ - فارن انجلس : المرجع نفسه ص ٢١٨

٦ - فارن انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٢١٥ - ٢١٦

هذه الطبقة تصبح الوسيط بين المنتجين . . وتزعم انها انفع طبقات السكان . . تجني بسرعة الثروات الطائلة وما يرافقها من نفوذ في المجتمع . . وتخضع لنفسها اكثر فأكثر الانتاج ، الى ان تصنع بنفسها في آخر المطاف منتوجا خاصا بها ونعني به الازمات التجارية الدورية» (٧)

نرى اذن هذا الترابط الذي ينطلق من الشيوعية البدائية ويؤدي بنا الى الرأسمالية :

أ - الشيوعية البدائية .

ب - انقسام الى قبائل متوحشة وقبائل رعاة (اول تقسيم للعمل : اسبياد - عبيد) .

ج - انقسام الى زراعيين وحرفيين (ثاني تقسيم للعمل)

د - ولادة طبقة التجار (ثالث تقسيم للعمل) وهو الذي

هـ - يولد الازمات التجارية الدورية (الرأسمالية)

وندرك الآن مم تتأني الطبقات ويبقى ان ندرس :

هـ - ما الذي يحدد الظروف الاقتصادية ؟

يجب اولا تصفح مختلف المجتمعات التي سبقتنا بصورة موجزة جدا .

ان المستندات اللازمة لدراسة تاريخ المجتمعات التي سبقت المجتمعات القديمة بالتفصيل غير متوفرة ، ولكننا نعرف مثلاً انه وجد عند اليونان عبيد واسبياد ، وان طبقة التجار كانت قد بدأت بالنمو . بعد ذلك في العصور الوسطى ، أنشأ المجتمع الاقطاعي مع النبلاء والافنان للتجار ان يحظوا باهمية متزايدة . فتجمعوا حول القصور في قلب البلدات Bourgs ومن هنا اسم البورجوازي . من جهة اخرى وقبل الانتاج الرأسمالي ، لم يوجد الا الانتاج الصغير ، الذي يشترط اولا ان يكون المنتج هو المالك لادوات العمل . فوسائل الانتاج تخص الفرد ، ولم تكن مهبة الا للاستعمال الفردي . وكانت بالتالي ، هزيلة ، صغيرة ، محدودة . فكان الدور التاريخي للانتاج الرأسمالي والبورجوازي في مركزة وسائل الانتاج هذه وتوسيعها ،

٧ - فارن انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٢١٨ - ٢١٩

وتحويلها الى دوافع جبارة للانتاج الحديث .

« ابتداء من القرن الخامس عشر ، قامت البورجوازية بهذا الدور تاريخيا في درجات الانتاج الثلاث المختلفة ، التعاون البسيط ، المانيفاكتورية ، الصناعية الكبيرة . . ولكن البورجوازية لم تستطع ان تحول وسائل الانتاج المحدودة هذه الى قوة منتجة جبارة دون ان تحولها من وسائل انتاج يستعملها الافراد الى وسائل اجتماعية للانتاج يستعملها جمهور من الناس بصورة مشتركة » (٨) .

نرى اذن انه ، بصورة متوازية لتطور الطبقات (اسبياد وعبيد ، نبلاء وافنان) تتطور ظروف الانتاج ، والتبادل وتوزيع الثروات ، اي الظروف الاقتصادية . وان هذا التطور الاقتصادي يتبع خطوة خطوة ، وبصورة متوازية ، تطور أنماط الانتاج هذه اذن :

٦ - أنماط الانتاج :

اي حالة الادوات والآلات ، واستعمالها ، وطرق العمل ، بكلمة واحدة حالة التكنيك التي تحدد الظروف الاقتصادية .

« فاذا كانت القوى لفرد واحد ، او على الاكثر لعائلة واحدة ، تكفي لتشغيل وسائل الانتاج المنفردة ، فيجب الآن جمهور من الناس لتشغيل وسائل الانتاج المركزة هذه . فالبخار والآلة انتهت واكملت هذا التحول . . . فحلّت الفبركة محل المشغل الفرد ، هذه الفبركة التي تتطلب تعاون مئات العمال فتحول الانتاج من مجموعة اعمال فردية ، الى مجموعة اعمال اجتماعية » (٩)

نرى هنا ان تطور أنماط الانتاج قد حول كليا القوى المنتجة . والحال انه ، اذا كانت قد اصبحت ادوات العمل جماعية ، فان نظام الملكية ظل فرديا ، وبقيت الآلات التي لا تعمل الا بسواعد المجموعة ملكا لشخص واحد . وهكذا نرى ان :

« القوى المنتجة تدفع الجميع الى الاعتراف العملي بخصائصها الواقعية

٨ - انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية : دار التقدم ص ٦٨ - ٦٩

٩ - انجلس : المرجع نفسه ص ٦٥

كونها قوى منتجة اجتماعية . . فتفرض الاجتماعية على قسم كبير من وسائل الانتاج الذي يظهر بشكل شركات مساهمة . . ولكن هذا الشكل يصبح هو ايضا غير كاف . . فيترتب على الدولة ان تتسلم قيادة القوى المنتجة هذه . . فتصبح البورجوازية من نوافل الامور . . فان وظائف الرأسمالين الاجتماعية جميعها يقوم بها الان مستخدمون اجراء . . (١٠) هكذا يظهر لنا تناقض النظام الرأسمالي .

« من جهة تحسين الآلات ، وقد جعلته المزاومة قانونا الزاميا على كل صناعي ، ويعني في الوقت نفسه ، استبعاد العمال من المصانع بصورة متزايدة على الدوام : نشوء جيش صناعي احتياطي . ومن جهة اخرى ، توسيع الانتاج الى ما لا حد له ، فقد جعلته المزاومة قانونا الزاميا ايضا على كل صناعي ، ومن الجهتين ، تطور القوى المنتجة تطورا لم يسمع بمثله من قبل ، زيادة العرض على الطلب ، فيض في الانتاج ، اكتظاظ في الاسواق ، ازمتات تتكرر كل عشر سنوات ، حلقة مفرغة : هنا فيض من وسائل الانتاج والمنتجات ، وهناك فيض من عمال بلا عمل وبلا وسائل للعيش » (١١)

هناك تناقض بين العمل الذي اصبح اجتماعيا وجماعيا ، وبين الملكية التي بقيت فردية ، ونقول عند ذلك مع ماركس :

« فبعد ان كانت هذه العلاقات اشكالا لتطور القوى المنتجة تصبح عوائق في وجه تطورها . وعندها يبدأ عصر ثورة اجتماعية » (١٢)

٧ - ملاحظات :

من الضروري ، قبل نهاية هذا الفصل ، ايراد بعض الملاحظات ، والاشارة الى اننا نجد في هذه الدراسة جميع سمات الديالكتيك وقوانينه التي درسناها .

لقد استعرضنا بالفعل ، وبسرعة كبيرة تاريخ المجتمعات ، الطبقات وانماط الانتاج ، ونحن نرى الى اي حد يتعلق كل قسم من هذه الدراسة بباقي الاقسام . فنلاحظ ان التاريخ متحرك اساسا ، وان التغيرات التي تحصل في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات يحدثها صراع داخلي ، صراع عناصر المحافظة وعناصر التقدم ، صراع يوصل الى هدم مجتمع ، والى ولادة مجتمع جديد . فكل مجتمع له ميزة ، وبنية مختلفة جدا عن الذي سبقه . هذه التحولات الجذرية تتفاعل بعد تراكم الوقائع التي بذاتها تظهر بلا معنى ، ولكنها ، في لحظة من اللحظات ، تخلق ، بتراكمها ، امرا واقعا يحدث تبديلا عنيفا وثوريا

سنجد هنا اذن السمات والقوانين العامة الكبيرة للديالكتيك اي :

- تداخل العلاقات بين الاشياء والوقائع .
- الحركة والتغير الديالكتيكي .
- الدينامية الذاتية .
- الفعل المتبادل .
- والتطور بالقفز (اي تحول الكمي الى نوعي) .

للمقراء

- انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة .
- انجلس : الاشتراكية العلمية والاشتراكية الطوباوية .

١٠ - فارن انجلس : الاشتراكية العلمية والاشتراكية الطوباوية ، ص ٨٢ - ٨٣

١١ - فارن انجلس : المرجع نفسه ص ٩١

١٢ - Marx : Préface de la contribution à la critique de l'économie politique -

القسم السادس

المادية الديالكتيكية والايديولوجيات

فصل وحيد

تطبيق المنهج الديالكتيكي على الايديولوجيات

- ١ - ما هي اهمية الايديولوجيات بالنسبة للماركسية ؟
- ٢ - ما هي الايديولوجية ؟ (العوامل والاشكال الايديولوجية)
- ٣ - البنية الاقتصادية والبنية الايديولوجية .
- ٤ - الوعي الصحيح والوعي المغلوط .
- ٥ - فعل ورد فعل الايديولوجية .
- ٦ - منهج التحليل الديالكتيكي .
- ٧ - ضرورة الصراع الايديولوجي .
- ٨ - خلاصة .

١ - ما هي اهمية الايديولوجيات بالنسبة للماركسية ؟

نسمع عادة القول ، ان الماركسية هي فلسفة مادية تنفي دور الافكار في التاريخ ، وتنفي دور العامل الايديولوجي ، ولا تعتبر الا التأثيرات الاقتصادية .

ان ذلك خطأ . فالماركسية لا تنفي الدور المهم للذهن والفن والافكار في الحياة . على العكس : انها تعلق اهمية خاصة على اشكال الايديولوجيات هذه وستنتهي هذه الدراسة للمبادئ الاولى في الماركسية فتمتحن كيفية تطبيق منهج المادية الديالكتيكية على الايديولوجيات ، سنرى ما هو دور الايديولوجيات في التاريخ ، وما هو فعل العامل الايديولوجي وما هو الشكل الايديولوجي

هذا القسم من الماركسية الذي سندرسه هو النقطة المجهولة اكثر من غيرها في

هذه الفلسفة . والسبب انه ، خلال وقت طويل ، عولج من الماركسية القسم الذي يدرس الاقتصاد السياسي ، وانتشر . مما أدى الى فصل هذه المادة تعسفاً ليس فقط عن « الكل » الكبير الذي تؤلفه الماركسية ، بل ايضا عن اسمها ، لان ما اتاح جعل الاقتصاد السياسي علما حقيقيا هو المادية التاريخية ، التي هي كما رأينا ، تطبيق للمادية الديالكتيكية .

نستطيع ان نشير بشكل عابر ، ان هذا الشكل من التصرف يتأتى من الذهنية الميتافيزيقية التي نعرفها ، والتي نعاني كثيرا للتحلل منها . لنعيد اننا بقدر ما نعزل الاشياء وندرسها بشكل احادي الجانب بقدر ما نرتكب من الاخطاء .

فالتفسيرات السبئية للماركسية تتأتى اذن من اننا لم نصر بصورة كافية على دور الايديولوجيات في التاريخ وفي الحياة ، ففصلناها عن الماركسية . وبهذا فصلنا الماركسية عن المادية الديالكتيكية اي فصلناها عن نفسها .

ويسرنا ان نرى ، منذ بضع سنوات ، ان الماركسية استعادت وجهها الحقيقي ، والمكانة التي تستحقها ، بفضل الجامعة العمالية في باريس التي يدين لها بضعة آلاف بمعرفة الماركسية ، وبفضل عمل رفاقنا المثقفين ايضا الذين ادوا ، بكتبهم واعمالهم ، الى معرفة الماركسية واحتلالها المكان الذي يعود اليها .

٢ - ما هي الايديولوجية ؟ (العوامل والاشكال الايديولوجية) :

سنبدأ هذا الفصل ، المخصص لدور الايديولوجيات ببعض التعريفات . ما الذي نسميه ايديولوجية ؟ الذي يقول « ايديولوجية » يقول ، قبل كل شيء ، « فكرة » فالايديولوجية هي مجموعة من الافكار التي تؤلف كلا ، نظرية ، سيستاما ، او تؤلف بكل بساطة ، حالة ذهنية في بعض الاحيان .

الماركسية هي ايديولوجية تؤلف كلا ، وتهب منها حل جميع المشكلات . ايديولوجية جمهورية هي مجموعة الافكار التي نجدها في ذهن جمهوري ، معين .

لكن الايديولوجية ليست فقط مجموعة من الافكار المحضة ، منفصلة عن كل شعور (هذا تصور ميتافيزيقي) . ان ايديولوجية ما تحوي بالضرورة مشاعر واستلطافا ونفورا وآمالا وخاوف الخ . . ففي الايديولوجية البروليتارية ، نجد عناصر المثل العليا لصراع الطبقات لكننا نجد ايضا مشاعر التضامن مع المستغلين في النظام الرأسمالي « المساجين » ومشاعر التمرد والحماسة الخ . . كل هذا هو ما يشكل ايديولوجية ما .

لنر الآن ما الذي يسمى العامل الايديولوجي ، انه الايديولوجية المعتبرة كسبب او كقوة فاعلة ، مؤهلة للتأثير ، ولذلك نتكلم عن فعل العامل الايديولوجي . فالاديان مثلا هي عامل ايديولوجي يجب ان نحسب حسابه فهي تملك قوة معنوية ما تزال تؤثر بشكل هام .

ماذا نعني بالشكل الايديولوجي ؟ نسمي كذلك مجموعة من الافكار الخاصة التي تؤلف ايديولوجية في ميدان متخصص . فالدين والاخلاق هما شكلان من الايديولوجية ، كذلك العلم ، والفلسفة والادب والفن والشعر .

فاذا اردنا تفحص دور تاريخ الايديولوجية بشكل عام ايضا وتاريخ اشكالها بصورة خاصة ، علينا ان نوجه هذه الدراسة ، ليس بفصل الايديولوجية عن التاريخ ، اي عن حياة المجتمعات ولكن باظهار دور الايديولوجية وعواملها واشكالها في المجتمع وانطلاقا منه .

٣ - البنية الاقتصادية والبنية الايديولوجية :

رأينا ، في دراستنا للمادية التاريخية ان تاريخ المجتمعات يفسر بالترابط الآتي : الناس يصنعون التاريخ بافعالهم ، التي هي تعبير عن ارادتهم . وهذه الارادة تحددها الافكار . رأينا ان الذي يفسر افكار الناس اي ايديولوجيتهم ، هو الوسط الاجتماعي الذي تظهر فيه الطبقات ، وهذه الطبقات تتحدد بدورها بفعل العامل الاقتصادي اي ، في نهاية المطاف ، بنمط الانتاج .

ورأينا ان العامل السياسي يوحد بين العامل الايديولوجي والعامل

الاجتماعي ، وهذا العامل السياسي يظهر في الصراع الايديولوجي كتعبير عن الصراع الاجتماعي .

فاذا تفحصنا اذن بنية المجتمع ، في ضوء المادية التاريخية ، نرى ان البنية الاقتصادية توجد في اساسه ، ثم فوقها البنية الاجتماعية التي تحمل البنية السياسية واخيرا البنية الايديولوجية .

نرى ان البنية الايديولوجية هي نقطة الانتهاء بالنسبة للماديين وهي قمة البناء الاجتماعي ، بينما هي الاساس لكل شيء بالنسبة للمثاليين .

« في الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم ، يدخل الناس في علاقات محددة ، ضرورية ومستقلة عن ارادتهم ، علاقات انتاج تتوافق مع درجة معينة لتطور قواهم المادية المنتجة . ان مجموع علاقات الانتاج هذه يكون البنية الاقتصادية للمجتمع ، والاساس الواقعي الذي ترتفع عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية تتوافق مع اشكال محددة في الوعي الاجتماعي (اي اشكال من الايديولوجيات) . فتمتد انتاج الحياة المادية يحدد شروط سيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بصورة عامة »^(١)

نرى بالتالي ان البنية الاقتصادية هي في اساس المجتمع . نقول ان انها البنية التحتية (اي البنية التي هي تحت) .

والايديولوجية التي تتضمن جميع الاشكال : الاخلاق والدين والعلم والشعر والفن والادب ، تؤلف البنية الفوقية اي البنية التي هي فوق .

مع العلم ان الافكار هي انعكاس للاشياء ، كما تبين ذلك النظرية المادية ، وان وجودنا الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي ، ستقول اذن ان البنية الفوقية هي انعكاس للبنية التحتية .

هذا مثل من انجلس ، يبين لنا ذلك جيدا :

« ان عقيدة كالفين كانت تستجيب لمطالب القسم الاكثر تقدماً من البورجوازية في ذلك العهد . فان مذهبه القائل بالقضاء والقدر كان التعبير الديني لكون النجاح والافلاس ، في عالم التجارة والمزاحمة ، لا ينجحان عن نشاط الافراد ومهارتهم بل عن ظروف مستقلة عنهم . ولا تخضع هذه الظروف لا لارادة من يريد او من يشتغل ، انما هي تحت رحمة قوى اقتصادية جبارة ومجهولة . وقد كان ذلك صحيحا بخاصة في زمن الانقلاب الاقتصادي ، حيث كانت جميع الطرق التجارية القديمة ، والمراكز التجارية القديمة ، تزيجها طرق ومراكز جديدة ، وحين اكتشفت اميركا والهند ، وحين تداعى وانهار حتى اقدس بنود الايمان الاقتصادي ونعني به قيمة كل من الذهب والفضة »^(٢) .

وماذا حدث بالفعل في الحياة الاقتصادية للتجار ؟ انهم يتزاحمون . ولقد جرب التجار والبورجوازيون هذه المزاحمة ، التي فيها غالبيون ومغلوبيون .

وغالبا ما يكون الاكثر حداقة والاكثر ذكاء مغلوبا ، بفعل مزاحمة مفاجئة تهلكه . هذه الازمة هي شيء غير منتظر بالنسبة له . فهي كالقدر ، وهذه الفكرة التي مؤداها انه يكون سبب يستمر الاقل خيئا ، ويتنصر على الازمة ، هذه الفكرة انعكست في المذهب البروتستانتي . هذه الملاحظة بان البعض « يصل » بالصدفة ، هي التي صنعت فكرة القدر المكتوب والذي بموجبه يخضع الناس لمصير قدره الله منذ الازل .

نرى في هذا المثل ، الذي يتحدث عن انعكاس الظروف الاقتصادية كيف تكون البنية الفوقية انعكاسا للبنية التحتية .

ها كم مثلا آخر ايضا : لناخذ ذهنية عاملين غير متسيبين للنقابة . اي غير ناضجين سياسيا . احدهما يعمل في مصنع كبير ، العمل فيه معقلن ، والآخر يعمل لدى حرفي صغير . فمن المؤكد انها يملكان تصورا مختلفا عن رب العمل . بالنسبة للاول ، فان رب العمل سيكون المستغل المتوحش ، ميزة

الرأسمالية . والثاني يرى رب العمل كـشغـيل ، مرتاح طبعاً لكنه شغـيل وليس طاغية .

هذا اذن انعكاس لظروف عملها الذي حدد شكل الفهم لرب العمل لديها .

هذا المثل ، المهم ، يفرض علينا الدقة في صياغة بعض الملاحظات .

٤ - الوعي الصحيح والوعي المغلوط :

قلنا ان الايديولوجيات هي انعكاس للظروف المادية في المجتمع ، وان الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي . وقد يستنتج من ذلك ان البروليتاريا يجب ان تملك بصورة اوتوماتيكية ايديولوجية بروليتارية .

لكن افتراضا كهذا لا يتوافق مع الواقع ، لان هناك عمالا لا يملكون وعيا عماليا .

اذن يجب ان نميز هنا : يمكن ان يعيش الناس في ظروف محددة ولكن وعيهم لها قد لا يتوافق مع الواقع . وهذا ما يسميه انجلس « الوعي المغلوط » .

مثلا : بعض العمال متأثرون بمذهب التضامن الحرفي الذي هو عودة الى العصور الوسطى ، الى الحرفية . في هذه الحالة ، هناك وعي لبؤس العمال . ولكنه ليس وعيا صحيحا وصادقا . الايديولوجية هي هنا انعكاس لظروف الحياة الاجتماعية ، ولكنها ليست انعكاسا امينا ، ولا دقيقا .

ان الانعكاس هو غالبا ، في وعي الناس ، انعكاس « مقلوب » ان ملاحظة واقع البؤس هو انعكاس للظروف الاجتماعية ، لكن هذا الانعكاس يصبح خاطئا عندما نظن ان عودة نحو الحرفية ستحل المشكلة . نرى هنا اذن وعيا صحيحا في جزء منه ، ومغلوطا في جزء آخر .

العامل الذي هو من انصار الملكية ، يملك ايضا وعيا صحيحا ومغلوطا في آن واحد . صحيح : لانه يريد ازالة البؤس الذي يلاحظه ، ومغلوط لانه يظن

ان ملكا يستطيع ان يفعل ذلك . وببساطة لانه اخطأ التعليل واخطأ اختيار ايديولوجية من الممكن ان يصبح هذا العامل بالنسبة لنا عدوا طبقياً مع انه من نفس طبقتنا . وهكذا فان امتلاك وعي مغلوط هو ان نتخدع او نكون مخدوعين بالنسبة لوضعنا الحقيقي .

سنقول اذن ان الايديولوجية هي انعكاس الظروف المعيشية ولكنها ليست انعكاسا قديراً .

وعلى ان نلاحظ ، في كل الاحوال ، ان كل شيء قد شغل لاعطائنا وعيا مغلوطا ، ولانغناء تأثير ايديولوجية الطبقات الحاكمة على الطبقات المستغلة . فالعناصر الاولى لتصور الحياة التي نتلقاها وكل ما نتلقى في تربيتنا وتعليمنا تعطينا وعيا مغلوطا . وروابطنا في الحياة ، وبقايا الفلاحة عند البعض ، والدعاية والصحافة والراديو ، تزور وعينا في بعض الاحيان ايضا .

وبالتالي ، فان للعمل الايديولوجي اهمية بالغة بالنسبة لنا كماركسيين . فلاكتساب وعي صحيح يجب هدم الوعي المغلوط ، وهذا التحويل لا يمكن تحقيقه بدون العمل الايديولوجي .

ان الذين يعتبرون ويقولون ان الماركسية هي عقيدة قدرية هم على خطأ اذن ، لاننا نعتقد بحق ان الايديولوجيات تلعب دورا كبيرا في المجتمع ، ونعتقد انه علينا ان نعلم ونتعلم هذه الفلسفة الماركسية حتى تلعب دور الاداة والسلاح الفعال بالنسبة لنا .

٥ - فعل ورد فعل العوامل الايديولوجية :

رأينا بالامثلة عن الوعي الصحيح والوعي المغلوط ان الافكار يجب ان لا تفسر دائما بالاقتصاد فقط فنحن في فعل الافكار نفسها . ان مثل هذا التصرف هو تفسير للماركسية بصورة سيئة .

فالافكار تفسر طبعاً في نهاية التحليل بالاقتصاد ولكنها تملك فعلا خاصا بها .

« بموجب التصور المادي للتاريخ ، نرى ان العامل المحدد للتاريخ هو في نهاية المطاف ، انتاج الحياة الواقعية واعادة انتاجها . ولم يؤكد ماركس ولا انا (انجلس) اكثر من ذلك . واذا عالج احدهم ذلك ، ليقول بان العامل الاقتصادي هو المحدد الوحيد . فهو يحول هذا القول الى جملة فارغة مجردة ، يحوله الى خلف فالوضع الاقتصادي هو الاساس ، لكن مختلف اجزاء البنية الفوقية تؤثر ايضا على مجريات الصراع التاريخي ، وتحدد بنسبة غالبية ، شكل الصراع في كثير من الحالات ، فهناك فعل ورد فعل لجميع هذه العوامل ، تشق في وسطها الحركة الاقتصادية طريقا لها في النهاية كشيء الزامي وسط هذا الحشد من الصدف اللامتناهية^(١) . »

نرى اذن انه يجب فحص كل شيء قبل البحث عن الاقتصاد وانه ، اذا كان الاقتصاد هو السبب في نهاية التحليل ، فيجب التفكير دائما بانه ليس السبب الوحيد .

فالايديولوجيات هي انعكاسات ونتائج للظروف الاقتصادية ، لكن العلاقة بينها ليست بسيطة لاننا نلاحظ فعلا عكسياً للايديولوجيات على البنية التحتية .

فاذا اردنا دراسة الحركة الجماهيرية التي غمت في فرنسا بعد ٦ شباط ١٩٣٤ سندرسها بوجهين على الاقل للبرهنة على ما كتبناه .

١ - البعض يشرح هذا التيار بقوله ان الازمة الاقتصادية كانت السبب . وهذا شرح مادي لكنه احادي الجانب . انه لا يأخذ في الاعتبار الا عاملا واحدا هو الاقتصاد ، هنا : الازمة .

٢ - هذا التعليل صحيح في قسم منه ، ولكن بشرط ان نضيف له ، كعامل للتفسير ، ما يظنه الناس أي الايديولوجية . والحال في هذا التيار الجماهيري ، الناس

٣ - Voir dans Marx — Engels. Etudes philosophiques, la lettre d'Engels à Joseph. Bloch.

هم «ضد الفاشية» ، هذا هو العامل الايديولوجي . واذا كان الناس ضد الفاشية فذلك بفضل الدعاية ، هذه الدعاية التي ولدت الجبهة الشعبية . ولكن حتى تكون الدعاية فعالة يجب ان تكون التربة صالحة ، وما استطعنا فعله في ١٩٣٦ لم يكن ممكنا في ١٩٣٢ . اخيرا ، نحن نعرف كيف اثرت هذه الحركة الجماهيرية وايديولوجيتها بعد ذلك في الاقتصاد بفعل النضال الاجتماعي الذي ولدته .

نرى اذن في هذا المثل ان الايديولوجية التي هي انعكاس للظروف الاجتماعية تصبح بدورها سببا للاحداث .

« ان التطور السياسي والحقوقى والفلسفي والديني والادبي والفنى الخ . .

يرتكز على التطور الاقتصادي . لكنها تفعل جميعها ايضا الواحدة في الاخرى كما تفعل في الاساس الاقتصادي . وليس ذلك هو كذلك لان الوضع الاقتصادي هو السبب ، وهو وحده الناشط وكل ما تبقى انفعال . هنالك على العكس فعل ورد فعل على اساس الضرورة الاقتصادية التي تغلب دائما في نهاية المطاف^(٢) .

وهكذا مثلا ، فان :

« اساس الحق الارثي ، بافتراض المساواة في مرحلة تطور العائلة ، هو اساس اقتصادي . بيد انه من الصعب ان نبرهن مثلا ان حرية الوصية ، المطلقة في انكلترا ، ومحدوديتها الكبيرة في فرنسا ، ليس لها في جميع خصوصياتها الاسباب الاقتصادية . ولكن في قسم مهم جدا الاثنين ، (اي حرية الوصية وعدوديتها) ، يفعلان في الاقتصاد لكونهما يؤثران في توزيع الثروة^(٣) »

سنأخذ مثل الضرائب ، حتى نأخذ مثلا اكثر معاصرة . كلنا يملك فكرة عن

١ - Marx — Engels : Etudes philosophiques, Lettres d'Engels à Heinz Stakenburg
٢ - Idem : Lettre d'Engels à Conrad Schmidt

الضرائب . يريد الإغنياء ان يعفوا من الضرائب ، وهم دعاة الضرائب غير المباشرة . الشغيلة والطبقات الوسطى تريد ، على العكس ، تشريعا ضريبيا مؤسسا على الضريبة المباشرة والتضاعدية . اذن فكرتنا عن الضرائب ، والتي هي غامل ايدولوجي ، اصلها في الوضع الاقتصادي الذي هو وضعنا والذي خلقتة وفرضته الرأسمالية . فالاغنياء ، يريدون الاحتفاظ بامتيازاتهم ويناضلون للاحتفاظ بالطريقة الحالية في فرض الضرائب ، وتقوية القوانين في هذا الاتجاه . لكن هذه القوانين التي تتأتى من الافكار ، تفعل في الاقتصاد لانها تقتل التجارة الصغيرة والحرفيين وتعجل بالتمركز الصناعي .

ونحن نرى بالتالي ، ان الظروف الاقتصادية تولد الافكار ، ولكن الافكار ايضا تولد تعديلات في الظروف الاقتصادية . ويجب عند تفحص الايدولوجيات ، جميع الايدولوجيات ، ان نأخذ بالاعتبار تبادل العلاقات هذا ، ولا نرى ان الضرورات الاقتصادية تغلب عليها دائما الا في نهاية التحليل .

ونعلم ان مهمة نشر الايدولوجيات ، إن لم نقل الدفاع عنها ، تقع على عاتق الكتاب والمفكرين ، وهم ، وان كانت كتاباتهم وافكارهم غير مميزة دائما ، لكننا نجد في الواقع لدى تحليل الكتابات التي تبدو كقصص بسيطة واخبار ، نجد دائما ايدولوجية ما . ان القيام بهذا التحليل هو عمل دقيق للغاية ، ويجب القيام به بكثير من الحيلة . والمنهج الديالكتيكي الذي سنعيه ، سيكون مساعدا كبيرا ولكن يجب الحذر حتى لا نكون آليين فنحاول تفسير ما لا يفسر .

٦ - منهج التحليل الديالكتيكي :

لتطبيق المنهج الديالكتيكي جيدا ، يجب ان نعرف الكثير من الاشياء . واذا كنا نجعل موضوعها ، يجب ان ندرسه بدقة ، والا فان ما نحصل عليه هو ببساطة كاريكاتور حكم .

سنعين منهجا نستطيع تطبيقه في تحليل كتاب او قصة ديالكتيكية ، ونستطيع تطبيقه ايضا على موضوعات اخرى .

أ - يجب الانتباه اولا الى محتوى الكتاب او القصة التي نحللها . وفحصها بصورة مستقلة عن كل مسألة اجتماعية ، لان ليس كل شيء يتأتى عن الصراع الطبقي والظروف الاقتصادية .

هناك تأثيرات ادبية يجب ان نأخذها في الحسبان . محاولة رؤية الى اية « مدرسة ادبية » ينتمي العمل . ان نأخذ بالاعتبار التطور الداخلي للايدولوجيات . عمليا ، سيكون من المفيد تحقيق خلاصة للموضوع المحلل والاشارة الى ما يلفت النظر فيه .

ب - مراقبة النماذج الاجتماعية ، ابطال الحبكة ، البحث عن الطبقة التي ينتمون اليها . فحص نشاط الشخصيات ، ورؤية : هل نستطيع ربط ما يحدث بوجهة نظر اجتماعية ، بشكل ما .

فاذا كان ذلك مستحيلا ، واذا لم نستطع تحقيق ذلك بصورة عقلية ، فمن الاحسن ترك التحليل بدلا من الاختراع . يجب ان لا نخترع تفسيرا ايدا .

ج - عندما نجد الطبقة او الطبقات التي هي موضوع التحليل ، يجب البحث عن الاساس الاقتصادي اي ما هي وسائل الانتاج ، وشكل الانتاج في اللحظة التي يحدث فيها العمل القصصي .

فاذا حدث الأمر في ايماننا ، فالاقتصاد هو الرأسمالية . نرى حاليا العديد من القصص والروايات التي تنتقد وتحارب الرأسمالية ولكن هناك شكلين لمحاربة الرأسمالية .

أ - ثوري يسير الى الامام .

ب - رجعي يريد الرجوع الى الماضي ، وهذا الشكل نجده غالبا في القصص الحديثة ، حيث يتم التأسف على الزمن الماضي .

د - عندما نحصل على كل هذا ، نستطيع البحث عن الايدولوجية اي النظر في ما تكون عليه الافكار والمشاعر ، وما هو شكل تفكير الكاتب .

ونحن يبحثنا عن الايدولوجية ، نفكر بالدور الذي تلعبه ، بتأثيرها على

ذهن الناس الذين يقرأون الكتاب .

هـ - يمكننا عندئذ ان نعطي نتيجة التحليل ، وان نقول : لماذا كتبت هذه القصة او الرواية في وقت كهذا . وان نفصح نوايا الكاتب بحسب الحالة ، او ندحها (والتي هي غالبا واعية عنده) .

ان هذا المنهج في التحليل ليس نافعا الا اذا تذكرنا ونحن نطبقه كل ما قيل سابقا . فعلينا ان نفكر جيدا ان الديالكتيك ، وهو يحمل لنا شكلا جديدا في تصور الاشياء ، يتطلب ايضا معرفة جيدة بهذه الاشياء حتى نتحدث عنها ونحللها .

يجب علينا بالتالي ، في دراستنا ، وفي حياتنا النضالية والشخصية ، الآن وقد رأينا على أي شيء يقوم هذا المنهج ، ان نحاول رؤية الاشياء في حركتها وفي تغيراتها وفي تناقضاتها ، وفي معانيها التاريخية ، وليس في حالتها الجامدة الثابتة ، رؤيتها ودراستها ايضا من كل الوجوه ، وليس بشكل احادي الجانب . وبكلمة واحدة ، ان نطبق في كل مكان ودائما السذمنية الديالكتيكية .

٧ - ضرورة الصراع الايديولوجي :

نحن نعرف الآن ، بصورة افضل ، ما هي المادية الديالكتيكية ، التي هي شكل حديث من المادية اسسها ماركس وانجلس وطورها لينين . لقد استخدمنا بصورة خاصة في هذا الكتاب مقاطع من ماركس وانجلس ، ولكننا لا نستطيع ان نهي هذا الموضوع دون ان نشير بصورة خاصة ان العمل الفلسفي للينين هو عمل كبير القيمة^(١) . لذلك يتكلمون اليوم عن الماركسية اللينينية .

ان الماركسية اللينينية والمادية الديالكتيكية هي وحدة لا تنقسم ، وما يتيح

٦ - راجع لينين في ثبت المصطلحات والاعلام . الاسهام الفلسفي اللينيني في الماركسية الذي سيكون النظر فيه هنا طويلا ومعتدا - يظهر واضحا في كتابه المادية والمذهب النقدي التجريبي وفي الدفاتر الفلسفية .

قياس اتساع الماركسية اللينينية ومداهها وغناها هو معرفة المادية الديالكتيكية . وهذا ما يدفعنا الى القول ان المناضل لا يكون مسلحا ايديولوجيا بشكل صحيح الا اذا عرف هذا المذهب بمجمله .

لقد فهمت البورجوازية ذلك جيدا ، لذلك فهي تجهد نفسها لادخال ايديولوجيتها الخاصة في وعي الشغيلة مستعملة في ذلك جميع الوسائل . وبما انها تعلم تماما ان المادية الديالكتيكية هي الجانب المجهول اكثر من غيره في الماركسية - اللينينية ، فقد نظمت ضدها مؤامرة من الصمت . فمن الشاق علينا ان نلاحظ ان التعليم الرسمي يتجاهل منهجا كهذا ، فيتابع التعليم في المدارس والجامعات بنفس الطريقة المتبعة منذ مئة عام .

فاذا تغلب المنهج الميتافيزيقي على المنهج الديالكتيكي قديما ، فذلك بسبب الجهل كما رأينا . لقد اعطانا العلم اليوم الوسائل التي تبرهن ان المنهج الديالكتيكي هو الوحيد الذي يتوافق تطبيقه مع البحوث العلمية ، فمن الفاضح ان نتابع تعليم اطفالنا كيف يفكرون وكيف يدرسون في ضوء منهج ناشئ عن الجهل .

فلذا كان العلماء في ابحاثهم العلمية ، لا يستطيعون ان يدرسوا ضمن اختصاصاتهم دون ان يأخذوا في الاعتبار تفسيرات العلوم ، فيطبقون بذلك جزءا من الديالكتيك بصورة غير واعية ، لكنهم يحملون معهم غالبا تكوين ذهنهم الميتافيزيقي الذي اعطي لهم . فكم من تقدم كان حققه او اتاح تحقيقه المفكرون الكبار الذين اعطوا اشياء كثيرة الى الانسانية ، لو كانوا يملكون تكويننا ذهنيا ديالكتيكيا ، لنفكر مثلاً بياستور^(٢) وبرنلي اللذين كانا مثاليين ومؤمنين .

ولكن هناك شكلا من الصراع ضد الماركسية اللينينية اخطر بكثير ايضا من هذه الحملة من الصمت . هذا الشكل هو : التزوير الذي تحاول البورجوازية تنظيمه داخل الحركة العمالية نفسها . فنرى في هذا الوقت ازدهار « منظرين »

Voir L'introduction d'Ernest Kahan à Pasteur: Pages Choies - les classiques - ٧ du peuple.

عديدين يقدمون انفسهم « كماركسيين » ويدعون « تجديد » و« تحديث » الماركسية . وتختار هذه الحملات غالبا كنقطة ارتكاز لها وجوه الماركسية المجهولة اكثر من غيرها ، وبصورة خاصة جدا الفلسفة المادية .

وهكذا مثلا ، هناك اناس يعلنون قبول الماركسية كتصور للعمل الثوري ، ولكن ليس كتصور عام للعالم . فيعلنون انهم يستطيعون ان يكونوا ماركسيين تماما دون ان يقبلوا الفلسفة المادية . وبالتطابق مع هذا الموقف العام تنمو محاولات مختلفة للتهريب . اناس يدعون انهم ماركسيون ، ويريدون ادخال تصورات في الماركسية لا تنسجم مع الاساس الماركسي نفسه ، اي مع الفلسفة المادية . لقد عرفنا محاولات من هذا النوع في الماضي . ولقد كتب لينين كتابه : « المادية والمذهب النقدي التجريبي » ضد هؤلاء . وفي الوقت الحاضر ، في زمن الانتشار الواسع للماركسية ، نشاهد بعث هذه المحاولات وتكاثرها . فكيف نتعرف الى هذه المحاولات التي تتعرض للماركسية بوجهها الفلسفي بشكل خاص ، وكيف نكتشفها ، اذا كنا نجهل الفلسفة الحقيقية للماركسية ؟

٨ - خلاصة :

لحسن الحظ ، يشاهد ، منذ عدة سنوات ، اندفاع هائل عند الطبقة العاملة لدراسة الماركسية بمجملها ، واهتمام متزايد لدراسة الفلسفة المادية بشكل دقيق . وهذه اشارة الى ان الطبقة العاملة قد احست تماما بصواب الاسباب التي اعطيناها في البداية لصالح دراسة الفلسفة المادية . فالشغيلة تعلموا بتجربتهم الخاصة ضرورة ربط النظرية بالممارسة ، وضرورة دفع الدراسة النظرية في نفس الوقت الى ابعد ما يمكن . فلدور كل مناضل يجب ان يقوم على تقوية هذا التيار ، واعطائه الوجهة الصحيحة والمحتوى الصحيح . نحن سعداء لرؤية بضعة آلاف من الاشخاص قد تعلموا ما هي المادية الديالكتيكية بفضل الجامعة العمالية في باريس^(٨) . واذا كان ذلك يظهر بشكل اخاذ ، في نضالنا ضد البورجوازية مبينا الى جانب من يقف العلم ، فان ذلك يشير ايضا

الى ما هو واجبنا . يجب ان ندرس ، علينا ان نعرف الماركسية ونجعلها معروفة في كل الاوساط . ففي الشارع ، وبصورة متوازية في العمل ، يجب على المناضلين ان يقودوا النضال الايديولوجي . واجبههم الدفاع عن ايديولوجيتنا ضد جميع اشكال الحملات وفي نفس الوقت ان يقودوا « الهجوم المضاد » لهدم الايديولوجية البورجوازية في وعي الشغيلة . لكن للسيطرة على جميع وجوه الصراع ، يجب ان يكون الانسان مسلحا . والمناضل لا يكون مسلحا الا بمعرفة المادية الديالكتيكية .

وبانتظار ان نبني المجتمع اللاتقني حيث لا شيء يعيق تطور العلوم ، فان ذلك جزء اساسي من واجباتنا .

ثبت المصطلحات والاعلام

ابيقور :

فيلسوف يوناني (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م) درس الفلسفة في اثينا ، ولم يبق لنا من عمله الذي كان يعد ، كما قيل ، حوالي ٣٠٠ كتاب سوى عدة رسائل تحوي خلاصة مبدئه ومجموعة من الامثال كذلك .

يعلم ابيقور ان العالم مركب من عدد من الذرات لا نهاية له يلتقي ويندمج ثم ينفصل بفضل سببية نقطة انطلاقها عرضية . وقد يوجد كثير من الالهة ، لكنها وفقا لافكار ابيقور ، لا تهتم بعلما في كل الاحوال . الانسان اذن حر ، وليس له ان يخاف الموت . وهكذا بما انه تجرد من الخوف والخطأ ، فيجب ان يتجنب الخيرات السريعة العطب والزائلة ، وان يبحث عن الخير الثابت والمستمر الذي تهبه اللذات المعتدلة .

علم الاحاث :

يبحث في المتحجرات اي في الحيوانات والنباتات المحفوظة بشكل بقايا او بصمات في الطبقات الجيولوجية .

الارثوذكسية :

هي التزام رأي ما بالايمان الديني المعترف بصحته ، تستعمل كذلك بتوسع لتعين التزام التصور الاصلي والدقيق لنظرية فلسفية علمية الخ .

ارسطو :

(٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) كان مع افلاطون اكبر الفلاسفة الاقدمين . علم في اثينا التي هرب اليها قبل موته بسنة خوفا من المطاردات بسبب كفره . تلميذ افلاطون لكنه كان خصما له . لقد حاول ارسطو ان يعطي الفلسفة المثالية

الافلاطونية اساسا واقعيا ، انطلاقا من الملاحظة المنظمة للعالم الحسي . ولكنه يذهب كما يفعل افلاطون ، من مفهوم الفكرة القائلة ان كل وجود او جوهر مصنوع من مبدئين اثنين : المادة والصورة ، المادة هي الكتلة الخام ، الجامدة ، غير المتميزة ، وحتى تصبح هذا الشيء او ذاك « هذا » او « ذاك » يجب ان تتطبع فيها الصورة . فالصورة هي الفكرة الناشطة ، النوعية ، وهي التي تعطي المادة كقيمتها ، والله هو الصورة الاسمي التي تحتوى جميع الصور الاخرى .

كذلك ادخل ارسطو الغائية وابعده بذلك التصور الميكانيكي لديمقريطس . فالحق هو منظم الكون . ان ارسطو هو مؤسس المنطق كنظرية للتفكير الصحيح . وفكرة النمو في سياسته فكرة مركزية في النمو الكوني والنمو العضوي ، ونمو اشكال الدولة . ان اشكال النمو هذه معتبرة كنمو من الناقص الى الكامل ، ومن العام الى الخاص . يسميه انجلس الدماغ الاكثر كلية بين جميع الفلاسفة اليونان ، فهو الذي اندفع من قبل نحو البحث عن اشكال اساسية للتعليل الديالكتيكي (انظر فريديريك انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية) .

لم يحفظ تلامذة هذا العالم الكبير والمنطقي الكبير في القرون الوسطى من تعليمه الا الوجه الشكلي والمجرد . وكان عجزهم عن التفكير من جديد بالارسطية في ضوء تقدم العلم قد جعل منها سيستاما جافا وعقيا ، هذا السيستام كون اساس المدرسية .

الاستنباط :

هو التعليل الذي يعلن نتائج معينة ، انطلاقا من قضية ما او حدث ما او هو الذي يستخلص ايضا الخاص من العام .

الايليون :

(فلاسفة ايليه Elée) . وايليه مدينة اسسها اليونان في ايطاليا الجنوبية ، يعارضون هيراقليط ومدرسة ميله (انظر اطلاليس) . اكد الايليون استقرار

الوجود اشهرهم زينون (حوالي ٥٠٠ ق م .) .

الاسمية :

المذهب الاسمي هو عقيدة فلسفية تعتبر ان المفاهيم العامة والاجناس والانواع لا توجد الا بالاسم . يوجد فقط الفرد والفردى . والمفهوم والجنس لا يوجدان الا بالنسبة للذكاء .

افلاطون :

٤٢٧ - ٣٤٨ قبل الميلاد) فيلسوف يوناني ، واكبر المفكرين المثاليين في العصور القديمة .

فالاشياء المحسوسة التي ندركها ، لا تكون بالنسبة له الواقع الحقيقي ، هي ليست سوى مظاهر انعكاسات ونسخ . الواقع الحقيقي لا ينتمي الا للمثل ، التي هي نماذج بدائية للاشياء المحسوسة ومعلقة في سماء عقلي ، ثابتة وابدئي . اذن هناك من المثل بقدرما هناك من الاشياء : مثال الطاولة ، مثال الكرسي الخ . . يجب ان نفهم ان هذه المثل ليست تمثلات بسيطة فينا ، بالنسبة له ، بل هي كائنات واقعية تعيش وجودا مستقلا عنا . فالمعرفة ليست ممكنة الا « بتذكرنا » للمثل التي شاهدناها في وجود سابق ، قبل ولادتنا الجسدية . هذه نظرية « التذكر » . يبقى ان افلاطون طور عناصر الديالكتيك ولكن بشكل مثالي وكلامي في آن واحد . فالمثالية الافلاطونية في اطروحاته السياسية - الاجتماعية هي ايدولوجية الطبقات المسيطرة للمجتمع القديم المرتكز على عمل العبيد ، في حقبة تسارع انحطاطها بفضل تطور الاقتصاد التجاري والتربوي .

في مؤلفه « الجمهورية » عرض افلاطون مثاله للدولة حيث يطلب شيوع الثروات للشرعية المسيطرة من الارستوقراطيين . وهذا هو التخريف الاكبر للطوباويات الاشتراكية في العصور القديمة . مؤلفاته الرئيسية هي بشكل

محاورات كريتون^(١) - الدفاع عن سقراط - فيدون ، طيماوس ، فيدر ، غورجياس ، تيوتيت ، الجمهورية - القوانين الخ .

انكسيمنس الميلى :

فيلسوف في المدرسة الايونية ، عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، تلامه انكسيمندرس ، وكان اناكسو غوراس وديوجين الابولوني من اتباعه . كان يؤمن بأن الهواء هو مبدأ جميع الاشياء .

انجلس :

(فريدريك (١٨٢٠ - ١٨٩٥) اعز صديق لماركس ورفيق النضال الدائم واحد مؤسسي المادية الديالكتيكية والاشتراكية العلمية ساعد ماركس في بيان الحزب الشيوعي ، احد مؤسسي عصبة الشيوعيين وتجمع العمال الاعمى او الائمة الاولى . اصبح بعد موت ماركس (١٨٨٣) الرئيس الروحي المعترف به واكبر مرجع للحركة العمالية العالمية . اهميته الاولى تكمن في عرض المادية الديالكتيكية وتطويرها . يجب اعطاء الاولوية في اعماله النظرية لبلاغاته الفلسفية التي هي آثار عظمى احدثت في الفكر البرولتاري تأثيرا مستمرا ، واكتسبت اهمية تزايد باستمرار ، اظهر انجلس فيها بكفاءة ووضوح لا مثيل لها العلاقات الديالكتيكية للفلسفة مع صراع الطبقات الاجتماعي ومع تطور القوى المنتجة ، والانطلاق المتوازي لعلوم الطبيعة . فيقود القارئ هكذا بطرق جديدة دائما الى هذه الحقيقة . ان اي فلسفة تحرر الانسانية بكاملها بصورة واقعية ، لا يمكن ان تكون الا الفلسفة الديالكتيكية ، لانها وحدها قادرة على حفظ التفكير النظري من سيل (Scylla) المثالية ومن شارييد (Charybde) المادية المتذبذبة الالية ، وتؤكد النصر لنظرية مادية متسقة للمعرفة .

اعماله الرئيسية هي : « انتي دوهرنج » كتاب جدالي مؤلف على طريقة

١ - Criton — L' Apologie de Socrate — Phédon — Tinée — Phèdre Gorgias — le Banquet — Théétète — la République — les lois, etc.

٢ - أي حفظها من خطأ المثالية ومن خطأ المادية المتذبذبة (المترجمة)

ليسنغ، مليء بالجددة والحمية والحماسة المكافحة هو دفاع فريد خصص بالتصور المادي للعالم ، « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » بحث ممتاز عن تطور الفلسفة من هيغل حتى ماركس . مؤلف آخر غير معروف كثيرا ، لكن له جميع الصفات التي تجعله مع « انتي دوهرنغ » السلاح الاساسي للماركسين في الصراع ضد السيستمات المثالية الجديدة في الفلسفة : « دياكتيك الطبيعة » مجموعة من الموضوعات والمقاطع التي طبعت في فرنسا منذ عدة سنوات ، كتبت من ١٨٧٣ الى ١٨٩٢ ، تحوي بالرغم من ان الاكتشافات العلمية قد تجاوزتها في بعض النقاط - منجما لا ينضب لجميع هؤلاء المعنيين بالنضال من اجل المادية الديالكتيكية وتفسيرها الصحيح ، ول هؤلاء الذين يؤمنون بضرورة تجسيد العلوم الطبيعية الحديثة في الماركسية بشكل متناسق . بين اعماله النظرية والمنهجية المهمة : « وضع الطبقة الكادحة في انكلترا » (١٨٤٥) ، « بيان الحزب الشيوعي » ١٨٤٨ - كتب بالاشتراك مع ماركس « الثورة الديموقراطية والبورجوازية في المانيا » .

(١٨٥٠ - ١٨٥٢) . تحتوي « حرب الفلاحين » و « الثورة المضادة في المانيا » و « الحملة لتأسيس الرايخ » ثم « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » (١٨٨٠) و « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » (١٨٨٤) و « مسألة السكن » (١٨٧٢) و « مساهمة في تاريخ المسيحية البدائية » (اعيد طبعه في مجموعة ماركس انجلس : حول الدين) ودراسات عن « رأس المال » و « نقد برنامج وافروت » (١٨٩١) .

فوق ذلك نشير الى « حول الفن والادب » و « حول الدين ودراسات فلسفية » ورسائل حول « رأس المال » وكلها نصوص مختارة من ماركس وانجلس .

ان دراسة مراسلة انجلس هي ايضا ضرورية ، وقبل كل شيء نذكر مراسلة ماركس مع انجلس (٩ كتب) و مراسلة انجلس وبول ولورالافارغ (٣ كتب) .

جميع هذه المؤلفات التي اوردناها ، ما عدا مراسلة ماركس - انجلس نشرت في المنشورات الاجتماعية ، التي نشرت طبعة كاملة للمراسلات في ١٩٧٠ .

باركلي :

(١٦٨٥ - ١٧٥٣) جورج ، فيلسوف انكليزي ، اسقف ومبشر سيء الحظ في امريكا لبعض الوقت . يتسم نشاطه اللاهوتي بطابع رجعي تماما ، فقد كان راهبا بروتستانتي في ايرلندا الكاثوليكية الملحقة والمستعمرة في بداية القرن الثامن عشر ، وكان في خدمة الامة الانكليزية الغازية . وبصورة موازية للتأملات الروحية ، اهتم باركلي بتأملات اكثر مادية (مثلا جدوى بيوت العمال الشهيرة ، وعمل الاطفال) كما يظهر ذلك في كتابه « رسالة في وسائل تجنب خراب بريطانيا العظمى » (١٧٢٠) الذي الفه بمناسبة افلاس شركة سوسي من جراء مضاربة مغامرة .

لقد ابرز لينين ميزات فلسفته ، ونجد عرضا لذلك في الكتاب الذي بين ايدينا في القسم الاول - الفصل الثاني . وفحص ماركس تصورات الاقتصادية فحفا جيدا في (Querist) وخاصة عن النقود وذلك في كتابه « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » .

اعماله : « النظرية الجديدة لادراكات الروح » (١٧٠٧) « مبادئ المعرفة البشرية » (١٧١٠) « محاورات هيلاس وفيلونوم » (١٧١٢) (٣) .

باستور :

لويس (١٨٢٢ - ١٨٩٥) ولد في دول (Dole) هو كيميائي وبيولوجي مشهور باكتشافاته العلمية والنوعية المتعددة . ساعد على تقدم العلم في الصراع ضد الامراض المعدية (راجع صفحات مختارة في « كلاسيكيات الشعب ») .

برنلي :

ادوار (١٨٤٦ - ١٩٤٠) فيزيائي ، اكتشف سنة ١٨٧٣ خصائص اوكسيد

٣ - Nouvelle théorie des perceptions de l'esprit - Principes de la connaissance Humaine .
(traduction Française par Charles Renouvier Paris (1920) — Dialogues entre Hylas
et Philonous traduction Française par F. Beaulavon. Paris 1895)

النحاس « لتقويم » التيارات المترددة في السنة ١٨٨٨ حقق الاتصالات الاولى بالراديو باكتشافه خصائص « الانبوب ذي النحاة » وبفضل « مكثافه »^(١) ولد اللاسلكي . في السنة ١٨٩٨ عرض على اكااديمية العلوم تطبيق اكتشافه على طلب النجدة للبواخر .

برودون

بيير جوزف (١٨٠٩ - ١٨٦٥) كاتب واقتصادي فرنسي ، هو الممثل الكلاسيكي لاشتراكية صغار البورجوازيين . ابن فلاحين فقراء ، اشتغل كمصحح في باريس وفي مرسيليا وفي مدن اخرى ، وترأس مطبعة في بزنيسون لبعض الوقت .

كتب « ما الملكية » ظهر في السنة ١٨٤٠ وهو الذي تضمن الجملة الشهيرة « الملكية هي السرقة » . التناقض الاقتصادي او فلسفة البؤس « ظهر في السنة ١٨٤٦ ورد عليه ماركس بكتابه « بؤس الفلسفة » كتب برودون ايضا « المقدرة السياسية للطبقات العمالية »^(٢) (١٨٥١) هذا الكتاب الذي احدث اثرا عميقا في الحركة العمالية الاشتراكية الفرنسية . برودون هو في نهاية الامر ، طوباوي بورجوازي صغير ، لا تصمد له حجة امام نقد ماركس الذي اعلن عن معارضته في اغلب الاحيان .

سمي برودون غداة ثورة ١٨٤٨ عضوا في الجمعية التأسيسية ، ووثق في لويس نابليون ، منذ استيلائه على السلطة في ٢ كانون الاول ١٨٥١ ليحقق انتصار العدالة الاجتماعية .

بور - رويال :

دير، اسس في السنة ١٢٠٤ ، وهو دير حناوي مشهور بالقرب من شافروز Seine oise وهي بلدة ماغني لوهامو (Magny-le-hameau) تعود شهرة

٤ - اداة تكشف عن الموجات الكهربائية (المترجمة)

هذا السدير للصراع بين الحناويين واليسوعيين في ظل لويس الرابع عشر والى صياغة (دراسة منطقية) ذات الميول الارسطية ، هدم في السنة ١٧١٠ بأمر من الملك .

بيكون :

فرنسيس دوفيرولام (١٥٦١ - ١٦٢٦) هو فيلسوف انكليزي شهير ، عضو في مجلس العموم في السنة ١٥٩٣ ، سمي محاميا عاديا للتاج في السنة ١٦٠٤ . في السنة ١٦١٣ سمي وزيرا للعدل ، في ١٦١٧ حاملا لاختتام الملك . في ١٦١٨ رئيس القضاء للتاج الملكي . في السنة ١٦٢٤ حكم عليه في البرلمان بالحبس والسقوط بتهمة الرشوة . اعيدت اليه حريته في غضون يومين وعاد الى الحياة الخاصة .

فرنسيس بيكون هو مؤلف عدد كبير من المؤلفات العلمية والفلسفية ويجب ان نلاحظ بينها بصورة خاصة « الاورغانون الجديد » ١٦٢٠ الذي يعارض فيه ميتافيزيقا الافكار القبلية القديمة ، بالمنطق المبني على التجربة .

فرنسيس بيكون هو واحد مؤسسي الفلسفة الحديثة والمنهج العلمي الحديث .

التحليل :

عملية ذهنية تقوم على تفكيك شيء ما او فكرة ما الى عناصرها .

التشريع :

علم يدرس بنية الكائنات الحية وعلاقة مختلف الاعضاء التي تتركب منها

التصوف :

هو موقف فلسفي وديني ، يقوم الكمال ، وفقا له ، (في المعرفة كما في الاخلاق) على نوع من التأمل الذي يوحد الانسان والخالق بصورة سرية . ونعني ايضا بلفظة صوفي وضعية للذهن تصدق ، وفقا لهذه الوضعية ، كل ما هو غامض وسري . وتقابل العقلانية .

توما الاكوييني :

القديس (١٢٢٧ - ١٢٧٤) لاهوتي وفيلسوف في العصور الوسطى . حاز لقب دكتور (يقابل : إمام) في الكنيسة ، مؤلفاته الرئيسية هي : مجموعة فلسفية ضد الوثنيين ، ومجموعة لاهوتية . تعرض الاولى العقيدة الكاثوليكية وتدافع عنها ، وتجهد لتبين ان الايمان والفعل لا يتعارضان . والثانية تضعها الكنيسة الى جانب الكتب المقدسة وتنقسم الى ثلاثة اقسام :

١ - دراسة عن الله . ٢ - نظرية في ملكات الانسان . ٣ - دراسة عن يسوع - المسيح وخلاص البشر على يديه والاسرار^(١) .

ان التومائية هي العقيدة اللاهوتية والفلسفية للقديس توما الاكوييني ، وهي منتشرة حاليا ايضا عند الفلاسفة الكاثوليك ، وهي عقيدة سکولانية متطرفة ورجعية بصورة عميقة (وهذا ما يفسر كونها الفلسفة الرسمية للكليروس والبابوية) .

الحسية :

مذهب فلسفي تتأني كل الافكار ، بموجبه ، من الاحساسات مباشرة

داروين :

شارل روبر : (١٨٠٩ - ١٨٨٢) عالم طبيعة انكليزي مشهور ، اهم منظري التطورية في علوم الطبيعة في القرن الماضي . ولقد وجدت نظرية التحول التي توقعها لامارك وغوته الخ . . . وجدت لديه تعبيرها النهائي ، فشق بذلك طرقا جديدة للعلم . وقد اسس داروين نظريته في التطور على فرضية الاصطفاء الطبيعي ، اي الاصطفاء في صراع البقاء الذي يبقى الاكثر جدارة . انطلق من تجارب التدجين الاصطناعي . ولكن اين هي يد المدجن في الطبيعة العمياء ؟ للجواب عن هذا السؤال استخدم داروين « محاولة في مبدأ السكان »^(٢) لـ مالتوس (١٧٨٩) بمقدار ما ذهب مالتوس من عدم التناسب

Un traité de Dieu — Une Théorie des Facultés de l'Homme
Un traité de Jésus — Christ, de la rédemption et des sacrements.
Essai sur le principe de la population de Malthus

- ٦

- ٧

بين زيادة السكان وامكانية تزايد وسائل العيش . وبالرغم من كون العلم البيولوجي الحديث قد تفحص مجموعة من الظواهر الجديدة وعدل وأكمل هكذا العوامل التي استخدمها داروين بعمومية مفرطة ، فان الفكرة الاساسية لنظرية التطور ما تزال راسخة في الفكر الحديث .

كتب انجلس عن هذا الموضوع في « تطور الاشتراكية » :

« لقد حمل داروين الى التصور الميتافيزيقي للطبيعة الضربة الاكثر نجاحا مبينا ان الطبيعة العضوية الحالية والنبات والحيوانات وكذلك الانسان هي نتاج سيرورة تطور تتابع منذ ملايين السنين » .

وفي خطبته على قبر ماركس (١٨٨٣) حدد انجلس العلاقات بين ماركس وداروين في الكلمات التالية : « وكما اكتشف داروين قانون التطور للطبيعة العضوية ، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ الانساني » . وكان ماركس قد كتب في السنة ١٨٦٠ ، بما يخص كتاب داروين الرئيسي الذي كان قد ظهر للتوفي السنة (١٨٥٩) : « عن اصل الانواع بطريقة الاصطفاء الطبيعي » كتب في رسالة الى انجلس : « بالرغم من كونه موسعا بطريقة فظة على الطريقة الانكليزية ، فهذا الكتاب يحتوي فيما يختص العلوم الطبيعية ، الاساس المطابق لوجهة نظرنا » . مراسلات ماركس وانجلس « الكتاب الحادي عشر صفحة ٢٦٤ »^(٣) . كذلك يعبر بالشكل نفسه في رسالة الى لاسال صفحة ٣٤٦^(٤) : « مؤلف داروين عظيم الاعتبار ، ويناسبني كاساس بالنسبة للعلوم الطبيعية ، وللصراع الطبقي في التاريخ . . بالرغم من كل ما يحويه من نواقص . ليس فقط هو الاول الذي وجه ضربة مميتة « للاهوت » في العلوم الطبيعية بل اقام بشكل تجريبي الاتجاه العقلي لهذه العلوم »^(٥) .

Mélanges de littérature d'Histoire et de philosophie (1752) — Traité - ٨
de dynamique

(17١3 et Elements de philosophie 1758)

Correspondance Marx — Engels. 11e Volume p. 426

Dans une lettre à Lusalte p. 346

- ٩

- ١٠

جاون لورون (١٧١٧ - ١٧٨٣) ، احد الممثلين المميزين لعصر الانوار في فرنسا ، رياضي كبير ، حقق اعمالا ضخمة ، ليقم مبادئ الميكانيك . لقد نشر مع ديدرو الموسوعة او القاموس المفكر للعلوم والفنون والمهن الذي وضعه مجموعة من رجال الادب . هذا العمل الكبير الذي حاربه بقوة الملكية وانتشر انتشارا كبيرا . ومنعه مجلس الدولة الرجعية في نهاية الامر ، وهذا العمل هو الاثر الرئيسي لعصر الانوار (٣٣ كتابا) (١٧٥١ - ١٧٧٧) .

الف دالمبار مقدمة هذه الموسوعة : « الخطاب التمهيدي » كانت وجهة نظره الفلسفية هي الشكية فلا المادة ولا الروح معروفة في جوهرها ، ومن الممكن افتراض العالم بشكل يختلف عما يظهر لحواسنا . الاعمال الرئيسية : اوراق: في الادب والتاريخ والفلسفة (١٧٥٢) كتاب الديناميك (١٧٥٢) وعناصر في الفلسفة (١٧٥٨) (١) .

دوهرنغ :

اوجين (١٨٣٣ - ١٩٢١) فيلسوف واقتصادي الماني ، كلف لبعض الوقت بالمحاضرات في الفلسفة والاقتصاد السياسي في جامعة برلين . اصبح اعمى تماما بعد ذلك بقليل . عاش دهرنغ ككاتب اولا في برلين ثم في فوافوس حتى موته . هذا الممثل الكبير للاشتراكية البورجوازية الذي رأى في « الجهود الطبيعية للذهن الفردي » اساس النظام الاجتماعي . وكان يتوقع من مصالحة التناحرات الطبقة خلاص المستقبل ، كان يعتبر نفسه كمصلح للبشرية . حاضر دوهرنغ امام مستمعين عديدين وفي موضوعات متنوعة جدا ، لكنه حرم من منبره بعد الهجمات العلنية القاسية ضد اساتذة برلين . بين السنة ١٨٧٠ و ١٨٨٠ تبعه كثيرون من الاشتراكية الديمقراطية . نشر في مؤلفات عديدة ، سيستاما خاصا اشتراكيا فلسفيا الفه بمساعدة عدد من « حقائق التحليل الاخير » المطلقة التي اعتقد انه اكتشفها . هو خصم للمسيحية ومعاد متحمس للسامية . قدم خدمة كبيرة للشوعية العلمية بالرغم عنه بصورة غير مباشرة ،

لقد احدثت هجماته المتفعلة ضد ماركس ولاسال « وفلسفة في الواقع » هذه الهجمات الموصومة بجنون العظمة ، احدثت بالفعل الرد في رسالة النقد الكلاسيكية المشهورة لانجلس « السيد اوجين دوهرنغ يقلب العلم » (اني دوهرنغ) مؤلف اصبح بعد وقت قصير الدليل الفلسفي للجيل العمالي الثوري الجديد . في هذا المؤلف مزق انجلس بدون شفقة المذهب السطحي لدوهرنغ وحقق لأول مرة ، ويبد معلم ، عرضا كاملا وواضحا للمادية الجدلية (انظر اني دوهرنغ لانجلس) (١) .

ديدرو :

داني (١٧١٣ - ١٧٨٤) ابرز المفكرين الماديين في حقبة الانوار في فرنسا . هو رئيس الموسوعيين وروحهم . نشر مع دالمبار خلال ربيع قرن ابتداء من ١٧٥١ ، الموسوعة الشهيرة المسماة (الرباط المقدس ضد التعصب والظلم) ، ان نشر هذا المشروع الذي اضطهدته الدولة واليسوعيين يتطلب تشددا متطرفا في قواه الاخلاقية وارادة عنيدة واصرارا كبيرا وتضحية مطلقة . يقول انجلس : لئن كان كل واحد قد كرس حياته متحمسا للحقيقة والحق - وهذه الجملة تؤخذ بمعناها الجيد - فهو ديدرو » لقد كتب في الموضوعات المختلفة : في العلوم الطبيعية والرياضيات ، وفي التاريخ والمجتمع ، وفي الاقتصاد والدولة ، والحقوق والتقاليد ، والفن والادب . ترى ديدرو في كتلكة متشددة فكير بمنظف مثير الاعجاب ، مارا من الالوهية ، الى المادية والاحاد المناضلين ، لينتهي بتجسيد الاهداف الاكثر سموا للفلسفة البرجوازية الفرنسية الثورية « عصر الانوار » لقد ترك اثرا عميقا ودائما في مجتمع زمانه . ولم يكن فكره محصورا في الحدود الضيقة للمادية المتبدلة ، فنجد عنده بذورا متعددة للفكر الديالكتيكي ، ففي « افكار فلسفية » (لاهاي ١٧٤٦) الذي صودر قبل الطبع بامر من البرلمان ، وفي « نزهة الشكي » (١٧٤٧) كان قد شرع في هجمات جريئة ضد الكنيسة . ومؤلفه الاحادي « رسالة عن العميان » (لندن ١٧٤٩) كلفه سنة في السجن ويعتبر ديدرو ايضا رائدا للامارك وداروين ، لانه ساند ، وبشكل واضح وسهل ، فكرة تطور تطور

الاجسام والوجود الاولى « للكائن البدائي » الذي انطلقت منه المتنوعات اللاحقة للمملكة الحيوانية والنباتية بواسطة تحولات متدرجة استنادا لفكره ، هناك تطور للانواع كما ان هناك تطورا فراديا ايضا . ويوجب ديدرو ، بعد ان تتبع بصورة منطقية فكرة التطور ، يوجب الاعتراف بتطور كل مادة جامدة في نهاية الامر . ففي مؤلفه « افكار حول تفسير الطبيعة » (١٧٥٤) تصور ، حتى لتفسير « العوامل النفسية تصور فرضية الذرات التي تحس وانها موجودة قبلا عند الحيوانات ، وانها تتحد الفكر عند الانسان . فجميع افعال الطبيعة هي مظاهر للجوهر الذي يتضمن الوجود بكامله ، والذي تظهر فيه وحدة القوى المتغيرة ابدا والتي هي رد فعل عكسي ابدى .

بين الكتابات الاكثر جرأة والاكثر ذكاء ، يجب ايراد : « محاورات دالمبار وديدرو » (١٧٦٩) و« حلم دالمبار » (١٧٦٩) التي تؤلف في نفس الوقت تحفته الادبية الكاملة . ولقد كان ديدرو ، فوق ذلك ، كاتباً دراماتيكياً بارزاً ، واستاذاً في النشر ، لقد اعلن نفسه مع الطبيعة لتقديم الواقع الحسي الملموس ، بدون اثقال ، وكان ذلك في صراعه من اجل اصلاح المسرح والفن . الف ديدرو فوق ذلك - ويجب القول انه كان الكاتب المفضل لدى ماركس - قصصاً عديدة وحكايات طريفة تنبع اهميتها من كون اناس كـ « ليسنغ » و« شيلر » و« غوته » ، لم يكونوا فقط من المعجبين به ، بل ترجعوا الى الالمانية كثيرا من اعماله . مؤلفه الاكثر شهرة هو « حفيد رامو »^(١٣) ١٧٦٢ الذي يسميه انجلس « تحفة الديالكتيك » . في المجموعة « كلاسيك الشعب » شرعت المنشورات الاجتماعية بطبع نصوص اساسية من ديدرو .

ديكارت :

رينه (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فيلسوف فرنسي ثنائي (اي انه يعارض بين المادة والروح بشكل ميتافيزيقي) حارب السكولائية واوجد الهندسة التحليلية . ثنائيته تضع العالم المادي المحسوس بين يدي الفيزياء او بصورة ادق بين يدي الآلية الرياضية . والنفس الروحية العقلانية بين يدي الميتافيزيقيا . ديكارت ايضا

Le neveu du Rameau

- ١٣

هو مادي في الممارسة ومثالي في النظرية . لقد جعلت منه هذه الثنائية مدار الفلسفة البورجوازية جميعها في الازمنة الحديثة ، ان في ميله الآلي - المادي او في ميله الميتافيزيقي الروحاني . ومن اجل ان يجد الحقيقة ويهدم السكولائية قرر ان يبدأ بالشك « منهجيا » في كل شيء . مستعبدا التجربة الحسية الخادعة ، لانه عقلاني ، واعلن المنهج الرياضي نموذجاً للعمل بكامله . اكتشف في القضية : « انا افكر ، اذن انا موجود » مثلاً اعلى لجميع الحقائق البديهية ، وتوصل الى وجود النفس كجوهراً روحاني بعد مجموعة من الاستنتاجات ، وتوصل الى وجود الله . وعلى وجود الله بني وجود العالم المادي . ولكن المادة بالنسبة له هي الامتداد . وهكذا يعلن ديكارت تحرير علم الطبيعة من كل أثر لاهوتي مفارق . فالتقدم الاساسي للفلسفة يقوم على المطالبة بمنهج علمي ، يحلل جميع الاشياء الى اجزائها البسيطة المؤلفة لها . ويعزله الاشياء هكذا ، يقول انجلس ، على اساس التحليل الرياضي الآلي وبتفسيخه علاقاتها بشكل ميتافيزيقي ، لم يقدم ديكارت في الوقت نفسه المقدمات الضرورية لتوليدها الديالكتيكي . وكان انجلس ينسب الى « منهجه الجديد » اعظم الاهمية في التطور التكنولوجي والصناعي في زمنه . في الواقع ان هذا المنهج وكما هو تصوره الفلسفي بشكل عام (يتصور الحيوانات كآلات) هو الفلسفة المميزة للحقبة المانيكفكتورية بشكل عام .

لكنها تمثل مع ذلك ارثاً عقلياً ثميناً ومفيداً للغاية .

بين المؤلفات : مقالة في المنهج (١٦٣٥) « تأملات ميتافيزيقية » (١٦٤١) مبادئ الفلسفة - (١٦٤٤) - وبحث في انفعالات النفس (١٦٤٩)^{١٤} .

الديكارتية :

اسم يطلق على فلسفة ديكارت .

- ١٤

Discours de la méthode — Méditations métaphysiques 1 Principes de philosophie — Traité des passions de l'âme - Traité de l'homme (Posthume)

ديمقريطس :

الابديري (٤٦٠ - ٣٧٠ قبل الميلاد) . فيلسوف يوناني واكبر مادي في العصور القديمة . ان ما يوجد بالفعل بالنسبة له هو الذرات والفراغ فقط . فالذرات هي العناصر البدائية الصغيرة جدا وغير المنقسمة ، وهي مختلفة الشكل والكبر والموضع ، وذات حركة ابدية ، فالاشياء تتولد من تنظيم الذرات . ويؤكد ديمقريطس ان النفس هي مادية ومركبة ككل شيء من ذرات (الا انها اكثر دقة من غيرها) . فيما عدا ذلك فان صفات الاشياء بالنسبة له (الوانها ، راسحتها الخ . .) هي ذاتية محضة وتكون اوامها للحواس . فالعالم الواقعي والموضوعي لا يحتوي صفات كهذه ، ومهمة العقل يجب ان تكون تجريد هذه الصفات لايجاد الذرات نفسها .

ان التناقض الملاحظ عند ديمقريطس بين الميزة الذاتية « للصفات » التي جهزتها الحواس ، وبين العالم الحقيقي او موضوعية الذرات التي يتصورها العقل : ان هذا التناقض يطرح مشكلة المعرفة في الديكالككتيك المادية بشكلها البدائي ، فنظريته الذرية هي حدس عبقرى من الذرية الحديثة .

الديالككتيك :

كلمة ديانكتيك تعني اصلا من المناقشة او علم المناقشة . والديالككتيك عند افلاطون هو اولا فن اخراج جميع النتائج السلبية والايجابية المتضمنة في فكرة او مبدأ ما . ثم هو السير الصاعد والمعتلن للذهن الذي يرتفع بمراتب متتابعة من المسلمات الحسية حتى المثل التي هي المبادئ الخالدة والدائمة للاشياء . وتأتي قبلها جميعاً فكرة الخير . وبما ان المثل بالنسبة لافلاطون هي وحدها الواقع المستحق لهذا الاسم فان الديكالككتيك او علم المثل ينتهي بان يكون هو العلم نفسه .

الديالككتيك عند هيجل هو حركة الفكرة ، مارة بالاطوار المتتابعة : الاطروحة ، الاطروحة - النقيض ، ثم التوليف ، حتى الفكرة المطلقة .

والديالككتيك ، عند ماركس والماركسيين ، ليس حركة الفكرة ، ولكنه حركة الاشياء نفسها من خلال التناقضات ، حيث حركة الذهن ليست سوى

التعبير عنها نفسها . ونجد دراسة عميقة عن الديالككتيك الماركسي في القسم الرابع من هذا المؤلف الذي بين ايدينا .

الذرة :

نسمي الذرة في الكيمياء والفيزياء ، الجزيء المادي الذي يكون اصغر كمية للعنصر ويستطيع الدخول في مزيج .

وتعني هذه الكلمة في الفلسفة القديمة ، اصغر عنصر للمادة ، غير منقسم ابدأ ، العنصر الاول الذي منه انطلق تكون الطبيعة بكاملها بالمزج والتراكم .

اللاهوت :

« علم » الله ودراسة العقيدة والنصوص الدينية .

السيمياء :

اسم يطلق على الكيمياء في العصور الوسطى . وهو فن اكثر منه علم قريب من السحر ، ويتقوم بالبحث عن دواء شاف لكل العلل وتحويل المعادن الى ذهب بوساطة « الحجر الفلسفي » .

طاليس :

احد المفكرين الرئيسيين في مدرسة ميله في آسيا الصغرى (في القرن السادس قبل الميلاد) . وكانت مدرسة ميله المدرسة المادية الاولى في العصور اليونانية القديمة حاول فلاسفتها ان يشرحوا كيف تتولد جميع الاشياء من الهواء والنار او الماء .

العقلانية :

سيستام مؤسس على العقل ، بالتعارض مع السيستام المؤسس على الوحي الديني ، ويسمى ايضا عقلانية السيستام الذي يكون العقل بالنسبة له اصلا للأفكار بالتقابل مع التجريبية التي تعلن اننا لا نستطيع الا معرفة معطيات التجربة . ونعني اخيرا بهذه الكلمة منهجا في التفكير العلمي الذي يجعل من

واجبنا ان لا نستسلم الا للعقل . وان نتجنب كل ما يكشف عن تصور غير مراقب ، وعن نزوات تأملية وعن « الايمان » ويجب ان نشير على كل حال ، ان مساعدة الديالكتيك هي وحدها التي تتيح للعقلانية ان تصبح خصبة « وحديثة » .

الغائية :

هي فرضية بموجبها يكون لكل كائنات الطبيعة غاية (في اليونانية telos - fin) وهدف محدد - ومراد غالبا من الله او العناية الالهية . ان برنار دوسان بير (القرن ١٨) هو الذي اعطى الشكل الاكثر تطرفا في هذا التفسير ، فأكد انه اذا كانت التفاحة تتدل من غصن الشجرة فذلك لكي يستطيع الانسان ان يقطفها بسهولة ، وان اليقطينة نبتت في الارض وليس على شجرة حتى لا تصرع المارة الخ . . هذه الفرضية لا يزال يدعمها بعض البيولوجيين في ايامنا ولكن بشكل اقل كاريكاتورية .

فيزيولوجيا :

العلم الذي يدرس الوظائف العضوية التي تظهر فيها الحياة .

فلوجستيك :

مبدأ او حسم مائع تصوره الكيميائيون القدامى لشرح الاحتراق والنار .

لودفيغ :

فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فيلسوف الماني ، مادي وابن العالم الجنائي المشهور في زمنه بول انسمن فيورباخ . ارغم فيورباخ على ترك مهنته الاكاديمية بسبب تصوراته الفلسفية ، وعاش عندئذ في الريف في ضيق مادي . انتقل فيورباخ من الهيجيلية اليسارية الى المادية « الفكر خرج من الوجود ، ولم ينطلق الوجود من الفكر » . « الانسان هو انتاج الطبيعة والدين هو انعكاس اسطوري للطبيعة الانسانية » .

ففي الله نتعرف على الانسان ، وفي الانسان نتعرف على الله ، والشيطان

هما هما . فليس الله هو الذي يخلق الانسان بل الانسان يخلق الله على صورته . ان فلسفة فيورباخ كانت الحلقة الوسطى بين فلسفة هيغل وفلسفة ماركس . وبالرغم من احتفاره البالغ لمادية القرن الثامن عشر الفرنسية كان فيورباخ في الواقع مجددا لمادية القرن الثامن عشر بكل حسناتها وسيئاتها ، بكرمه النبيل والفخور والثوري لكل « لاهوتية » وميله للمثالية عندما يتعلق الامر بتفسير الظواهر والافعال الاجتماعية .

لقد اعلن ماركس وانجلس ، اللذان كانا لبعض الوقت تلامذة له ، عدم كفاية ماديته . فصاغوا المادية الديالكتيكية التي تجاوزت فيورباخ ، مع تمثلها لما يملك فكره من اشياء صالحة .

غاليلي :

(١٥٦٤ - ١٦٤٢) رياضي ، فيزيائي ، وعالم فلك ، مؤسس العلم التجريبي في ايطاليا ، اكتشف قانون توافق التذبذب في رقاص الساعة ، وبين تساوي زمن السقوط للاجسام غير المتساوية الوزن . قبل نظام كوبرنيكوس في الفلك ، ونسب منظارا فلكيا جديدا وحقق اكتشافات اكدت نظام كوبرنيكوس ، اعلن اذن ان الشمس مركز العالم وان الارض تدور حول الشمس . طورد من قبل محكمة التفتيش ، فأرغم على استدراك اقواله واعلن بعد ارتداده جملته المشهورة : « ومع ذلك فهي تدور »

كنط :

عمانوئيل : (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فيلسوف الماني مشهور ، علم كل حياته الفلسفية في جامعة كينسبرغ ، نشر في السنة ١٧٥٥ فيزياء الكونية ، الكونية ، ونظرية السماء ، هذا المؤلف الذي يمهّد لنظرية لابلاس في تكوين الكواكب . كتب في السنة ١٧٨١ « نقد الفكر المحض » وفي السنة ١٧٨٧ « بحث في السلام الابدي »^(١٥) ، تدعي لأدرية كانط انه من المستحيل معرفة الاشياء في ذاتها ، كما هي بذاتها بل الاشياء فقط كما تظهر لنا (الظواهرات =

ما يظهر) .

لقد تعاطف كمنط مع الثورة الفرنسية ، كان ليبراليا ، لكنه يحترم القوانين القائمة . في الدين ، هو عقلاني لكنه يحترم الأديان الوضعية . فقد هاجم الفيلسوف الدوغماتية ولكنه أبعد الشكية أيضا . وفي الأخلاق رفض كل قانون خارجي لكنه ليعود فيضع لقانون داخلي أقسى من كل ما يرفض . شجاعة في مسألة النظر ولكن احترام النظام القائم في الواقع والممارسة وكان ذلك علامة ذهنة الفارقة . انه باختصار ، النموذج الحقيقي للبورجوازي الليبرالي .

لا أدري :

اسم يعطى في الفلسفة لمن يعلن ان الحقيقة لا يدركها الذهن البشري .
كوبرنيكوس :

(١٤٧٣ - ١٥٤٣) فلكي بولوني شهير . مؤلف كتاب « دورات الفلك السماوي » حيث يبرهن حركة دوران الأرض حول محورها وانتقالها حول الشمس .

لامتري :

جوليان أوف ، (١٧٠٩ - ١٧٥١) طبيب وفيلسوف فرنسي . اضاع مكانته كطبيب عسكري بعد نشره لمؤلفه المادي الواضح : « تاريخ النفس الطبيعي » ذهب الى فريدريك الثاني فاصبح قارئة المفضل .

كتب لامتري مؤلفات عدة ، طبق فيها على الناس النظرية الديكارتية لآليه الحيوانات ، وشرح العواطف والتمثلات والاحكام ، بعمل الجهاز العصبي

لوك :

جون (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فيلسوف انكليزي يمثل المذهب التجريبي الذي يعلن ان التجربة هي الاساس الوحيد لكل معرفة . في كتابه « بحث في الفهم » (١٦٩٠) استنجد لوك بمبدأ التجربة لحل مشكلة المعرفة . نفى

- ١٦

Locke : Essai sur l'entendement

وجود الافكار الفطرية وجعل التمثلات جميعاً تأتي من مصدرين : حس خارجي وحس داخلي . وبقدر ما كان لوك يفسر الاحساسات الخارجية بتأثير الاشياء علينا ، وحيث أعلن فرضيته الجريئة في زمنه : ان المادة (لو كان الله يريد ذلك) تستطيع التفكير ، كان يضع نفسه مع وجهة النظر المادية . ولكنه بمقدار ما بقي مرتبطاً بافكار الله والنفس والتي تبدو على كل حال ، في رأيه من مجال الايمان ، هوثنائي (يقسم العالم الى مادة وروح) ويفتح تطور مذهب التأليه الانكليزي . ان الذي يميز نظريته المعرفة هو « ذرية » الفهم الانساني ، اي انه يختصر الذهن بمجموعة من « موزاييك » الاحساسات وموزاييك الوعي . وليس ذلك سوى الانعكاس الامين للعالم البورجوازي المفتت الى ذرات . لقد كان لوك ، في تصورات عن السياسة الاجتماعية ، المدافع الموطن العزم عن مصالح البورجوازية ، فأعلن نفسه ، كمنظر لليبرالية ، مع الملكية الدستورية ، ومع التسامح مع الاحاد .

مؤلفاته الرئيسية : بحث في الفهم (١٦٩٠) رسائل حول التسامح (١٦٨٥ - ١٧٠٤) (١٧) .

لوسيب :

(القرن الخامس قبل الميلاد) - فيلسوف مادي ، تلميذ زينون ، ومعلم ديمقريطس . طور نظرية الذرات .

لوكريس :

تيتوس لوكريوس كاروس (٩٥ - ٥١ قبل الميلاد) شاعر لاتيني مشهور ولد في روما ، من اتباع ابيقور ، غنى في اشعاره الافكار المادية لمعلمه (١٨)

لينين :

فلاديمير ايليتش اوليانوف (١٨٧٠ - ١٩٢٤) ولد في ٢٢ نيسان ١٨٧٠ .

- ١٧

Voir la nature des choses (extraits) des classiques du peuple .

- ١٨

Locke: Essai sur l'entendement — Lettres sur la tolérance

(١٩٠٨) ، دفا تر فلسفية ، الدولة والثورة (١٩١٧) . وشهر الى شهر
 « اعماله الكاملة » في السنة ١٩٥٧ من قبل المنشورات الاجتماعية .
 ماركس :

كارل هنريش (١٨١٨ - ١٨٨٣) احد اكبر العباقرة الكبار في القرن التاسع
 عشر ، المؤسس الخالد للشيوعية العلمية ، المؤسس للنظرية والممارسة في
 الصراع الطبقي . الثوري الحديث للبروليتاريا العالمية . ان المثل الاعلى
 الشيوعي مدين لماركس بنظرية وبرنامجه العلمي . يركز مذهبه على مبادئ
 المادية الديالكتيكية . فقد برهن بتحليلاته المتفوقة للمشاكل الملموسة ، سواء
 اكان ذلك يختص باكتشاف القوانين الداخلية للرأسمالية ، ام بشرح الحقبات
 والحوادث المحددة في تاريخ البشرية ، برهن في كل هذا على تفوق الديالكتيك
 المادي وكونه منهجا نظريا للبحث عن العلاقات التاريخية في الماضي ، ولعرفة
 القوى المحركة الحقيقية للتطور الاجتماعي في الوقت الحاضر ، وكذلك بالنسبة
 لتحديد الميول نحو التطور في المستقبل . فنقده العبقري للمجتمع
 البورجوازي كان هداماً وبناءً في آن واحد ، كان هداماً في اعلانه موت
 البورجوازية ، وبناء في اعلانه نصر البروليتاريا . كانت ديالكتيكيته منهجا
 للبحث ودليلا للنشاط الانساني . فديالكتيكيته المادية لا تمتد فقط لمعرفة قوانين
 التاريخ البشري ولكن لمعرفة تاريخ الطبيعة ايضا . من هنا انتسابه للثورة التي
 احداثها مذهب التطور لداروين في العلوم الطبيعية .

ان منهج التفكير والعمل الذي تكوّن الماركسية هو ائمن اسلحة البروليتاريا
 في الصراع الذي تقوده في سبيل تحريرها ومن اجل انسانية شاملة .

لنورد اهم مؤلفات ماركس حسب ترتيب زمني : مخطوطات ١٨٤٤
 (فلسفة ، اقتصاد سياسي) : العائلة المقدسة (١٨٤٥) الابديولوجية
 الالمانية (١٨٤٥ - ١٨٤٦) كتبت بمساعدة انجلس بؤس الفلسفة (١٨٤٧)
 بيان الحزب الشيوعي (بمساعدة انجلس) (١٨٤٨) : العمل المأجور
 ورأس المال (١٨٤٩) الاجور والاسعار والارباح (١٨٦٥) النضال

ومنذ السنة ١٨٨٥ شرع بدراسة رأس المال لماركس ، وبدأ النضال . في السنة
 ١٨٨٧ ، كان اول اعتقال له ، وأعدم اخوه الاكبر لاشتراكه في محاولة اغتيال
 القيصر الكسندر . في السنة ١٨٩١ انهى دراسة الحقوق . وابتدأ النضال
 لتحرير الطبقة العمالية والفلاحية .

اوقف ونفي الى سيبيريا . ثم اطلق سراحه ، لكنه اوقف بعد وقت قصير .
 وفي السنة ١٩٠٠ سافر الى الخارج ، الى زوريخ ولندن وجنيف : لكن « بين
 الذين ظلوا في روسيا ، كان قليل جدا منهم ، مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحياة
 الروسية ، كلينين » (ستالين) . اسس لينين الحزب البولشيفي . وفي السنة
 ١٩٠٥ قامت الثورة الاولى التي سحقت والتي استفاد منها لينين دروسا
 كثيرة . من جديد نفى نفسه لفترة طويلة في باريس (١٩٠٨ - ١٩١٢) . ولم
 يعد الا في ١٩١٧ ليؤكد ان « الحزب الشيوعي جاهز في كل لحظة لتسلم
 السلطة بكاملها . كان عليه ان يناضل ضد الحكم المؤقت لكرنسكي .
 وأستطاع لينين ان يعلن في مساء ٢٦ تشرين الاول ، وبعد الاستيلاء على قصر
 الشتاء مقر الحكومة المؤقتة : « ابتدأنا ببناء المجتمع الاشتراكي » . ومنذ ذلك
 الوقت ، كرس لينين نفسه لصنع بلد اشتراكي من بلاده ، واخذت شعوب
 الاتحاد السوفياتي ، بتوجيه منه ومن الحزب البولشيفي ، تناضل ضد العدو
 الامبريالي ، وتنهض بالبلاد من بين الانقاض ، تجهزها بالكهرباء . خلصها
 من المجاعة ، وتفتتح ، بعد وضع مبادئ التخطيط تطور الصناعة الثقيلة
 الضرورية للاستقلال الوطني . ومات لينين بعد ان استهلكه العمل المتواصل
 في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ في الرابعة والخمسين من العمر .

وبالرغم من انهاكه في النضال ، ثم كونه رجل دولة ، لم يهمل لينين لحظة
 واحدة المشاركة في تحسين الاطروحات الماركسية لدرجة اننا اليوم نسمي المادية
 الديالكتيكية ، الماركسية اللينينية . ان اهم مؤلف له من وجهة النظر هذه هو
 بدون شك « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » (١٩١٧) .

كذلك ان مؤلفه : (اليسار) المرض الطفولي للماركسية (١٩٢٠) هو
 مؤلف مهم كذلك في تطبيق المادية التاريخية على مشكلات الممارسة السياسية .
 وبين مؤلفاته الفلسفية نذكر : المادية والمذهب النقدي التجريبي

الطبيقي في فرنسا ١٨٤٨ - ١٨٥٠ (١٨٥٠) برومير^(١١) للويس بوناپرت (١٨٥٢) مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (١٨٥٩) هرفو (١٨٦٠) راس المال الكتاب الأول (١٨٦٧) - الكتاب الثاني والثالث نشرهما انجلس بعد موت ماركس^(١٢) نقد برنامج غوتا (١٨٧٥) - نظريات حول فائض - القيمة ، ويعتبر هذا الكتاب متضمنا للكتاب الرابع لرأس المال ، ونشر ايضا بعد الوفاة .

وتقرأ النصوص المختارة لماركس وانجلس بمجموعة فائقة : « رسائل حول رأس المال » ، حول الدين ، حول الادب والفن ، دراسات فلسفية (مجموعة نصوص من بينها « لودفيغ فيورباخ » ، ودراسة حول المادية التاريخية لانجلس ، التي تؤلف المقدمة لكتابه الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ، « اطروحات حول فيورباخ » ، ومقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » لماركس وعدة رسائل فلسفية .

موليير :

جان بابتيست بوككن (١٦٢٢ - ١٧٧٣) اكبر الكتاب الهزلين الفرنسيين . مسرح جميع الظروف الاجتماعية في عصره : الفلاحين والتجار والبورجوازيين ، والاطباء وسكان المدن وجماعة البلاط ، واذا كان هزل مسرحياته يختلف جدا في التهريجات « الطبيب رغما عنه » ، او « خزعبلات سكاين »^(١٣) عنه في بقية كوميديات الخصائص والعادات ، (البخيل ولليزوتروب) ، لكنه ، في الحالتين ، ينشأ دائما عن تمثيل الحماقة الانسانية والتشويه الاخلاقي . دافع موليير عن الحس السليم في كل مكان متوجها نحو الحس السليم للشعب . فكان يعرف ان يضحكهم بدون

١٩ - برومير : هو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية (المترجمة) .

٢٠ - Marx: La sainte famille - L'Idéologie allemande - Misère de la philosophie Manifeste - du parti communiste - Travail salarié et capital. Salaire, prix et profit. Les luttes des classes en France - La 18 brumaire de Louis Bonaparte - Contribution à la critique de l'économie politique - Le capital I - 2 - 3 Critique du programme de Gotha les Théories sur la plus - value

Molière : Le médecin Malgré lui - L'avare

- ٢١

ان يجعلهم ينقطعون عن التفكير . ففي معالجته للمشاكل اليومية المستمرة بلغة غالبا ما تكون لغة المخاطبة العامة ، التي تنفج بالذوق الشعبي او المحلي ، كان طبيعيا بصورة هائلة . وكان الحافز لمسرحياته دائما هو واقع الانسان كما يظهر من خلال نواقص معاصريه . لقد كان عمله ضخما .

الموسوعة :

كتاب يتضمن ملخص جميع المعارف البشرية . والموسوعة هي في التاريخ الادبي الفرنسي المؤلف الضخم الذي صدر في القرن ١٨ . وعرضت فيه لأول مرة جميع المعارف البشرية من وجهة نظر البرجوازية الشورية . والى جانب الاثر الذي احدثه فضحها الحازم لعيوب النظام الاقطاعي الملكي فان اسهامها الحاسم كان على المستويات الثلاثة : المادية (الميكانيكية) ، والاحاد وتقدم التكنيك (انظر النصوص المختارة من الموسوعة في كلاسيكيات الشعب) .

ميكانيك : هو علم الحركات

والقوى

ميتافيزيقيا :

هي سيستم من الافكار والاطروحات الاعتبارية والدينية بصورة تقل او تكثر ، والتي تدعي تفسير العالم بمبادئ غير مادية وفوق طبيعية وغالبا بواسطة الله . وهي منهج في التفكير يعزل الاشياء وموضوعات الدرس بعضها عن بعض ، ويرفض اعتبارها في ديمومة حركتها : يقابل الديالكتيك (راجع القسم الثالث من المؤلف الذي بين ايدينا) .

ميتولوجيا :

التاريخ الاسطوري والخرافي لالهة الشعوب القديمة او المتوحشة . بتوسع كل مذهب خرافي .

كلود أدريان (١٧١٥ - ١٧٧١) ولد في باريس ، « متعهد مالي »^(٢٢) رجل ادب وفلسفة ، احد كبار الماديين في القرن الثامن عشر . وكتابه « عن الروح » (١٧٥٨) احرق بناء على امر من البرلمان ، « عن الانسان » ظهر (١٧٧٢) . كان خصما للاقطاع واللاهوت ، فبشر ب« تشريع » يقوم على توافق الفوائد الفردية مع الفائدة الاجتماعية ، لكنه احوال على التربية مهمة اصلاح المجتمع (راجع هلفتيوس : نصوص مختارة « كلاسيك الشعب »^(٢٣) .

بارون دولباخ :

بول هنري تيري (١٧٢٣ - ١٧٨٩) مادي فرنسي ، وصل الى باريس في الثانية عشرة من عمره ، درس في فرنسا التي اصبحت وطنه الحقيقي ثم في ليد (Leyde) . لقد كان دولباخ من اكثر المشاركين حيوية مع ديدرو في تأليف الموسوعة . كتب موضوعات وهوامش تتعلق بالعلوم الطبيعية . وكان صالونة ملتقى أفضل الادمغة في فرنسا آنذاك . هناك تشكلت الايديولوجية الثورية للمرتبة الثالثة (اي غير النبلاء والاكليروس في فرنسا) والتي صاغت ، في حلقة ضيقة من بعض الاصدقاء ، مبادئ الفلسفة التي ستسمى فيما بعد المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر . فقد وجدت المادية الآلية في مؤلفاته تعبيرها المستم والناجز . وقف دولباخ ضد الثنائية ، ضد ازدواجية العالم بين المادة والروح . فالانسان ليس سوى النتاج الضروري للطبيعة . والطبيعة هي المادة المتحركة . والمادة هي التي تؤثر بشكل مباشر او غير مباشر على اعضاء حواسنا . الساتيم الروحية واللاهوتية ليست سوى غناء دماغى ضائع للانسان ، وثمره جهله والتضليل الواعي للأكثرية من هؤلاء الذين يستفيدون من هذا التضليل وخاصة من الكنيسة . كتابه « سيستم الطبيعة » (١٧٧٠)

٢٢ - Fermier général متمول في ظل الملكية الفرنسية كان يلتزم بجباية الضرائب (المترجمة)

Voir Helvétius: Textes choisis « Les classiques du peuple »

كان له تأثير ثوري خارق في زمانه (راجع دولباخ - نصوص مختارة) « كلاسيكات الشعب » .

هيراقلطس:

(٥٤٤ - ٤٧٥ قبل الميلاد) سمي ايضا « الغامض » . عاش في المدينة التجارية أفسس (Ephèse) في اسيا الصغرى وكان احد اكبر الديالكتيكيين البارزين في العصور القديمة . الصيرورة عنده هي القانون الاساسي للكون ، ماهية العالم هي صراع ووحدة الاضداد ، ووحدة الوجود واللاوجود . لقد رأى هيراقلطس في عدم الاستقرار هذا بجميع الاشياء ، وفي هذا التغير المتواصل لكل وجود ، القانون الاكثر عمومية في الكون . كل شيء يسيل ، لا شيء ثابت ، بشكل اننا لا نستطيع ان نستحم في النهر ذاته مرتين . فالكون صراع وسلام ، شتاء وصيف ، تدفق وهدهد ، شبع وجوع الخ . . . والتناقض ، المبدأ المسيطر في العالم ، ملازم للاشياء في نظره ، بشكل يجعل من الكل وحدة للاضداد .

هيجل :

جورج ويليام فريدريك (١٧٧٠ - ١٨٣١) اهم فيلسوف مثالي في المانيا . مهم بمنهج الديالكتيكي الذي هو صحيح في اساسه ، وان تصوره هيجل بشكل مثالي . انه مثالي موضوعي ، « الفكرة المطلقة » هي المبدأ الاول للواقع بالنسبة له ، وهي تتمظهر في الطبيعة ، ثم تتحقق ذهنا ومعرفه . صيرورة الفكرة هذه تكون تطورا منطقيا - ديالكتيكيا حيث التاريخ الواقعي هو التعبير عنه . الفكرة المحضة اذن هي خالقة العالم وتاريخه . والعالم ليس التجلي الفكرة . وهذه الفكرة - كما اوضح فيوريخ ، ليست ، في آخر الامر ، سوى اله المسيحية في غلاف مجرد ومنطقي . ماركس وانجلس قلبا دياكتيك هيجل : « وضعاه على رجليه » باعطائه محتوى ماديا وبجعله سلاحا نظريا ثوريا حقا . راجع ماركس وانجلس : « دراسات فلسفية - المنشورات

الهيجليون الشباب :

بعد موت هيجل ، انقسم تلاميذه الى مجموعتين متقابلتين حسب التفسير الذي اعطوه لمذهب المعلم . فاولئك الذين تمسكوا بحرفية المذهب ، كونوا اليمين الهيجلي ، وكانوا المدافعين عن الدولة البروسية ، والآخرين الذين تخلوا عن النتائج المثالية والمحافظة لهيجل مرتكزين على منهجه ، كونوا اليسار الهيجلي او « الهيجليون الشباب » . فهاجموا جميع اشكال الرجعية . وكان بينهم ارنولد روج - شتراوس ، برونو باور ، فيورباخ ، شترنر ، كوين ، كارل ماركس .

هيوم :

دايفيد . (١٧١١ - ١٧٧٦) فيلسوف اسكتلندي ، شككي ولا ادري في الفلسفة ، هو رجل سياسة نشيط ، الف ابحاثا عن مشاكل الاقتصاد الاجتماعي وكان مؤرخا اصيلا ، وفلسفته تمثل نقطة الاوج بالنسبة للاتجاه الخاص بالفكر البورجوازي الانكليزي الذي يتبدى بفلسفة لوك التجريبية . ثم ينحرف بعد ذلك الى ذاتية باركلي ، يعلن نفسه اخيرا لصالح اللاأدرية ، في كل المسائل الاساسية ، اي لصالح النظرية التي تثبت عدم امكانية المعرفة الحقة .

لا يكتفي هيوم كما يفعل باركلي بنفي وجود المادة ، بل يمتد شكه الى العلاقة السببية للاشياء معلنا ان علاقات السببية لا تملك حقيقة موضوعية ، وقد اقيمت ببساطة بفعل عادة ذاتية : يلاحظ الانسان الاعداد المنظمة لسلسلة من الظواهر ، فيستنتج منها بدون اي سبب ان احداها هي سبب للآخرى .

يقول هيوم : انا اللاحظ ، انه في كل مرة تضرب فيها الكرة البيضاء ، الكرة الحمراء تبدأ هذه بالاهتزاز ، اعبر عن تكرار هذه الظاهرة قائلا : اصطدام الكرة البيضاء هو سبب حركة الكرة الحمراء ولكن من يضمن لي ان تلك

سببية ضرورية وموضوعية ، وليست وهما شخصياً ؟ ومن يضمن لي ، ان اصطدام الكرة البيضاء ، في المستقبل ، سيهز الكرة الحمراء وسيكون ايضا سبب حركتها ؟ انه يرفض اذن كل ضمانة في علاقة السببية التي تكون مع ذلك محور تفسير العالم وفهمه . كذلك ليس العالم الخارجي بالنسبة له في نهاية الامر ، سوى فرضية ، سوى « اعتقاد » . لقد اقام كانط « مذهب النقدي » لدحض « هيوم » ونظريته في النقد ، التي حللها ماركس في كتابه « نقد الاقتصاد السياسي » بوصفها تطبيقاً لتصوره البورجوازي المخادع للعلاقات الاقتصادية التي تحمل الظواهر السطحية للاشياء مكان السيوررات الاصلية الاساسية .

الاعمال الرئيسية : « كتاب الطبيعة الانسانية » (١٧٣٩ - ١٧٤٠) ابحاث في العقل البشري (١٧٤٨) (١١) .

قائمة بالمصادر

انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية - دار التقدم - موسكو
 انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة - دار التقدم - موسكو
 انجلس : لوفينغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية - دار التقدم - موسكو
 انجلس : انتي دوهرنغ - ترجمة فؤاد ايوب - دار دمشق : الطبعة الاولى - ١٩٦٨ .

ماركس انجلس : بيان الحزب الشيوعي - مكتبة الاشتراكية العلمية .
 لينين : المادية والمذهب التجريبي - دار دمشق - ١٩٧١
 لينين : ما العمل - دار التقدم - موسكو - ١٩٦٨ .

Marx : préface de la contribution à la critique de l'économie politique
 E.S., 1947
 Encyclopédie : Les classiques du peuple : E.S.
 Diderot : Lettre sur les aveugles : Textes choisis T.1. Paris éditions
 sociales «Classiques du peuple» .
 A. Peujon : Précis d'histoire de la philosophie librairie de la place
 René Maublanc : La vie ouvrière. 25 Novembre 1935
 Berkeley : Dialogues d'hylas et de philonoüs : Collection « Les classi-
 ques pour tous ». Librairie Hatier.

محتوى الكتاب

٥ تقديم المترجمة
 ١٥ مقدمة : مورييس لوغوا

القسم الاول

المشكلات الفلسفية

٢١ مقدمة
 ٢١ ١ - لماذا يجب ان ندرس الفلسفة ؟
 ٢٢ ٢ - هل دراسة الفلسفة شيء صعب ؟
 ٢٢ ٣ - ما الفلسفة ؟
 ٢٣ ٤ - ما الفلسفة المادية ؟
 ٢٤ ٥ - اوجه العلاقة بين المادية والماركسية
 ٢٦ ٦ - حملات البورجوازية ضد الماركسية

الفصل الاول - المشكلة الاساسية في الفلسفة

٢٨ ١ - كيف يجب ان نبدأ دراسة الفلسفة ؟
 ٢٩ ٢ - طريقتان لتفسير العالم
 ٢٩ ٣ - المادة والروح
 ٢٩ ٤ - ما المادة ؟ ما الروح ؟
 ٣٠ ٥ - المسألة او المشكلة الاساسية في الفلسفة
 ٣١ ٦ - مثالية ام مادية

الفصل الثاني - المثالية

٣٤ ١ - المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية
 ٣٥ ٢ - لماذا يجب ان ندرس مثالية باركلي ؟

القسم الثاني المادية الفلسفية

الفصل الاول : المادة والماديون

- ٦٧ ١ - ما هي المادة ؟
- ٦٨ ٢ - النظريات المتتابعة في المادة
- ٦٩ ٣ - ما هي المادة بالنسبة للماديين ؟
- ٧٠ ٤ - المكان - الزمان - الحركة والمادة
- ٧٢ ٥ - خلاصة

الفصل الثاني: ماذا يعنى ان يكون الانسان ماديا

- ٧٣ ١ - وحدة النظرية والممارسة
- ٧٤ ٢ - ماذا يعنى كون الانسان متحزباً للمادية في مجال الفكر .
- ٧٦ ٣ - كيف نكون ماديين في الممارسة ؟
- ٧٩ ٤ - خلاصة

الفصل الثالث: تاريخ المادية

- ٨١ ١ - ضرورة درس هذا التاريخ
- ٨٢ ٢ - المادية الماقبل الماركسية
- ٩٠ ٣ - مم تتأني المثالية ؟
- ٩١ ٤ - مم يتأني الدين ؟
- ٩٣ ٥ - حسنات المادية الماقبل الماركسية
- ٩٤ ٦ - عيوب المادية الماقبل الماركسية

- ٣ - مثالية باركلي
- ٤ - نتائج التعليل المثالي
- ٥ - الحجج المثالية

الفصل الثالث: المادية

- ٤٣ ١ - لماذا يجب علينا دراسة المادية ؟
- ٤٤ ٢ - من اين تأتي المادية ؟
- ٤٥ ٣ - كيف تطورت المادية ولماذا ؟
- ٤٦ ٤ - ما هي مبادئ المادية وحججها ؟

الفصل الرابع: من هو على حق ، المثالي ام المادي

- ٤٩ ١ - كيف يجب ان نطرح المشكلة ؟
- ٥٠ ٢ - هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟
- ٥٢ ٣ - هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟
- ٥٣ ٤ - هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟
- ٥٤ ٥ - الماديون هم على حق والعلم يثبت تأكيداتهم

الفصل الخامس : هل هناك فلسفة ثالثة

- ٥٦ ١ - لماذا فلسفة ثالثة ؟
- ٥٧ ٢ - مجموع ادلة هذه الفلسفة الثالثة
- ٥٨ ٣ - مم تتأني هذه الفلسفة ؟
- ٥٩ ٤ - نتائجها
- ٦١ ٥ - كيف ندحض هذه الفلسفة الثالثة
- ٦٢ ٦ - الخلاصة

الفصل الثالث: القانون الثاني - الفعل المتبادل

- ١ - ترابط السيرورات ١٣٧
- ٢ - الاكتشافات الكبيرة في القرن التاسع عشر ١٤١
- ٣ - النمو التاريخي او النمو الخلزوني ١٤٢
- ٤ - خلاصة ١٤٤

الفصل الرابع : القانون الثالث - التناقض

- ١ - الحياة والموت ١٤٦
- ٢ - الاشياء تتحول الى ضدها ١٤٧
- ٣ - اثبات ، نفي ونفي النفي ١٥٠
- ٤ - تلخيص ١٥٣
- ٥ - وحدة الاضداد ١٥٥
- ٦ - اخطاء يجب تجنبها ١٥٧
- ٧ - النتائج العملية للديالكتيك . ١٥٨

الفصل الخامس :

القانون الرابع : تحول الكمية الى كيفية او قانون التقدم بالقفز

- ١ - اصلاحات ام ثورة ١٦١
- ٢ - المادية التاريخية ١٦٥

القسم الخامس

المادية التاريخية

الفصل الاول : القوى المحركة للتاريخ

- ١ - خطأ يجب تجنبه ١٧٣
- ٢ - الوجود الاجتماعي والوعي ١٧٤
- ٣ - نظريات مثالية ١٧٥
- ٤ « الوجود الاجتماعي » والظروف المعيشية ١٧٦

القسم الثالث

دراسة الميتافيزيقيا

فصل وحيد : على ماذا يشتمل المنهج الميتافيزيقي ؟

- ١ - سمات هذا المنهج ١٠١
- ٢ - ايضاح ١٠٩
- ٣ - التصور الميتافيزيقي للطبيعة ١١٠
- ٤ - التصور الميتافيزيقي للمجتمع ١١٢
- ٥ - التصور الميتافيزيقي للفكر ١١٣
- ٦ - ما هو المنطق ؟ ١١٤
- ٧ - شرح كلمة « ميتافيزيقيا » ١١٦

القسم الرابع

دراسة الديالكتيك

الفصل الاول: مقدمة لدراسة الديالكتيك

- ١ - احتياطات تمهيدية ١٢١
- ٢ - مم يتولد المنهج الديالكتيكي ؟ ١٢٢
- ٣ - لماذا تغلب التصور الميتافيزيقي على الديالكتيك طويلا ؟ ١٢٤
- ٤ - لماذا كانت مادية القرن الثامن عشر ميتافيزيقية ؟ ١٢٦
- ٥ - كيف ولدت المادية الديالكتيكية . هيغل وماركس ١٢٨

الفصل الثاني :

قوانين الديالكتيك - القانون الاول - التغير الديالكتيكي

- ١ - ماذا نعني بالحركة الديالكتيكية ؟ ١٣٠
- ٢ - ليس من شيء نهائي - مطلق بالنسبة للديالكتيك - انجلس ١٣٢
- ٣ - السيرورة . ١٣٤

١٧٧ ٥ - الصراع الطبقي ، محرك التاريخ

الفصل الثاني :

مم تتأني الطبقات والظروف الاقتصادية

- ١٨٠ ١ - اول تقسيم كبير للعمل
- ١٨٢ ٢ - اول انقسام للمجتمع الى طبقات
- ١٨٢ ٣ - ثاني تقسيم كبير للعمل
- ١٨٣ ٤ - ثاني انقسام للمجتمع الى طبقات
- ١٨٤ ٥ - ما الذي يحدد الظروف الاقتصادية ؟
- ١٨٥ ٦ - انماط الانتاج
- ١٨٦ ٧ - ملاحظات

القسم السادس

المادية الديالكتيكية والايديولوجيات

فصل وحيد - تطبيق المنهج الديالكتيكي على الايديولوجيات

- ١٩٠ ١ - ما هي اهمية الايديولوجيات بالنسبة للماركسية ؟
- ١٩١ ٢ - ما هي الايديولوجية ؟ (العوامل والاشكال الايديولوجية)
- ١٩٢ ٣ - البنية الاقتصادية والبنية الايديولوجية
- ١٩٥ ٤ - الوعي الصحيح والوعي المغلوط
- ١٩٦ ٥ - فعل ورد فعل الايديولوجية
- ١٩٩ ٦ - منهج التحليل الديالكتيكي
- ٢٠١ ٧ - ضرورة الصراع الايديولوجي
- ٢٠٣ ٨ - خلاصة
- ٢٠٥ ثبت المصطلحات والاعلام
- ٢٣٣ قائمة بالمصادر